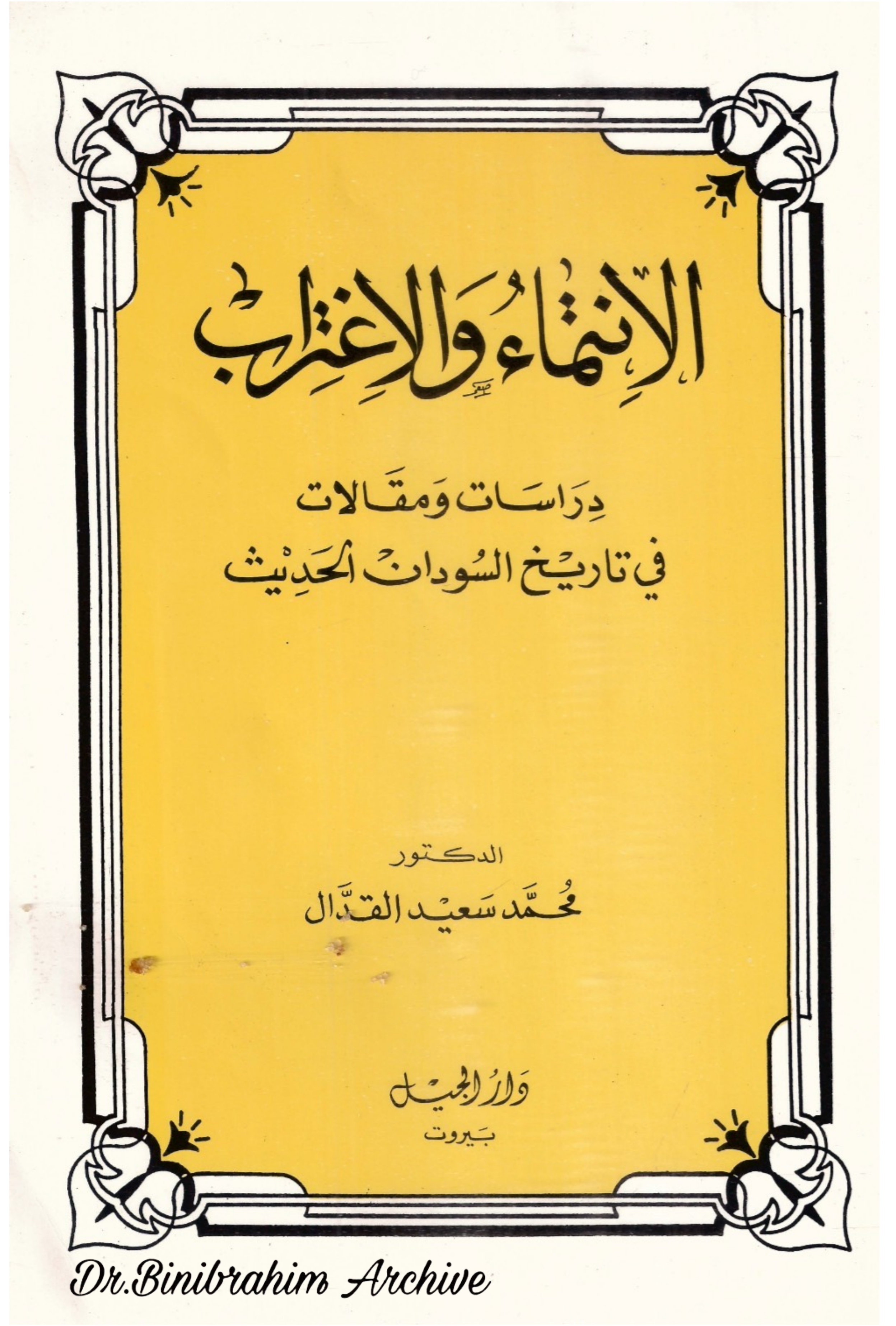


الانتماء والاغتراب

دراسات ومقالات في تاريخ السودان الحديث

الدكتور
محمد سعيد القدال

دار الجيل
بيروت

الانتماء والاغتراب

الانتماء والاغتراب

دراسات ومقالات
في تاريخ السودان الحديث

الدكتور
محمد سعيد القدال

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الاهـداء

الى زوجتي وابنائي

لعل في هذه الصفحات ما يمتن انتماءكم

لثرى هذا الوطن وتراثه ..

تقديم

هذه دراسات كتبت في مناسبات مختلفة وازمان مختلفة . وقد يبدو من تباين المكان وتباعد الزمن ان لا رابطة بينها . ولكن هناك خيوطا تربطها ، بعضها واه قد لا يستبينه القارىء ، والبعض الآخر يشدها شدا يمكن أن ندعي أنه متين .

أولاً ، يربط بينها منهج البحث التاريخي الذي ينتظمها . وتتناول الدراسة الاولى بعض جوانب ذلك المنهج ، في محاولة لتقديم نماذج للدراسات التاريخية السودانية التي تقوم على منهج لا يعالج التاريخ معالجة علمية تخضع الاحداث للنظرة الشمولية وتغوص عميقا الى قاعدتها المادية . واذا كان المنهج التاريخي غير العلمي قد بسط اكفه على ساحة الدراسات التاريخية ، فلأن القوى الاجتماعية التي تسيطر على مصير المجتمع قد شكلت له قاعدة ينطلق منها ، ومكنته بشتى المقومات . والبديل العلمي لهذا المنهج لا يأتي في غمضة عين ، بل يحتاج الى تضافر جهود شتى ، وان يتوفر لتلك الجهود الزمن الكافي لتتبلور خلاله .

وقد شملت مختلف الدراسات المنشورة في هذا الكتاب على بعض جوانب هذا المنهج . وتتناول الدراسة الاخيرة ردا على كاتب اختلطت عليه الحقائق اختلاطا مخلا . ويبدو انه من الذين لم يسمعوا بالمنهج العلمي ، ولم يحفلوا حتى بالتعرف عليه .

ويربط بين هذه الدراسات أيضاً ما سميته الانتماء والاغتراب . فمنذ بدايات القرن التاسر عشر ، والمجتمع السوداني يشهد حركة انتماء تشد اطرافه المتباينة التي جُمعت اشتاتها في بوتقة الكينونة السياسية التي اقيمت بالغزو الاجنبي . ومن ذلك التباين كانت تبرز قوى اغتراب تجذب تلك الاطراف بعيدا عن بعضها . وهذا يوضح عدم نضج الظروف الموضوعية بعد .

فالدراسة الثانية حول الحركة الوطنية في القرن التاسع عشر ، تشير إلى أن هناك انتماء بين مختلف القوى الاجتماعية في مقاومتها للحكم الأجنبي ، وان تلك المقاومة شكلت اساسا قرّب تلك القوى بعضها لبعض . وظلت عملية بلورة الوعي الاجتماعي تتواصل ابان الثورة المهدية . ثم اتخذت شكلاً أكثر جلاء بعد الغزو الانجليزي المصري للسودان . فأخذ الانتماء « للسودان » وطنا يتغنى به الانسان ويحلم في ربوعه وتغشاه الاحلام بين جنباته ، يشتد ويقوى . فالدراسة الثانية والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة تشكل أجزاء لنسيج واحد يمكن ان يندرج تحت « تطور الحركة الوطنية السودانية » . وكان تطور تلك الحركة عسيراً ، ولم يكن رحلة رومانسية تنساب في يسر ، وان كانت الرومانسية تتخلل بعض جنباتها وهي التي اعطت ذلك النفر زادا كم احتاجوا له في تلك الأيام التي احاطت بالناس فيها قوى خالوا الا خلاص منها ولا نهاية لها .

واكثر هذه الدراسات وضوحا حول الاغتراب الدراسة الثالثة والرابعة . فقد عجزت الدولة المهدية عن اختراق الحاجز الاجتماعي والثقافي والنفسي الذي يفصل الشمال عن الجنوب . وهذا راجع الى آفاق

الدعوة المحدودة وقصور ادائها. وبروز المدن الحديثة شكل جزرا من الاغتراب في محيط رعوى قبلي. ولكن هل ظل الجنوب وظلت المدن تشكل بؤر اغتراب، ام ان عوامل الانتماء كانت تشد الناس الى دائرتها التي كان محيطها يتسع وتتزايد عوامل الانصهار في داخلها؟

على ان هذه الروابط التي تجمع بين هذه الدراسات لا يعني انها تتكامل تكاملاً لا قصور فيه. فاذا عجزت هذه الدراسات عن بلوغ مانصبو اليه، فالامل معقود على ان يتم تلافي هذا القصور مستقبلا بفضل النقد والتوجيه.

بري
يوليو ١٩٨٨



المدرسة التاريخية السودانية:
المنهجية والأيديولوجية



تقديم

« ١ » كتب « ادونيس » مقتبسا « كانت » يقول « ان العصفور الذي يضرب الهواء بجناحيه لكي يطير يتصور انه لو لم يكن هناك هواء لكان طيرانه أسهل . والحقيقة انه لو لم يكن هناك هواء لما استطاع ان يطير » . وقد علق محمود العالم على هذا التصوير قائلاً بأنه لا سبيل الى التقدم والابداع في فراغ ، ولا سبيل الى التقدم والى القطيعة الجدلية الحقيقية الا من خلال الذاكرة التراثية . فلكي نطير ابعد من الهواء ، ولكي نتجاوزه ، لا نستطيع ذلك الا من خلال الهواء وبفضل الهواء وعلى الرغم من هذا الهواء [1] .

لعل في هذا النص ما يساعدنا على تخطي عقدة النقد . فالنقد عندنا ضعيف ان لم يكن معدوماً أصلا . ففي المجتمع القبلي شبه الرعوي ، وفي المجتمع العائلي الاكاديمي ، يضعف النقد أمام تلك الروابط . ويفهم النقد فهما ذاتيا بحتا . فهو اما تحامل او هدم او تقليل من شأن الآخرين . وقليلاً ما يؤخذ على انه تعامل جدلي مع الانتاج الفكري من أجل المضي به قدما فعندما نطرح المدرسة التاريخية السودانية للنقد ، فلكي نسير بفضلها ومرتكزين على انتاجها ، لا ان نكون نسخة مكررة منها ، ومتباعدين عن نقدها في قدسية لا تخدم الانتاج الفكري وتطوره .

---

(١) محمود امين العالم ، «ازمة الثقافة والمثقفين العرب» . جريدة ١٤ اكتوبر . الاعداد : ٨٣/١١/٢٩ ، ٨٣/١٢/١٣ .

ولا بد ان تنشأ اختلافات في أساليب التفسير التاريخي. وهي اختلافات ناتجة من التعقيد الملحوظ في مجرى التاريخ، وصعوبة استنفاذ ما يتخلله من علاقات معقدة ومتشابكة بين الاشياء والظاهرات. غير ان السبب الاكثر تأثيرا هو اختلاف الاهداف غير المباشرة لدى المؤرخين. وهذه الاهداف ليست اهدافا فردية ذاتية، بل هي تنقسم الى تيارات اساسها اختلاف المنطلقات الأيديولوجية [1] .

والايديولوجية «عملية ذاتية، وبتعبير اعمق اجتماعية، فأي رؤية لأي انسان هي جزء من حقل ايديولوجي يعيشه هذا الانسان، اختاره او لم يختره، تلقاه او لم يتلقه ارادة، تنفسه بوعي او بغير وعي، ولكنه جزء من حقل ايديولوجي، وبالتالي ذو بعد طبقي» [2] .

هذا البحث دراسة للمدرسة التاريخية السودانية من جانبيها المنهجي والايديولوجي. وهذا التقسيم فرضه اداء المدرسة التاريخية نفسها في تناولها للتاريخ. ويقع البحث في جزءين رئيسيين: الاول محاولة لتعريف المدرسة التاريخية السودانية، ويسعى الجزء الثاني لتناول بعض الامثلة من اداء تلك المدرسة في تعاملها مع التاريخ.

«٢» ما هي المدرسة التاريخية السودانية؟

نشأت المدرسة التاريخية السودانية في ظروف قريبة الشبه بتلك التي نشأت في ظلها المدرسة التاريخية العربية، والتي كتب عنها الدكتور مروة قائلا:

---

(١) حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية (بيروت، ١٩٧٩) الجزء الاول، ص ٤.

(٢) محمود امين العالم «الايديولوجية والاعلام». اليسار العربي، العدد ٤١، مارس ١٩٨٢ ص ٢٤، ٢٧.

« المدرسة التاريخية العربية نشأت وسط المثقفين العرب الذين انعتقوا من سيطرة البنى الاجتماعية التي سيطر عليها الحكم الاقطاعي العسكري العثماني المتخلف والمنحل تاريخيا ، واخذوا يتجهون للتعبير عن مصالح البرجوازية العربية النامية التي كانت مصالحها تزداد وثوقا مع الغرب الرأسمالي . وهذه الفترة هي ما عُرف بعصر النهضة . وقد اسهمت الدراسات التاريخية اسهاما ايجابيا في بعث وشحذ الشعور القومي وذلك بالتوجه الى الماضي في محاولة تقليد اساليبه ولكن في شيء من المبالغة المفرطة ، كما سعت الى بعث اصوله تحقيقاً ونشراً وشرحا ، وقد اجادت هذه المدرسة اصول البحث الاكاديمي الغربي ومنهجه التجريبي ، والذي بدأ يتعرض للنقد حديثا ويواجه دراسات تعتمد المنهج العلمي . وبدأ هذا الاتجاه الجديد يظهر على السطح بعد الحرب العالمية الاولى عندما تحولت الحوافز القومية السابقة الى انتفاضات وثورات وطنية مسلحة ، وتحولت حركة النهضة القومية الى حركة تحرير وطني تتعمق في الارض الجماهيرية شيئا فشيئا [١] .

فتحولت النظرة الى الماضي من مجرد تقليد اعمى جامد الى دراسة تفي بغرض هذا التحول [٢] . فالمدرسة التاريخية العربية نشأت في لحظة نهوض قومي لتعبر عنه وعن تطلعات البرجوازية التي كانت تقوده . ولم تكن المؤسسات الاكاديمية تحت نفوذ ذلك التحرك الجماهيري ، فوقع البحث الاكاديمي تحت نفوذ البرجوازية ، وكيفته مطرقة المنهج الاحادي تكييفا ليستقر في بوتقة الصراع الاجتماعي لخدمة تلك الطبقة . فالمدرسة التاريخية

(١) مروة ، ص ٦ ــ ٧ وقد اخذنا بعض جوانب هذا النص بتصرف مع المحافظة على جوهره .
(٢) غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري المعاصر (بيروت ، ١٩٧٨) ص ٢٩ .

العربية لم تنشأ من فراغ، ولم يتطور مسارها بعيدا عن الواقع. والمدرسة التاريخية السودانية نشأت في ظروف مشابهة، وانعكست عليها ظلال المدرسة العربية.

ظهرت المدرسة التاريخية السودانية مع بروز الحركة الوطنية التي بدأت بين البرجوازية التجارية في المدن وطلائعها من المثقفين. واتجهت في بداياتها الاولى نحو تجميع التراث حتى يساعد على شحذ الشعور القومي. ولكنها ظلت اجتهادات شخصية ومبادرات متفرقة، تستلهم مآثر المهدي حينا، وتخوض في أمجاد الماضي التليد حينا آخر، وتشرئب نحو دراسات التراث الاسلامي الوافدة من مصر[(١)].

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت الدراسات الاكاديمية المنظمة في اروقة كلية الآداب. واتجهت هذه الدراسات الى اجلاء الحقيقة عن بعض جوانب الماضي الذي عمل الاستعمار على تشويهه وطمسه. كانت تعتمد في سعيها ذاك على امتلاك ناصية البحث الاكاديمي، والوقوف على ادواته من وثائق واساليب كتّابه.. الخ ونشطت هذه المدرسة بعد استقلال السودان عام ١٩٥٦، وافرزت انتاجاً متتابعا في الستينات والسبعينات ليغطي جوانب القصور في تاريخ البلاد[(٢)]: ولم تقتصر هذه المدرسة على السودانيين فقط، بل شارك فيها غير السودانيين خاصة من البريطانيين الذين ساهموا بنشر دراسات عن تاريخ السودان، او شاركوا

---

(١) من ابرز ممثلي هذا الاتجاه المؤرخ محمد عبد الرحيم، ومقالات مجلة الفجر لمحررها عرفات محمد عبدالله، وهناك ايضا بعض اشعار التجاني يوسف بشير.

(٢) اتجهت الجهود في البداية نحو دراسة تاريخ المهدية دراسة اقليمية تستوفي كل وثائقها، ثم انتقلت الى دراسة فترة الاستعمار البريطاني. ويمكن الرجوع الى قائمة البحوث بمكتبة السودان بجامعة الخرطوم للوقوف على تلك الاطروحات.

في التدريس بجامعة الخرطوم، او اشرفوا على الدراسات الاكاديمية، من أمثال الأساتذة هولت وهل وساندرسون وغيرهم (١).

كان لنشأة المدرسة التاريخية السودانية في كنف الحكم البريطاني ان اتجهت الى الغرب تتلمس اساليب البحث فيه، وتؤهل نفسها في مؤسساته فأخذت بالمنهج التجريبي الذي سيطر على توجهات البحث الاكاديمي في جامعات الغرب الرأسمالي. فتأثرت به، وبجوانب القصور التي كانت تكتنفه (٢). وانبهرت بايجابياتها وسعت الى تجويدها، وهو سعي حميد أرسى قواعد ثابتة للبحث العلمي.

وقد أشار البروفسير يوسف فضل الى هذا الاثر الغربي قائلاً: «ان أثر روح النقد الغربية واساليب البحث والكتابة الحديثة واضحة في مؤلفات معظم المؤرخين السودانيين المعاصرين، وهو أثر مفيد للغاية ونأمل ان يقود الى طريقة اكثر اتزانا ودقة في تقديم تاريخي للحقائق» (٣). ويذهب الدكتور حسن عابدين الى القول بأن «المدرسة الحديثة منحت التاريخ قيمته الذاتية وحررته من عبودية التبعية للتاريخ الاوروبي»

---

(١) البروفسير ب.م هولت كان حتى عام ١٩٨٤ استاذا لكرسي تاريخ الشرق الاوسط بجامعة لندن. وله عدة مؤلفات ودراسات عن تاريخ السودان. وقد أسس دار الوثائق المركزية وكان اول مدير لها. اما البروفسير رتشارد هل فكان قبل تقاعده استاذا للتاريخ بجامعة درام. وعمل جاهداً على تأسيس مركز هام للوثائق السودانية هناك، والف كثيرا في تاريخ السودان بالذات في فترة الحكم العثماني ــ المصري وكان محاضرا بجامعة الخرطوم. اما البروفسير ن. ساندرسون فكان استاذا للتاريخ بجامعة لندن. وله ايضا عدة مؤلفات. وعمل محاضرا بجامعة الخرطوم. وكان اول مدير لشعبة ابحاث السودان التي تحولت الى معهد الدراسات الافريقية والاسيوية.

(٢) الحاج حمد محمد خير وميمونة ميرغني حمزه. «الدراسات الاكاديمية والثورة المهدية»، دراسات في تاريخ المهدية (الخرطوم ١٩٨٢) ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) YOUSIF FADL HASSAN, SOME ASPECTS OF THE WRITING OF HISTORY IN MODERN SUDAN. KHARTOUM, 1987 p. 29.

ويستمر ليقول : ان تجديد المدرسة الحديثة للمنهج العلمي ثورة اذ كشفت عن مصادر اولية جديدة [1].

واتخذت المدرسة التاريخية منهجاً صارما في تحقيق الوثائق والتدقيق في أمرها .. وهذا اعطى البحث التاريخي ارضية صلبة يقف عليها . كما برزت لها جوانب ايجابية اخرى . فقد اشار البروفسير يوسف الى ان الدراسة التاريخية بدأت تتبنى وحدة الفكرة التي تحتوي على موضوع او فترة زمنية . كما بدأت تتحول من التركيز عموما على التاريخ السياسي نحو الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، واهتمت بدراسة الافكار والمؤسسات اكثر من قبل [2].

ويعتبر البروفسير مكي شبيكة ــ طيب الله ثراه ــ رائدا لهذه المدرسة فقد ظل يقودها ويؤصل منهجها ويفرض ظله عليها ما يزيد على ثلاث حقب ، سواء بكتاباته او محاضراته او اشرافه على الدراسات العليا ، وجاء من بعده مجموعة من المؤرخين من تلاميذه الذين ترسموا خطاه واخذوا بمنهجه ولكن كانت لهم استنتاجاتهم المغايرة وتميزهم الذاتي في حدود تلك الخطى وذلك المنهج .

وقد تناول الدكتور ابو سليم منهج البروفسير شبيكة قائلا : ان « كتاب السودان في قرن » [3] انجاز علمي بالغ الأهمية لأنه يعتمد على

---

(١) حسن عابدين « خواطر وآراء حول كتابة تاريخ السودان » . بحث مقدم للمؤتمر القومي للتخطيط الثقافي الشامل . الخرطوم ١٩٧٩ .

(٢) يوسف فضل ، جوانب ص ٢٩ .

(٣) صدر كتاب السودان في قرن في ظل الاستعمار البريطاني ، فكان انجازا رائدا في مجال تاريخ السودان . ثم صدر عام ١٩٦٤ باسم السودان عبر القرون . وتتابعت طبعاته بعد ذلك .

الوثائق الاصيلة التي وقف عليها ، ولكن الجديد في الامر هو أخذ مكي لهذه الفترة من وجهة نظر تاريخية بحتة بما لها وما عليها . ثم يمضي ليقول « وهو قليلا ما يتعرض للنظريات والافكار او يتعرض الى وصف النظم وتحليلها لأن همه الاكبر هو الحادث ، والشخص الذي يظهر في الصورة هو المحرك للحادث » وينتهي الى ان شبيكة « يعطي القارىء الحرية فيتركه ليصل الى ما يراه من خلال ما يقرأ وعلى أساس ما يعطي من البيانات لا بما يعرضه عليه او يمليه ، فيفصل بين الحقائق والآراء ويذكر اين وجد هذا واين وقف على ذلك »[1] :

تطرح علينا ملاحظات ابو سليم هذه بعض الاسئلة . فهل ما تعرض له يمثل الجوانب الايجابية لمنهج البروفسير شبيكة ، ام ما تعرض له يمثل سلبيات هذا المنهج ولكنه لم يفصح عن ذلك لجلال المناسبة فترك لنا مهمة ذلك الافصاح ، ام هي خليط من هذا وذاك ؟ ان الاعتماد على الوثائق الاصلية هو أساس الدراسات التاريخية وهذا لا جدال حوله . أما ما ذكره عن « عدم التعرض للافكار والنظريات » . و« النظرة التاريخية البحتة بما لها وما عليها » ، فهي لا تتفق مع الواقع ولا مع الممارسة العملية .

فكتاب البروفسير شبيكة لم تستقبله كل فئات المجتمع بلا انفعال . لقد تعرض مؤلفه الى بعض المضايقات وصل بعضها الى التعدي الجسدي من فئات لم يعجبها بعض ما جاء في الكتاب . كما ان الحياد المطلق يجعل المؤرخ آلة لا علاقة له بصراعات المجتمع الذي يعيش فيه ، بينما هو

(١) محمد ابراهيم ابو سليم ، مكي الطيب شبيكة : ١٩٠٥ ــ ١٩٨٠ (دراسة قدمت في حفل تأبين البروفسير شبيكة . الخرطوم ١٩٨٠) ص ٢٥ ــ ٢٦ ، ٣٨ ــ ٣٩ .

في واقع الامر ليس كذلك إذ ان أي دراسة تاريخية هي موقف اجتماعي . وحتى الحياد المطلق موقف اجتماعي ايضا ، لأنه يترك القارىء حائرا بين أمور متشابكات ومصطرعات ، وقد تدفعه تلك الحيرة الى تبني الموقف الاضعف نتيجة ذلك الحياد . هل نحن ننادي بالمؤرخ الآلي الذي ينضح بالحقائق التاريخية المجردة ؟ وليس هناك دراسة تعطي « القارىء الحرية ليصل الى ما يراه » . بل هي حتى في أسلوب ترتيبها للوثائق تفعل ذلك في اطار رؤية ايديولوجية . وهذا لا يعني الا يكون المؤرخ سياسيا . على ان السياسة كمفهوم آني وحلقي تفسد التاريخ . ولكن هناك فرقاً بين الانتماء الايديولوجي لمنهج من مناهج البحث ، وبين اخضاع علم التاريخ لمتطلبات الصراع السياسي بين هذه الفصيلة او تلك من فصائل الحركة السياسية [١] .

وقد سعى الاستعمار البريطاني منذ سنواته الاولى الى تأسيس منهج تعليمي ينأى بالمثقف السوداني عن التفكير التأملي والتنظير ، لأن مثل هذا التفكير هو الذي يقود في النهاية الى نسف الاستعمار من قواعده . فها هو اللورد كرومر يؤكد على حكام السودان من الانجليز قائلا « ان الخطأ الاكبر في تعليم الفقراء كان الطموح الكبير في ادخال الدراسات الادبية . ان التعليم الابتدائي يجب .. ان يهتم بملاحظة الحقائق وليس بأي شكل من أشكال التفكير التأملي او الفكر » [٢]

يتعرض ابو سليم الى موقف شبيكة من الروايات الشفاهية . فيرى انه قليل الثقة بها ، وان كان يعتمدها ويستشهد بها كعامل مكمل لما وقف

(١) صلاح عيسى ، البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة (بيروت ١٩٨٤) ص ٩٠ .

(٢) تقرير الحاكم العام لعام ١٩٠٣ ، ص ٥١ .

عليه من وثائق. وقد اشار عبدالله علي ابراهيم الى ان هذا القصور في التعامل مع الروايات الشفاهية يشمل كل المدرسة التاريخية. فكتب يقول: «من الظواهر الغريبة في المدرسة التاريخية السودانية اهمالها التام لكل المحاولات الجارية لتطبيق منهج النقد التاريخي على الروايات الشفاهية في اعادة صياغة الماضي» [(١)]. ولا شك ان ضعف المصادر المكتوبة وقلتها في السودان يجعل الاعتماد على الروايات امرا ملحا. ولعل البروفسير شبيكة قد اعتمد عليها، لكنه تجاهل الاشارة الى المصادر التي استقاها منها.

فالمدرسة التاريخية السودانية لها صفات عامة اشترك فيها كل المؤرخين بدرجات متفاوتة. لعل من اهم جوانبها الايجابية:

١ / قدمت دراسات تاريخية فيها الخصوصية السودانية وعملت على دحض كتابات المؤرخين الاستعماريين والكشف عن تشويههم وزيفهم.

٢ / ركزت على الجوانب السياسية، ولكنها بدأت ترتاد مجال الدراسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

٣ / أسست منهجاً صارماً للبحث يعتمد على الوثائق ودراستها واكتشافها وترتيبها، والخروج منها بأبحاث تعتمد على رصد الأحداث رصداً يتوخى الدقة.

فهي من الناحية المنهجية الاكاديمية قد اكتمل بناؤها او كاد. ولكنها واجهت نقدا في حقلها الاكاديمي هذا، ليس في السودان بل وعلى

---

(١) A.A. IBRAHIM, SUDANESE HISTORIOGRAPHY AND ORAL TRADITION A PAPER PRESENTED AT I.A.A.S. KHARTOUM, 1978, page 1.

امتداد الوطن العربي. فها هو الكاتب المصري صلاح عيسى يذهب الى ان الاكاديميين العرب قد خضعوا الى «رذيلة ضيق الأفق، فجاءت معظم اسهاماتهم مجرد قدرة مذهلة على حشد كمية مهولة من التفصيلات التي لا تنسجم في أي مسار او تخضع لأي مفهوم كلي شامل، غير مدركين ان هذا «التجميع» المفتقر تماما لأي (تنظير) يؤدي نفس الدور الديماغوجي. فالتاريخ هنا لم يعد علما لفهم الماضي والتأثير في الحاضر وامتلاك المستقبل، ولكنه اصبح مجرد حوادث وحكايات يتسلى بها الناس ولا يفيدهم كثيرا الا يعرفوها. على ان الكاتب يؤكد على عدم طرح ادوات البحث الاكاديمية جانبا أو ازدرائها [١]. ولا بد لنا ان نقف عند هذا النقد. ولن يجدي كثيراً اذا انبرينا لكاتبه واستنفرنا كل قبيلة التاريخ وطردناه من قداسة الاكاديمية. ان الوقفة عند حديثه اجدى من التحصن خلف جدران (الاكاديمية الرفيعة) التي لا تتعدى جدران قاعة المحاضرات، بل قد تقف دون ذلك.

ويتناول الدكتور مروة الدراسات العربية الاكاديمية في رؤيتها للماضي، فيرى انها «قاصرة عن كشف العلاقة الواقعة الموضوعية غير المباشرة، بين القوانين الداخلية لعملية الانجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي، ولذا بقي تاريخ الفكر العربي — الاسلامي تاريخيا ذاتيا سكونياً او (لا تاريخيا) لقطع صلته بجذوره الاجتماعية، اي بتاريخه الحقيقي الموضوعي». ثم يمضي ليوضح ان منطلقه الفلسفي لرؤية الماضي منطلق شمولي، وهو نابع من واقع الصراع

(١) راجع مقدمة صلاح عيسى لكتاب: ريتشارد ميتشل، الاخوان المسلمون (بيروت، ١٩٧٨) ص ٧.

الاجتماعي الذي يعيشه مجتمعنا العربي. وهذا الموقف هو الذي يشكل نظرتنا للماضي، ذلك ان الماضي لا يتغير، الذي يتغير هو الحاضر وانه في حركته المتغيرة ينظر الى الماضي، وينتهي الى القول بأن الاختلاف في النظر الى الماضي صادر من منطلقات اجتماعية لا فردية، وموضوعية لا ذاتية. وعلينا ان نفرق بين الماضي وبين معرفة الماضي. فمعرفة الماضي اضافة خارجية تفد عليه من مصادر متعددة. فالموقف من الماضي في نهاية الامر موقف ايديولوجي، والموقف الايديولوجي في الاساس موقف طبقي (١).

ويذهب الدكتور رفعت السعيد الى القول بأننا نحتاج ان نفرق — على حد تعبير فرانز روزنتال — بين كتابة التاريخ وفهم التاريخ لأنهما أمران مختلفان. واكد على أهمية التعامل مع اجزاء الحقيقة من نظرة شمولية موضوعية. وميز بين مدرستين او منهجين في التاريخ: المدرسة الفردية والمدرسة العلمية. ولكنه يرى ان بينهما ظلالا متماوجة تأخذ من هذا وذاك، وتقترب اكثر من هذا الطرف او ذاك، على ان العين الفاحصة لا تخطئهما (٢).

فالمدرسة التاريخية السودانية لا تعني منهجية اكاديمية فحسب، وانما تعني الموقف الايديولوجي ايضا، وهو الذي حكم في نهاية الأمر توجهاتها واستنتاجاتها وتعاملها مع التاريخ. وعندما نتحدث عن هذه المدرسة فلا نعني استنتاجات موحدة، او نسخا مكررة لأمر واحد بل نقصد موقفا ايديولوجيا واحداً تفرعت منه عدة استنتاجات واجتهادات. فالموقف

(١) حسين مروه، النزعات، ص ٦ — ١٧.
(٢) رفعت السعيد، كتابات في التاريخ (القاهرة، ١٩٨٠) ص ٧، ١٨.

الطبقي واحد، اما الاداء فتحكمه التفاوتات الذاتية، مما فتح المجال للتشعب في اطار الموقف الايديولوجي الواحد.

وقد تميز هذا الموقف الايديولوجي في مجال البحث التاريخي بالسمات الاساسية التالية:

١ / الحشد الكبير للوثائق بعد تحقيقها وتنسيقها، ثم الاعتماد عليها لتكون تاريخا بل ولتنطق بالتاريخ. ولكن الوثائق لا تنطق وانما تستنطق. هي المادة الاساسية في دراسة التاريخ، ولكنها ليست هي التاريخ «ان الوثائق ــ أي وثائق ــ هي مجرد مصدر واحد من مصادر المعلومات التي يبني عليها المؤرخ استنتاجاته، والبيروقراطيون من المؤرخين هم الذين يتصورون دائما ان الملفات الحكومية تحوي دائما الحقائق وان السجلات الحكومية لا تكذب [١]. وليس هذا تقليلا من قيمة الوثائق سواء كانت اثرية او شفاهية او مكتوبة. فبدون الاعتماد على الوثائق يصبح علم التاريخ خاضعا للتقديرات الذاتية البحتة والافتراضات المشطة. ان علم التاريخ يشكل وحدة جدلية لا تنفصم لعنصرين اساسيين هما تجميع الوثائق وتصنيفها ودراستها من جانب، ثم التوصل إلى التعميمات النظرية من الجانب الآخر. وأي خلل يصيب هذه الوحدة الجدلية سيقود الى آثار سلبية على مسار البحث التاريخي. فالاعتماد اساسا على التجميع مع اهمال التنظير يؤدي الى مختلف النتائج السلبية الناجمة عن التناول الاحادي. والاعتماد على التنظير مع اهمال الوثائق ودراسة واقع الحال يقود الى نظريات جوفاء رمادية والى اقحام الوقائع قسرا في اطار تلك

(١) صلاح عيسى، البرجوازية، ص ٦٢.

النظريات[1] . فحتى تصبح الوثائق نابضة بالتاريخ لا بد من دراستها في اطار عصرها . وهذا يحتاج الى تحليل ودراسة التركيب الاقتصادي — الاجتماعي للعصر . فنحن « لا نستوعب التراث الا في ضوء تاريخيته اي في ضوء حركته ضمن الزمن التاريخي الذي ينتمي اليه . اي لا نستوعبه الا من وجهة علاقته بالبنية الاجتماعية السابقة التي انتجته ، او الظروف التاريخية التي انتجت بدورها تلك البنية »[2] فالتراث الماضي لا تتضح معالمه خارج تاريخيته . وعندما تبرز معالم ذلك الاطار تستنطق الوثيقة التاريخية وتصبح وسيلة لقراءة الماضي ، لا ان تصبح شيئا محنطا يقود الى « العدمية التاريخية » .

٢ / ويقودنا هذا الامر الى موقف آخر ، وهو افتقاد النظرة الشمولية للحدث التاريخي . ان افتقاد هذه النظرة يقف حائلا دون تلمس حركة التاريخ . كل النظريات خرجت من رؤية شمولية . ولعل اسطع مثال نظرية كروية الارض . فلولا رؤية الارض في اطار حركتها الشاملة مع الكواكب الاخرى لبقيت شيئاً مسطحاً ثابتا لا حراك فيه ، تشرق عليها الشمس وتغيب عنها . كيف استطاع العلماء رؤية الشمس في كرويتها ودورانها دون ان يكونوا قد خرجوا من محيطها ؟ ان تطور المعرفة البشرية أدى الى التناول الشمولي وهو الذي ساعد الانسان لمعرفة الظاهرة التي ظلت قائمة لملايين السنين دون التعرف عليها . فكانت نظرتهم الكونية الشمولية هي وسيلتهم الى تلك المعرفة .

---

(١) محمد سعيد القدال ، « الدراسات التاريخية العليا ، بعض الملاحظات عن الحاضر والمستقبل » ندوة الدراسات العليا في الجامعات العربية (الخرطوم ١٩٨٣) ص ١ .

(٢) حسين مروه ، النزعات ، ص ٢٦ .

وماذا فعل ماركس ليقف على قوانين حركة المجتمع غير تناوله الكوني لحركة المجتمع والابتعاد عن التنقيب تحت قدميه والانكفاء عليهما.

٣ / وانعدام النظرة الشمولية افضى الى التناول الاحادي للظاهرة التاريخية. فأصبح الحدث التاريخي يدرس معزولا عن الظروف الموضوعية التي شبَّ فيها، ويؤخذ مجردا من جدليته التي هي أساس حركته. ويواجه هذا المنهج رفضا متصاعدا حتى في الدوائر الاكاديمية الرأسمالية الغربية. فيعلن البروفسير بترفيلد قائلا «توجد أدلة عديدة لوجود روح جديدة في الدراسات التاريخية، والتي يمكن ان تعزى الى نفوذ ماركس. لقد اسهمت الماركسية في كل الدراسات التاريخية اكثر مما يعترف به غير الماركسيين. لقد صححت الفهم القديم الذي يتحاشى القضايا الاساسية بمعالجة التاريخ كحقل لنشاط أفكار مجردة» ويتبعه بروفسير فنلى معلنا «ان الماركسية قائمة في تجربتي الفكرية.. لقد وضع ماركس نهاية لأي فكرة تقول ان دراسة التاريخ هي نشاط مستقل، ووضع نهاية للاستنتاج القائل بأن مختلف اوجه النشاط البشري اقتصادي وسياسي وثقافي وديني ــ يمكن معالجتها معزولة عن بعضها البعض» [1].

٤ / وانحصر جهد المدرسة التاريخية في دراسة البناء الفوقي: فدرست الأفكار والأنظمة السياسية وافنت جهدها فيها دون ان تغوص ــ الا لماما ــ الى قاع البنية الاقتصادية ــ الاجتماعية، اي الى البناء التحتي. فوقفت عاجزة أمام الكثير من الظواهر التاريخية او تناولتها تناولا عابرا.

---

(١) جون لويس، ماركس والتاريخ (ترجمة محمد سعيد القدال بالالة الكاتبة، الخرطوم ١٩٨٢) ص ١٢ حاشية ٦.

ان تفسير أي ظاهرة تاريخية فكرية أو سياسية أو اجتماعية أو محاولة فهمها لن يتأتى دون الوقوف على الاساس الذي خرجت منه . أما هذه المدرسة فركزت همها على دراسة المؤسسات وتطور الأفكار . فانتهجت اسلوب النظر الى تاريخ تطور الفكر على أساس تاريخ أفكار فقط او انتاج فكر « شخصي » تنحصر علاقته بأشخاص منتجيه دون النظر الى أي علاقة له او لهؤلاء الاشخاص بظروف العصر الذي ينتسبون اليه ، ولا بخصائص المجتمع الذي عاشوا وفكروا ضمن علاقاته الاجتماعية ، وضمن الخصائص المتميزة لهذه العلاقات ، اي دون النظر الى صلة العملية الفكرية بعملية التفاعل بينهما وبين مجموعة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية [١] .

هذه الخصائص الاربع تشكل موقفا ايديولوجيا واحدا . فما هي سماته ؟ اهم سماته ان مدخله الى التاريخ هو دراسة الفرد . فالتاريخ سجل لبطولات الأفراد العباقرة الذين يحركون الأحداث بأطراف اصابعهم . ويهمل هذا الموقف او يتجاهل دور الناس في صياغة الاحداث . ويذهب الى ان اهمال دور الفرد في التاريخ او التقليل من شأنه يتعارض مع وقائع الاحداث التي صنعها بالفعل القادة . ولا احد يختلف معها في ان هذا التقليل والاهمال من دور الفرد يخالف الواقع ، ولكن التركيز المطلق على دوره يخالف ايضا واقعا آخر . ان التركيز على دور فرد ما او مجموعة أفراد في التأثير على ظاهرة تاريخية معينة ليس هو المنهج الذي يمكن الاعتماد عليه في رؤية ظواهر التاريخ . ان هذا التركيز يغفل عشرات العوامل المعقدة التي أثرت على الظاهرة ، ويحصر المسألة في

---

(١) حسين مروه ، النزعات ، ص ٤٤ .

جوانب فرعية مهما كان تأثيرها فانها لا تستطيع ان تؤثر في الظاهرة التاريخية تأثيرا يقلبها من النقيض الى النقيض [1].

ان تركيز المدرسة التاريخية على دور الفرد هو من صميم الايديولوجية البرجوازية التي تمجد الذاتية، بل ان الذاتية هي رونق تلك الايديولوجية في عهد ازدهارها وهي تنفلت من ربقة النظام الاقطاعي وعبودية الارض. وتقيم للانسان كينونته بعد ان كان مجرد وجود في دنيا الكنيسة، ولكن اي انسان؟ انه الانسان البرجوازي الجديد، لذلك فهي تهمل او تتحاشى دور الجماهير وتخشى حركتها. وتهاب ان تغوص الى قاع الحركة التاريخية التي قد تكشف لها اصالة تلك الحركة الجماهيرية، او تبرز لها المزيد من نماذجها الحية، فيصبح امر الحاضر الى زوال، ويصبح مصير البرجوازية ايضا الى زوال، بينما هي تسعى الى تأسيس مملكتها والى الابد. فالطبقات المسيطرة ضد حركة التاريخ الجدلية الصاعدة المنتصرة. لذلك فان هذه الايديولوجية تقف مع سكون الحركة والحفاظ على الوضع الراهن، والحفاظ على امتيازاتها وتفوقها التاريخي. فالذاتية تشكل العنصر الاساسي المكون لايديولوجيتها لأن الفرد المتفوق والمسيطر في تلك اللحظة التاريخية، وهو البرجوازي، هو صانع الاحداث وهو الباقي والخالد ابدا. وحتى الدين المسيحي اضطر الى ان يكيف نفسه مع تلك الايديولوجية. فقد اوضح ماكس فيبر وارنولد توينبي كيف ان القيم البروتستانتية الجديدة تدعم بقوة جوهر النظام الرأسمالي بتركيزها الجديد على الفرد. فساهمت في تأسيس دولة رأس المال وتراكم الارباح [2].

---

(١) صلاح عيسى، البرجوازية، ص ١٠١.

(٢) جون لويس، ماركس، ص ٥.

المدرسة التاريخية السودانية تنتهج الايديولوجية البرجوازية، وهي غارقة فيها وتتنفسها بوعي أو بغير وعي، ارادت ذلك ام لم ترد. فخلف كل موقف فكري تقبع قاعدة ايديولوجية صلبة، ويكون ذلك الفكر انعكاسا لها ومدافعا عنها، وقد ينفلت منها نسبيا، ولكنها تظل ممسكة بتلابيبه. فالمدرسة التاريخية السودانية جزء من حقل ايديولوجي كبير له تجلياته في مجال الأدب والاقتصاد والسياسة، فما هي معالم ممارساته في مجال تاريخ السودان.

«٣» المدرسة التاريخية في التطبيق:

نتناول هنا بعض الامثلة لنرى كيف مارست المدرسة التاريخية منهجها في دراسة تاريخ السودان، لعل في هذا ما يُقرِّب المناقشة النظرية الى ارض الواقع.

أ ـ تقسيم تاريخ السودان الى حقب:

قسم تاريخ السودان الى حقب وعهود وهي: العهد المروي الوثني، الممالك المسيحية، الممالك الاسلامية، الحكم التركي ـ المصري، الدولة المهدية، الحكم الثنائي، السودان المستقل. وهذا التقسيم تم على أساس البناء الفوقي دون المعالجة الشاقة للأساس المادي الذي قام عليه ذلك البناء. فأصبح التاريخ وقفا على دراسة الانظمة السياسية والتغييرات التي تطرأ عليها، دون أي منطق داخلي يقنع بأهمية ذلك التغيير ولزومه. واصبحت هذه «الوصفة التاريخية» هي سمة الانتاج الاكاديمي. ان تغيير النظم السياسية والافكار أمور لا يمر عليها البحث التاريخي مروراً عارضاً. ولكن ذلك التغيير لا يعني بالضرورة تغييرا في البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية، وقد يكون مطابقا لها. فلنا ان نسأل هل تغير نمط الانتاج

في المجتمع بانتقال البلاد من عبادة الالهة على أيام الدولة المروية إلى إعتناق المسيحية؟ وهل أدى القضاء على الحكم التركي ـــ المصري وقيام الدولة المهدية على انقاضه الى تغيير نمط الانتاج وهياكل المجتمع.

إن هذا التقسم تأسره الاحداث الساطعة ذات الوهج، كإنهيار إمبراطورية أو انبثاق فكرة جليلة. ولكنه لا يهتم بالاساس الذي أدى لذلك الانهيار والانبثاق، وكأنما حدود هذا الانهيار والانبثاق تحكمها قوى وليست قوانين يستطيع الانسان ان يقف على امرها، ان التاريخ لا بد ان يهتم بتلك اللحظات الحاسمة في تاريخ البشر، ولكن التاريخ ايضا لا بد ان يهتم بقدر اكبر بالذين صنعوا تلك الأحداث لا بالذين تصدوا لأمرها بعد ان نضجت. ان التاريخ يصنعه اولئك الذين انتخبوا وأسسوا البناء المادي للمجتمع. من الذي صنع مثلا تاريخ الفور والفونج؟ هل هم ذلك الرهط من الناس الذين قاتلوا في المعارك وزرعوا وحملوا على كاهلهم كل اعباء الحياة، ام ذلك النفر من السلاطين ووكلائهم من رجال البلاط ورجال الدين؟ ان هذا التقسيم الفوقي لا يهمل أمر ذلك الرهط في التاريخ بل ويهمل ايضا أمرهم في الحاضر، ويرى ان دورهم هامشي. وينصب جهده في المناورات والتكتيكات والصراعات الفوقية. وينظر الى صناع الحياة على ان ذلك عبد وهذا فلاح. فكيف لعبد او فلاح ان يصنع الحياة ويقيم اساسها المتين؟ ان ملاك العبيد وامراء الاقطاع هم صناع التاريخ. انهم بحق قادة الاحداث التاريخية ولكنهم ليسوا صناع التاريخ.

وحلت «لعنة» التقسيم الفوقي هذه بالحقب نفسها، فقسمت كل حقبة الى فترات زمنية. لنأخذ بعض الأمثلة. قسمت فترة الحكم التركي ـــ المصري الى عهود تطابق الفترات التي حكم فيها ولاة مصر: محمد علي

ــ عباس ــ محمد سعيد .. الخ . وكأنما وفاة حاكم في مصر ومجيء آخر تؤدي الى تغيير في أسس النظام الاستعماري العثماني . صحيح ان ذهاب حاكم ومجيء آخر لا بد ان يحدث تغييرات في تفاصيل الحكم وبعض تكتيكاته ، ولكن هذا التغير لا يصبح اساسا لتغيير نظام الحكم وتقييم ادائه في البلاد وكأنما به فتحت صفحة جديدة .

بل ان تلك « اللعنة » تلاحق الامير حتى في عهد كل والٍ من الولاة . فتتحدث كتب التاريخ عن فترة خورشيد باشا وأبي ودان باشا وماحي بك .. الخ ، وهم حكام السودان من الاتراك . وهكذا اقتصرت دراسة فترة الحكم التركي في السودان على دراسة السياسة الاستعمارية . ولكن ماذا عن تاريخ الشعب السوداني وتاريخ المجتمع السوداني ، وماذا كان يتم في احشائه من تغييرات وتحولات وردود أفعال ؟ لا نجد شيئا ، اذ تحول التاريخ الى سجل لنشاط الحكام وتحركاتهم ورصد ادق التفاصيل عن حياتهم . حتى ان احد الكتب تتحدث عن والٍ تقاعد لاصابته بمرض « الناسور » ! هذا تاريخ يبعث على الغثيان [1] .

وقسم تاريخ الدولة المهدية (١٨٨٥ ــ ١٨٩٨) الى مناطق دارفور ، كردفان ، القضارف ــ القلابات .. الخ وكانت كل دراسة رصداً لنشاط الامراء والعمال : فترة حمدان ابو عنجة ، عثمان ادم ، يونس الدكيم .. الخ ، وجمعت وثائق كل منطقة رصدت ودرست على حدة ، وتحولت كل دراسة الى موضوع عن الدولة المهدية قائم بذاته . حتى اصبح امامنا

---

(١) راجع على سبيل المثال : مكي شبيكة ، السودان عبر القرون (بيروت ، ١٩٦٥) وكذلك اطروحات الدكتوراه التي قدمت لجامعة الخرطوم مثل : محمد الامين سعيد (١٩٧٦) ، بشير كوكو حميده (١٩٧٧) ، عوض عبد الهادي العطا (١٩٧٨) .

دراسات لدول مهدوية وليس دولة مهدية واحدة . واغلب تلك الدراسات رصد ممل . وتناول كل باحث موضوعه حسب تقديراته الذاتية . ووجد بعض تلك الدراسات طريقه للنشر ، والبعض لم ينشر بحمد الله [١] واصطفت تلك الدراسات ــ ما نشر وما لم ينشر ــ في مكتبة السودان ، لم يتسرب منها شيء ليؤثر في بنائنا النفسي وبلورة وعينا القومي والوطني . ونحن نصيح ان الدراسات قد ارهقت تاريخ المهدية ونطالبها بارتياد مجالات جديدة . نحن فعلا كتبنا الكثير عن تاريخ المهدية ، ولكننا لم ندرسه ، نحن رصدنا وثائقها واحداثها ووقفنا عند ذلك الرصد .

واستمرت لعنة التقسيم فحلت بفترة الاستعمار البريطاني (١٨٩٨ ــ ١٩٥٦) . واخذت الدراسات تترى عن فترة ونجت وستاك وسايمز وغيرهم ، وهم حكام السودان من البريطانيين [٢] وتذهب اغلب الدراسات الى الربط بين تغيير الحاكم البريطاني وتغيير السياسة البريطانية في السودان حسب رغبة ذلك الحاكم وتصوره ، كأنما السودان حظيرة خاصة به يعبث بها كيف يشاء . ويحتجون بأنهم اطلعوا على الوثائق وهي التي أدت بهم الى تحديد تلك السياسات . صحيح ان حكام السودان من البريطانيين كانوا يتمتعون بدرجة كبيرة من الاستقلال اذا ما قورنوا بنظرائهم في المستعمرات البريطانية الأخرى . ولكن ذلك الاستقلال لم

---

(١) راجع على سبيل المثال الكتب التي نشرتها جامعة الخرطوم وهي :
ــ موسى المبارك الحسن ، تاريخ دارفور السياسي (بدون تاريخ) .
ــ محمد سعيد القدال ، المهدية والحبشة (١٩٧٣) .
كذلك راجع رسائل الماجستير بمكتبة السودان ، جامعة الخرطوم عن : الجزيرة ، بربر .. الخ

(٢) راجع : P.M. HOLTAND M.W. DALY, THE HISTORY OF THE SUDAN, (1979)
GABRIEL WARBURG, THE SUDAN UNDER WINGATE (LEIDEN, 1979).

يكن يعني ان الحاكم البريطاني كان يبتدع سياسات خارج الاطار العام للسياسة البريطانية ، وانما كان يبتدع تكتيكات متغيرة للسياسة البريطانية وهي تسعى لتلائم نفسها مع الاوضاع المتغيرة في المستعمرات . ولا شك ان كل حاكم قد ترك بصماته في كل مستعمرة . ولكن هذا لا يصبح اساسا لتقسيم السياسة الاستعمارية الى فترات تحددها تغييرات الحكام . ولم تتعرض أي من تلك الدراسات الى تحليل طبيعة الاستعمار البريطاني حتى تهتدي بذلك التحليل في دراستها لسياسته في السودان . ولكنها الايديولوجية التي لا ترى في التاريخ مدخلا سوى بطولات الافراد ورصد حركاتهم .

ما هي آثار هذا التقسيم على دراسة التاريخ ، وما هو المخرج منه ؟ ان تقسيم التاريخ الى فترات وفقا لتتابع الانظمة السياسية او الحكام أمر هين على الباحث . فأغلب الوثائق التي في متناولنا تشير الى هذه الحقب وتفصل في أمرها ، مما يجعل التعرف عليها ميسورا ، وقد كتبت هذه الوثائق بمعرفة الحكام او تحت نفوذهم ، فجاء معظمها سجلا لنشاطهم ، وانحصر أمر التاريخ في فئة محدودة هم الحكام والطبقة التي كانوا يحملون اعباء الدفاع عن مصالحها . ولكن ماذا عن تاريخ الفئات العريضة التي حملت عبء الانتاج الاجتماعي ، وماذا كتب عن تاريخ القوى العريضة التي زرعت وشيدت وقاتلت ؟ ومن الذي يحرك التاريخ ، هل هو مجمل الانتاج الاجتماعي او ما يفرزه من ابنية فوقية : دولة ، افكار ، قوانين اي البناء الفوقي الذي تحتكره تلك الفئة التي خلفت وثائق عن نشاطها ؟ ان المخرج من نفق الاغتراب التاريخي ، هو البداية لدراسة تاريخ القوى المنتجة في المجتمع ــ البداية لدراسة التاريخ الحقيقي .

لنأخذ مثالاً آخر نوضح له ما نذهب اليه :

ب ـــ دخول الاسلام وانتشاره في السودان :

وتناولت المدرسة التاريخية دخول الاسلام الى السودان وانتشاره ، منذ تسربه البطيء في منتصف القرن السابع حتى تأسيس مملكة سنار (١٥٠٤) ، ثم إنتشار الطرق الصوفية على أيامها . ما الذي ادى الى ذلك الانتشار؟ الامر لا يتعلق بكون الاسلام دينا سماويا ، وان انتشاره تم لصفاء افئدة الناس واستعدادهم لتقبل الدين الجديد . اذا كان الامر كذلك لكان انتشار الاسلام آلياً ولما واجه المسلمون في سبيل نشره حروبات ومشاقاً . وليس الامر صراعا بين ديانات : واحدة يضمحل شأنها واخرى صاعدة تحتل مكانها . فما الذي يؤدي الى ذلك الاضمحلال في بلد ما ، بينما يظل أمر ذلك الدين ثابتاً في بلد آخر؟ فاعتناق أهل البلاد للمسيحية وقيام ممالكها في البلاد لا يشكل بمفرده حدا فاصلا في التاريخ ، ما لم يكن ذلك التحول مصحوبا بتحول في أصل التركيب الاقتصادي ـــ الاجتماعي ، وان ذلك التحول في العقيدة كان الوعاء الايديولوجي للبناء الجديد . لذلك هناك حاجة لدراسة المجتمع قبل الممالك الاسلامية وفي ظل تلك الممالك ، للوقوف على التحولات التي كانت تتم في داخل نمط الانتاج ، وان نسعى لاكتشاف العلاقة بين البنية الجديدة والدعوة الجديدة ، والنفاذ الى أي مدخل آخر يكون مقنعا لذلك التحول . وهناك دراسات بدأت تنير الطريق ، وأخرى تسترشد بهديها [١] .

---

(١) نشير هنا الى الدراسات الاساسية التالية :

YOUSIF FADL HASSAN, THE ARABS AND THE SUDAN (KHARTOUM, 1973)

مصطفى سعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠) والى اطروحة الحاج حمد محمد خير لنيل درجة الدكتوراه (١٩٨٤) واطروحة عبد السلام سيد احمد للماجستير ١٩٨٣ من جامعة الخرطوم .

وتتحدث الدراسات عن الصوفية التي دخلت البلاد ، واخذت تنتشر انتشارا واسعا منذ القرن السادس عشر. ما الذي مكنها من ذلك الانتشار ، هل لأنها بلغت مملكة الفونج ووجدت التربة صالحة والجو مهيأ فكتبت لها الغلبة؟ [1] فما هو وجه ذلك الصلاح وما هي ابعاد ذلك التهيؤ؟ ان العلاقة بين النهج الصوفي وواقع المجتمع الذي تقبله علاقة مفقودة. فكيف يستطيع فكر وافد ان يجد قبولا رائعا كالذي لقيته الصوفية ، ما لم يكن فيها ما يعبر عن نهوض الناس في لحظة تاريخية معينة. على ان العلاقة بين الفكر والواقع ليست علاقة ميكانيكية آلية. ان هذا المنحى في التناول يقود الى حتمية اقتصادية والى تفسير تقني للتاريخ. وهذا ما وضحه بروفسير لويس قائلا: «فحقيقة ان كل التفسير في العلوم ، والمسائل القانونية ، وفي مسائل الحياة اليومية هو تفكير حول العالم الخارجي ، مؤسساته ، قيمه ، اهدافه وافكاره ، لا يعني ان ذلك التفكير نسخة مكررة لما يتم التفكير فيه ، الفكر دائما انتقائي ، خلاق ، تفسيري ويسعى الى القيم. ويمكن ان يكون فقط منتسبا لما يفكر فيه ، ولكنه اذا كان مجرد انعكاس للأصل الذي ينبع منه ، مجرد نتاج لتلك الظروف فلن يكون فكرا بأي حال من الاحوال ، وبما انه فكر فانه يمارس تأثيره المستقل على المادة التي يفكر فيها ، يفسرها ، يصل الى استنتاجات حولها ، يفهمها ، ثم يتصرف بناء على ذلك» [2].

ان انتشار الصوفية لا يفسره اخلاص الرواد الاوائل وقوة عارضتهم. فهذه عوامل ذاتية مساعدة. ان التحولات السياسية والايديولوجية التي

---

(١) راجع مقدمة البروفسير يوسف فضل لتحقيقه القيم لكتاب الطبقات ــ الخرطوم ، ١٩٨٠ ص ٨ ــ ٩.

(٢) جون لويس ، ص ٦.

تفرض نفوذا بينا في توجيه المجرى العام للتاريخ ، هي لحد كبير وليدة الظروف الاقتصادية المتجددة ، ولكن العلاقة بين تلك القوى جد شاقة ، فهي متشابكة ومعقدة ، والظلال تتماوج بين الموضوعي والذاتي . ولكن بدون الوقوف عليها وتمحيصها لا يستقيم التفسير ويبقى الامر مبتورا .

وهناك سؤال جد ملح : لماذا وجدت الصوفية دون التيارات الاسلامية الأخرى طريقها الى بلاد السودان ، وعلقت به حتى يومنا هذا ؟ هل هي مجرد الصدفة ؟ الصدفة وحدها لا تفسر الظاهرات التاريخية ، لأن الصدفة لا تعمل في فراغ مطلق . ففي كل ميدان بمفرده توجد ضرورة داخلية وقانون ملازم يشقان لنفسيهما طريقا في اطار تلك الصدفة . وقد أشار انجلز الى انه بقدر ما يفلت نشاط اجتماعي معين ــ أي عدد كامل من الوقائع الاجتماعية ــ من مراقبة الناس الواعية ويخرج من تحت سلطانهم ، وبقدر ما يبدو هذا النشاط متروكا للصدفة ، بقدر ما تشق القوانين الداخلية الملازمة لنفسها طريقا في اطار هذه الصدفة بحكم الضرورة الطبيعية . فكل صدفة لها جذورها التاريخية [١] .

ان الدراسات التي صدرت مؤخرا حول وثائق الارض في مملكتي الفونج والفور تشكل اساسا يساعد على تفسير ظاهرة انتشار الصوفية [٢] . فأغلب النشاط الاقتصادي ــ الاجتماعي في تينك المملكتين كان يقوم على الارض . ولعل التحولات التي كانت تحدث في الممالك المسيحية قد افضت الى نظام اقتصادي ــ اجتماعي عبر عن نفسه في البحث عن

---

(١) فردريك انجلز ، العائلة والملكية الخاصة والدولة ــ موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣١ .

(٢) محمد ابراهيم ابو سليم ، الفور والارض ، وثائق تمليك الخرطوم ١٩٧٥ .

R.S.O 'FAHEY AND M.I. ABU SALAM. LAND IN DAR FUR CAMBRIDGE' 1983 .

ايديولوجية جديدة. وربما كان واقع السودان الافريقي وضعف موروثه الثقافي الديني قد شكل تربة مناسبة لنمو تيار الزهد. ولا ننسى أمر البلاد الاسلامية المجاورة وما كانت تفرضه حركة النشاط التجاري والقوافل التجارية من ضرورة ارسال طلائع تمهد الطريق لذلك النشاط وتلك القوافل. ربما نجد في تشابك كل تلك العوامل تفسيرا لتلك الظاهرة.

لنأخذ مثالاً ثالثا:

ج ـ الغزو العثماني ـ المصري للسودان:

وتناولت الدراسات التاريخية الغزو العثماني ـ المصري للبلاد والسياسات التي طبقها ذلك الاستعمار والتي تحكمت في مصير السودان مدى نصف قرن من الزمان. وقد اعتمدت تلك الدراسات على وثائق ذلك العصر، وتوصلت الى استنتاجات مختلفة حول الاسباب التي دفعت محمد علي لغزو بلاد السودان. فمن رأى ان السبب هو سعي محمد علي للبحث عن السودانيين لاسترقاقهم، وللبحث عن الذهب [١] ومن رأى ان السبب سياسي، اذ كان يهدف للقضاء على المماليك الذين فروا جنوبا وأخذوا يؤسسون انفسهم في شمال السودان. وذهب فريق ثالث الى ارجاع اسباب الغزو الى تشابك عدة اسباب كلها مرتبطة بتطلعات محمد علي وطموحاته. واشتط فريق رابع الى تقديرات ذاتية، اساسها ان محمد علي قرأ عن السودان فقرر غزوه. وهذه الاجتهادات ظاهرة حيوية في مجال البحث الاكاديمي، ولكنها حصرت اجتهاداتها فقط في التعامل مع الوثائق، فجاءت خلافاتها «مبارزة وثائقية».

---

(١) شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٨٠.

RICHARD HILL, EGYPT IN THE SUDAN: 1820-1881 OXFORD, 1959, p. 7-8.

حسن احمد ابراهيم، محمد علي في السودان (الخرطوم بدون تاريخ).

ان الاسباب التي قادت الى ذلك الغزو متشابكة . وهو كأي ظاهرة تاريخية يحتاج الى تناول شمولي لمعرفة كنهه ودوافعه . فنبحث عن أسباب الغزو في اوضاع العالم في مطلع القرن التاسع عشر ، وفي نمو السوق الرأسمالية العالمية التي بدأت تمديدها لما وراء البحار. فالطبيعة العالمية للرأسمالية دفعت بها لترتاد كل فجاج العالم التي تيسرت لها سبل الوصول اليها . فأخذت الدول الاوروبية تتنافس سلميا في البحث عن أسواق لتصريف فائض انتاجها الصناعي. فكانت مصر ثم السودان مسرحا لذلك النشاط الرأسمالي في مرحلة المنافسة الحرة. والقت الدول الرأسمالية بثقلها ضد محمد علي ليتحول من سياسة « الباب المقفول » الى سياسة « الباب المفتوح » ، مما مهد مستقبلا الى تدفق رأس المال المالي الى مصر. هذه خلفية اساسية ، ودراستها مهمة لفهم أسباب الغزو وتوجهاته .

ونبحث عن أسباب الغزو في ظروف مصر في مطلع القرن ذاته بعد ان ضعضع الاستعمار الفرنسي قوة المماليك العسكرية. ثم جاء محمد علي ، على اكتاف التجار الذين كانوا يمثلون الطليعة النشطة للبرجوازية المصرية قائدة التحالف الشعبي. فواجه محمد علي المماليك عسكريا ، ثم اقتصاديا . فألغى الالتزام واعاد توزيع الارض ، فمهد الطريق لتطور البرجوازية المصرية التي كانت ارهاصات ميلادها تتعالى منذ القرن الثامن عشر. ثم أخذت البرجوازية تؤمن مواقعها السياسية والاقتصادية لتنفلت من قبضة الامبراطورية العثمانية ، ولتدرأ خطر الدول الاوروبية الطامعة في السوق المصري .

أما عن المناورات والصراعات التي أدت الى استيلاء محمد علي على السلطة ، فلها اهميتها النسبية . ولكنها لم تكن هي العنصر الحاسم لما

كان يجري من تحولات . ان انتقال مصر من نمط انتاج اقطاعي على أيام المماليك ، الى مرحلة انتقالية كانت تتهيأ فيها الارض لميلاد النظام الرأسمالي هي العنصر الحاسم . فسواء كان محمد على أو غيره فسيكون الممثل لذلك التحول . ولكن كل حاكم لا شك سيترك خصوصيته على جبين التاريخ . ففي أحشاء ذلك التركيب الاجتماعي وتجلياته السياسية تشكلت أسباب الغزو .

ونبحث عن تلك الأسباب ايضا في علاقة مصر ببلاد السودان الشرقي في القرن الثامن عشر ، وفي تطور النشاط التجاري بينهما . لقد خلق ذلك النشاط انطباعا في مصر عن ثروات السودان ، كما ونوعا ، صورة زاهية سال لها لعاب البرجوازية وهي تلهث لتأسيس مملكتها الجديدة . فألقت على تلك الصورة تمنياتها واحلامها . ونبحث عن أسباب الغزو ايضا في أوضاع مملكة الفونج في مطلع القرن الماضي . ان التناقض بين النظام السياسي والنشاط الاقتصادي التجاري ، قاد الى تدهور أوضاع تلك الدولة الى الحد الذي دفع ببعض زعماء القبائل المتحالفين معها الى السعي الى مصر طالبين من محمد على التدخل في شؤونهم المصطرعة . بعد كل هذه الخلفيات نأتي لأخذ الوثائق .

ان أسباب الغزو متشابكة ، وليس الهدف هو ترتيب تلك الأسباب بداية بالأهم ثم المهم . فهذا يدخلنا في مأزق التناول الأحادي ، ويدخلنا في مغالطات حول أي الأسباب كان أسبق . الأهم هو ان كل الأسباب دفعت الى ذلك الغزو . وذلك الغزو لم يكن من أجل تحقيق أهداف معدة بأسبقيات معينة ، وانما عوامل مركبة هي التي تفسر تلك الظاهرة التاريخية .

وليست الوثائق التي خلفها محمد علي هي الحجة في تحديد أسباب الغزو. فلم يكن محمد علي يكتب تاريخا، ولا كان يحدد للأجيال اللاحقة الأسباب التي دفعته الى غزو السودان. فما كل ما يكتبه الحكام من رسائل يؤخذ على ظاهره، ويحتج به عند كتابة التاريخ، والا لوجدت الاجيال القادمة نفسها في تيه من كثرة ما يكتبه حكام اليوم من أكاذيب ومبالغات. فلم يكن محمد علي يكتب عن أسباب الغزو وانما كان يبعث بتعليمات الى حكام السودان يستحثهم على استغلال موارد البلاد ذات العائد السريع والتي لا يكلف نهبها جهدا وزمنا. فكان يستحثهم لنهب ما سهل حمله، وهل هناك اسهل من ارسال حملات عسكرية لأسر الناس واسترقاقهم، أو اسهل من الحصول على المعادن اذا توفرت؟ أما الزراعة والتجارة والصناعة فأمرها يختلف، انها موارد يحتاج استغلالها الى وقت وإلى جهد تكتيكي طويل الأمد. فالبحث عن أسباب الغزو يبدأ بتحليل المجتمع المصري وتركيبه الاجتماعي في اطار العصر. وفي ذلك المحتوى تعالج الوثائق لتصبح الوسيلة الى كتابة التاريخ، لا ان تصبح هي التاريخ. وعند ذلك يمكن ان تنشأ عدة اجتهادات، ولكنها اجتهادات قائمة على أسس موضوعية وليست نابعة من تقديرات ذاتية.

لنأخذ مثالاً رابعا:

الثورة المهدية في السودان:

ما هي اسباب هذه الثورة؟ تذهب معظم الدراسات التاريخية الى انها ثورة دينية قامت من أجل اعلاء شأنه، «فالحركة اساساً حركة اصلاح ديني» وتستدل تلك الدراسات على هذا بكتابات المهدي التي

خرج بها على الناس [1]. وهنا نجد مثالاً ساطعا للاعتقاد اليقيني في الوثائق، والاخذ بها حجة مطلقة. ان البحث عن أسباب الثورة المهدية يتطلب منا أولاً ان نميز بين اسباب الثورة والافكار التي عبرت عن تلك الاسباب. فقد يحدث خلط في بعض الاحيان فتؤخذ الافكار التي تعبر عن أسباب التغير في المجتمع على انها مصدر تلك الأسباب وليست انعكاسا لها. كل التغييرات في التاريخ كان لها مظهرها الايديولوجي. والحوافز المحركة في التاريخ كانت دائما ايديولوجية وغالباً دينية، وهي التي انضوى الناس تحت لوائها وماتوا في سبيل الدفاع عنها. على ان هدف البحث التاريخي هو السعي لتفسير سيادة وانتشار بعض الأفكار في زمن دون آخر.

ان الأفكار لا تؤخذ معزولة عن الواقع الذي نبعت منه، فهذا التناول يجعلها افكارا معلقة في الهواء. الفكرة لا تنتشر وتؤثر لجلالها وسموها وعظمتها الكامنة فيها «ككمون النار في حجرة» بل لقدرتها في التعبير عن طموح المرحلة التاريخية المعينة. ذاك هو المصدر الاول لجلالها وسموها. فليست هنالك فكرة لها جلال مطلق وعظمة مطلقة، مما يجعلها قادرة على العطاء في أي مكان وتحت أي سماء. ان دراسة الفكرة في واقعها الذي نشأت فيه هو الذي يجعلها تضيء في حقلها التاريخي.

يبدأ البحث عن أسباب الثورة المهدية بالرجوع الى الجذور. وبالتناول الشمولي ندرس أوضاع السودان في ظل الاحتلال العثماني والتناقضات

---

(١) شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٢٢٦.
ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث (بيروت ١٩٦٨) ص ١١٩ — ١٢٢.
حسن احمد ابراهيم، تاريخ السودان الحديث (الخرطوم ١٩٧٩) ص ٥١ — ٥٢.

التي كانت تعصف به. ونجوس في أروقة التراث باحثين عن تجلياته المضيئة. ونتناول شخصية محمد أحمد السوية التي مكنته من تجسيد ذلك التناقض وذلك الطموح.

واجه الاحتلال العثماني طوال الحقب الست من حكمه مقاومة مستمرة من السودانيين، والتي تمثلت في عشرات الانتفاضات والهبات والمقاومة المسلحة. وكانت تلك المقاومة تنهار، لكنها لم تتوقف. ومع فشلها كانت تفرز الحاجة الى بديل يلم اشتاتها ويوحد قواها ضد الحكم العثماني الأجنبي. لم يناد أي منها «بتحرير العقيدة الاسلامية». هذا هو التراث الذي قامت عليه الثورة المهدية وكانت امتدادا له. فدراسة أسباب الثورة تبدأ بتحليل اوضاع المجتمع تحت سيطرة الاحتلال العثماني ولا تبدأ بتحليل أفكار المهدي، فهذه تأتي في مكانها المناسب. صحيح ان ما كتبه المهدي واذاعه من منشورات هو الذي حرك الناس. ولكن ما كتبه في بضعة أشهر لم يكن ليحرك القوم ويدفعهم الى الثورة، ما لم تكن تلك الافكار تعبر عن التناقض العميق في المجتمع فكانت تلك الافكار هي التعبير الايديولوجي عنه. وما كان للمهدي ان يجد ذلك القبول الرائع، لو لم تكن فكرة المهدي المنتظر التي نادى بها تعبر عن الطموح التاريخي لأهل البلاد، فكان محمد احمد المهدي هو التجسيد البشري لها.

وما الذي جعل فكرة المهدي المنتظر تجد تلك الاستجابة الفورية من مختلف فئات المجتمع، ولماذا هي دون سواها دفعتهم للثورة على الحكم الأجنبي؟ لايمكننا ان نقول ان سقوط أي فكرة دينية في بحر ساكن تدفع أمواجه للتلاطم، والا لارتاحت البشرية من عنائها منذ أمد. إذاً، ما

الذي جعل فئات الشعب السوداني المختلفة : التجار (الجلابة) ، القبائل الرعوية وشبه الرعوية ، القبائل العاملة في الزراعة ، عناصر المدن ، القطاع الكبير من رجال الصوفية ما الذي جعلهم يقبلون دعوة المهدي المنتظر رغم اختلاف الاسباب وبعد الشقة بينهم ، وكيف عبرت فكرة المهدي المنتظر عن طموحاتهم رغم ذلك الاختلاف والتباعد ؟ .

كانت هناك تناقضات بين مختلف طبقات وفئات الشعب السوداني والحكم العثماني . كل طبقة او فئة لها تناقضاتها الخاصة بها ، وكل طبقة او فئة كانت لها طموحاتها الخاصة بها . وطموحاتها المشتركة مع المجموعات الأخرى . والصراع ضد الحكم العثماني كانت تصحبه ايضا رؤية مستقبلية . كانت التجارة تشكل النشاط الاقتصادي الذي تشترك فيه تلك الطبقات والفئات بدرجات متفاوتة وأصبحت الكينونة السياسية للسودان الموحد تشكل الاطار العام للسوق الداخلي ، والذي امتدت فيه شرايين التجارة طولاً وعرضا . وشاركت القبائل الرعوية وشبه الرعوية في ذلك النشاط ، واصبح لها دور تؤديه في تلك السلسلة المتشابكة من الحركة التجارية . فالرزيقات ينقلون البضائع من بحر الغزال ، ويشترك الكبابيش في الترحيل عبر الصحراء الى مصر ، وللبجة دورهم في طريق بربر وسواكن . ومراكز التجارة في الخرطوم والابيض وبربر وسواكن على هامش ذلك النشاط ، ومنها من يعيش على فتاته . ولكل واحدة من تلك الفئات حظها من تلك المشاركة . فأصبح ذلك الخط التجاري يشكل رابطة جديدة خارج اطار التشكيلات القبلية . ففي اطار الكينونة السياسية والنشاط التجاري ولد الاحساس برابطة الأمة في مرحلتها الجنينية . فالعداء للحكم الاجنبي والنفوذ الاجنبي صاحبه ميلاد شعور إيجابي ، هو الأساس لبروز أفكار ذات طابع شمولي ، كانت هي البديل

للحكم الاجنبي، وتطورت فيما بعد الى شعور قومي. ولكن ضعف الاساس المادي في ذلك الحين، أفرز أفكاراً شمولية محدودة الأبعاد والرؤية. فكانت فكرة المهدي المنتظر هي التعبير عنها.

وما كان لتلك الايديولوجية الا ان تنبع من داخل الدين لما له من دور متشابك في حياة الناس. فأي برنامج سياسي في سودان القرن التاسع عشر برنامج مستمد من التراث الديني. فهو الايديولوجية الوحيدة المتوفرة والتي في ظلها يمكن ان يفهم الناس أمور دنياهم وتناقضاتها. فالعثمانيون اعداء الله. شعار بسيط يلخص كل الضغائن والاحن، ويدفع القوم الى البذل والفداء، ويجد هذا وذاك تحت ظلها مكانا له دون ان يفقد هويته. فالثورة المهدية لها ايديولوجيتها الدينية، ولكن لها ايضا امتدادها وتشابكها في أبنية المجتمع الاقتصادية الاجتماعية [١].

لننتقل الى مثال آخر:

هـ ـ السياسة البريطانية في السودان:

تختلط دراسة السياسة البريطانية بالدبلوماسية البريطانية. بل وتؤخذ الدبلوماسية أحيانا على انها السياسة، ولهذا نحتاج ان نفرق بينهما وان نبين ان كنا نقصد السياسة ام الدبلوماسية: أما السياسة الخارجية فهي استراتيجية تعبر عن ايديولوجية معينة، بينما الدبلوماسية تكتيك يسعى الى تحقيق أهداف تلك السياسة، فهي تتقدم عندما يتطلب التقدم، وتتراجع

---

(١) تناولت الثورة المهدية في بعض دراساتي وهي:
«الرؤيا الثورية في فكر المهدي». دراسات في تاريخ المهدية (الخرطوم ١٩٨٣).
ـ السياسة الاقتصادية للدولة المهدية (جامعة الخرطوم ١٩٨٦).
ـ الامام المهدي: لوحة لثائر سوداني (جامعة الخرطوم ١٩٨٥).

عندما يستدعي التراجع ، وقد تتخذ موقفا وسطا بين هذا وذاك . وقبل التعرض للدبلوماسية لا بد من تحديد أبعاد السياسة الخارجية ومراميها . وهذا لا يأتي الا بدراسة الاوضاع الداخلية للبلد الذي يتبنى تلك السياسة . فالسياسة الخارجية انعكاس للتركيب الاقتصادي ــ الاجتماعي للمجتمع المعين وللقوى صاحبة الشأن فيه . ولكن هذا لا يعني انها انعكاس آلي جامد ، بل ان تلك الاوضاع هي اساسها المتين . فالسياسة الخارجية هي برنامج الطبقة الحاكمة في علاقاتها بالعالم . ومن أجل فهم هذا التصور نحتاج الى تحليل الطبقة المسيطرة . ان دراسة السياسة الخارجية بدون تحديد ذلك الاطار الداخلي تقود الى خلط وابهام حول مرامي تلك السياسة . ام هل نعتقد ان السياسة الخارجية لا علاقة لها بالبنية الاقتصادية ــ الاجتماعية . او ان لها علاقة واهية ؟ اذا كان الامر كذلك فما الذي يحدد اتجاهات السياسة الخارجية ؟

تفهم السياسة الخارجية البريطانية من تحليل النظام الرأسمالي وتطوره . لقد مرَّ النظام الرأسمالي في بريطانيا ــ واوروبا عامة ــ في القرن التاسع عشر بمرحلتين من التطور .

المرحلة الاولى

مرحلة المنافسة الحرة السلمية في الاسواق المحلية والعالمية . وهي المرحلة التي تميزت بتصدير فائض الانتاج السلعي الى اسواق العالم . وقد شهدت افريقيا في هذه الفترة مجيء العشرات من المغامرين المكتشفين والمبشرين والتجار والقناصل التجاريين من مختلف البلاد الاوروبية . كانوا يفتحون اسواقا جديدة لبضائعهم ويتعرفون على أحوال القارة

وامكانياتها [١] . ومنذ سبعينيات القرن بدأت المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الاحتكار وتصدير رأس المال المالي بدلا من السلع . وتميزت هذه المرحلة بالمنافسة المستعرة للحصول على المستعمرات وتهيئتها لاستقبال رأس المال المالي حتى يحقق أعلى درجات الربح . وفي كل من المرحلتين تحددت ابعاد معينة للسياسة الخارجية التي حكمت نشاط بريطانيا ، والدول الاوروبية عامة [٢] وفي كلا المرحلتين ايضا تحددت ابعاد تلك السياسة بأقل خسائر وإلى ابعد مدى . في هذا الاطار ، او اي اطار آخر نصل اليه من تحليل المجتمع الرأسمالي ، يمكن دراسة الوثائق والتحكم فيها والاسترشاد بها ، لا ان تصبح هادينا وقائدنا ومنطلقنا ومنتهانا .

ولعل كتاب « السياسة البريطانية في السودان : ١٨٨٢ ــ ١٩٠٢ » للبروفسير مكي شبيكة من اهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع وهو رصد محكم للوثائق البريطانية الخاصة بالسودان والرسائل الخاصة بالحكام البريطانيين . وقد كتب باهتمام فائق وتحتاج دراسته الى جهد . ويتناول الكتاب في فصوله الخمسة عشر مختلف جوانب النشاط البريطاني تجاه السودان حتى انتهى بغزوه وحكمه باتفاق بينها وبين مصر .

يبدأ الكتاب بعام ١٨٨٢ الذي يشكل بداية مرحلة جديدة وهامة

---

(١) PAUL SATIAND, RICHARD HILL: THE EUROPEAN IN THE SUDAN: 1834-1818 (OXFORD, 1980).

يقدم هذا الكتاب نماذج اولئك الاوروبيين .

(٢) تناولت عدد من الدراسات تحليل المجتمع الرأسمالي ويمكن الرجوع الى ؛
ــ ق . أ . لينين . الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية (موسكو ، ١٩٧٤)
ــ مكرم سعد . الدولار يحكم بريطانيا (القاهرة ١٩٥٥) .

بالنسبة لبريطانيا في وادي النيل. فقد تم في ذلك العام احتلال مصر عسكريا، وبذلك تحقق واحد من اهداف السياسة البريطانية. ولكن الحفاظ على ذلك الانتصار يحتاج الى دبلوماسية مرنة. فاعلنت بريطانيا ان الاحتلال مؤقت حتى تهدأ المعارضة الاوروبية ولا تنهض لتتجمع ضدها كما فعلت مع نابليون بونابرت من قبل. وتشكل مصر قاعدة استعمارية بالغة الاهمية. فسعت بريطانيا جاهدة للحفاظ عليها، فكيف لها ان تتدخل في السودان وهي التي اعلنت ان بقاءها في مصر مؤقت؟ فمن اجل ابقاء المسألة المصرية ساكنة كان لا بد من انتهاج دبلوماسية مرنة تجاه السودان. الاساس الثاني لتلك الدبلوماسية هو الثورة المهدية. تهدف السياسة البريطانية الى احتلال السودان كقاعدة استعمارية جديدة. ولكن غزو السودان في ذلك الحين ليس بالامر الهين والبلاد تجتاحها ثورة يقودها رجل صوفي استطاع توحيد اشتات المجتمع تحت راية المهدي المنتظر، فاذا كان لبريطانيا ان تخوض حربا في السودان فهناك احتمال الهزيمة او الانتصار بثمن باهظ. وكيف لها اذا انتصرت ان تحقق استقرارا على انقاض ثورة شعبية لها توجهاتها الدينية، وفي بلد شاسع مترامي الاطراف؟ فما كان لها الا اتباع دبلوماسية مرنة تضمن تواجدها في السودان وتنأى بها عن مشاكله في تلك المرحلة. لقد تداخل امر السياسة والدبلوماسية تداخلا كبيرا ولكن الفصل بينهما ليس بالامر العسير. فهدف السياسة البريطانية هو احتلال السودان وهدف الدبلوماسية هو تحقيق هذا الهدف بأفضل الوسائل.

ان كتاب «السياسة البريطانية» دراسة للدبلوماسية البريطانية في السودان. فحملة هكس وسياسة الاخلاء ومهمة غردون كلها معارك

دبلوماسية. انها تحركات دبلوماسية تسعى للتدخل في شؤون السودان دون ان يكون ذلك التدخل متعارضا مع اعلانها السابق باحتلالها المؤقت لمصر ولذلك اتسمت تلك التحركات بالتناقض والتعارض وهو سمة النشاط الدبلوماسي. اما السياسة فبقيت كما هي. ويتناول الكتاب جوانب اساسية في السياسة البريطانية. فالتدخل العسكري في شرق السودان، وحملة الغزو التي ارسلت عام ١٨٩٦ تشكل خطا ثابتا للسياسة البريطانية. ويتناول الكتاب مهمة غردون في السودان في اربعة فصول من فصوله العشرة، وهذا لعمري احدث خللا في توازن الكتاب. فكيف يخصص ما يقرب من نصفه لدراسة غردون في السودان، وهو الذي امضى عاماً واحداً في البلاد، ولم تكن مهمته إلاَّ جانباً واحداً من جوانب الدبلوماسية البريطانية؟

وتتصدر الكتاب مقدمة عن تاريخ السودان منذ اقدم العصور حتى عام ١٨٨١، وهي مقدمة بلا جدوى وبعيدة عن افق الدراسة. ويليها فصل عن الثورة المهدية هو ايضا خارج عن دائرة الدراسة. اما دراسة السياسة البريطانية الاستعمارية ومنابعها فلا تجد مكانا في ذلك الحشد من الاحداث والتفاصيل الدقيقة والتي لا يخلو سردها من رتابة. ويجد الكاتب نفسه احيانا في حيرة امام بعض التحركات الدبلوماسية. فاستدعاء الحكمدار عبد القادر باشا حلمي من السودان سيظل لغزا. لماذا؟ انه حدث دبلوماسي لخدمة اهداف السياسة البريطانية، وهو ينسجم مع بعثة استيوارت [١].

---

(١) ارسلت بريطانيا الكولونيل استيوارت الى السودان عام ١٩٨٣ وذلك مباشرة بعد احتلالها لمصر. واوكلت اليه مهمة دراسة احوال السودان وتقديم تقرير عنه. وكان هذا بداية التدخل البريطاني الفعلي في السودان.

ولنأخذ دراسة اخرى هي كتاب البروفسير ساندرسون عن : « انجلترا واوروبا في اعالي النيل : ١٨٨٢ ــ ١٨٩٩ » .. يعالج الكتاب الدبلوماسية البريطانية باستفاضة في هذه الفترة التي شهدت صراعا حادا بين الدول الاوروبية حول المستعمرات ، وكيف تشابكت الدبلوماسية البريطانية مع دبلوماسية الدول الاوروبية الاخرى في منطقة من أكثر المناطق حساسية في تاريخ الصراع الاستعماري . ولكن الكتاب ــ بجانب ادائه الاكاديمي الرفيع ــ يعالج تلك الدبلوماسية بمعزل عن الاتجاهات العامة للسياسة الامبريالية في تلك الفترة . وبمعزل عن تحليل النظام الرأسمالي ذاته ، ما الذي يحرك تلك الدبلوماسية ، وما هي اهدافها الخفية وما هي منطلقاتها ومراميها ؟ وكيف يمكن فهم الدبلوماسية ، وما هي اهدافها الخفية وما هي منطلقاتها ومراميها ؟ وكيف يمكن فهم الدبلوماسية في صعودها وهبوطها وما قد يفرزه ذلك التأرجح من تناقضات دون ان نضع اصبعنا على الموطن الذي خرجت منه . ان وثائق وزارة الخارجية وزارة المستعمرات ومراسلات الساسة لن تكون مرشدا حقيقيا في الدراسة التاريخية ما لم توضع في اطار التركيب الاجتماعي الذي افرزها . اما خارج ذلك الاطار فهي تيارات متشابكة وتفاصيل قد لا تقر بنا الى قرار بل هي حشد لا نملك القدرة على فرز الاساسي منه عن الثانوي .

وهناك دراسة جديدة بعنوان : « امبراطورية على النيل : السودان الانجليزي ــ المصري : ١٨٩٩ ــ ١٩٣٤ » للبروفسير مارتن دالي والكتاب عرض سلس وجذاب للسياسة البريطانية في السودان من خلال دراسة خمسة من حكام السودان من البريطانيين ، مما يجعل منه مرجعا اساسيا لدراسة هذه الفترة . ولكن اعتماد الدراسة على الوثائق

الاستعمارية فقط تقصر بها عن رؤية جوانب اخرى من هذه السياسة .
وتتفق الدراسة مع الدراستين السابقتين في عدم تحليل السياسة الامبريالية ذاتها ، مما جعلها محصورة في تحليل سياسات الحكام البريطانيين في اطار سياسة استعمارية كأنها امر مقبول وقدر لا مفر منه . ولم يعد الامر المهم الصراع بين الشعب السوداني والاستعمار البريطاني ، وانما صراعات بين الحكام البريطانيين انفسهم حول تقديراتهم الذاتية للاشياء وحول ما يحبون وما يكرهون ، انها خلافات داخل البيت الواحد .

هذه ثلاثة نماذج مختلفة ، فقد كتبت في ازمان مختلفة ، والعلماء الذين قاموا بها من اجناس مختلفة : السودان ــ انجلترا ــ امريكا . ولكن مدخلهم الى دراسة التاريخ واحد ، ومنهجهم واحد ، ولكن اداءهم متفاوت . فالمدرسة التاريخية السودانية موقف ايديولوجي واحد رغم تباعد الزمن واختلاف الاجناس .

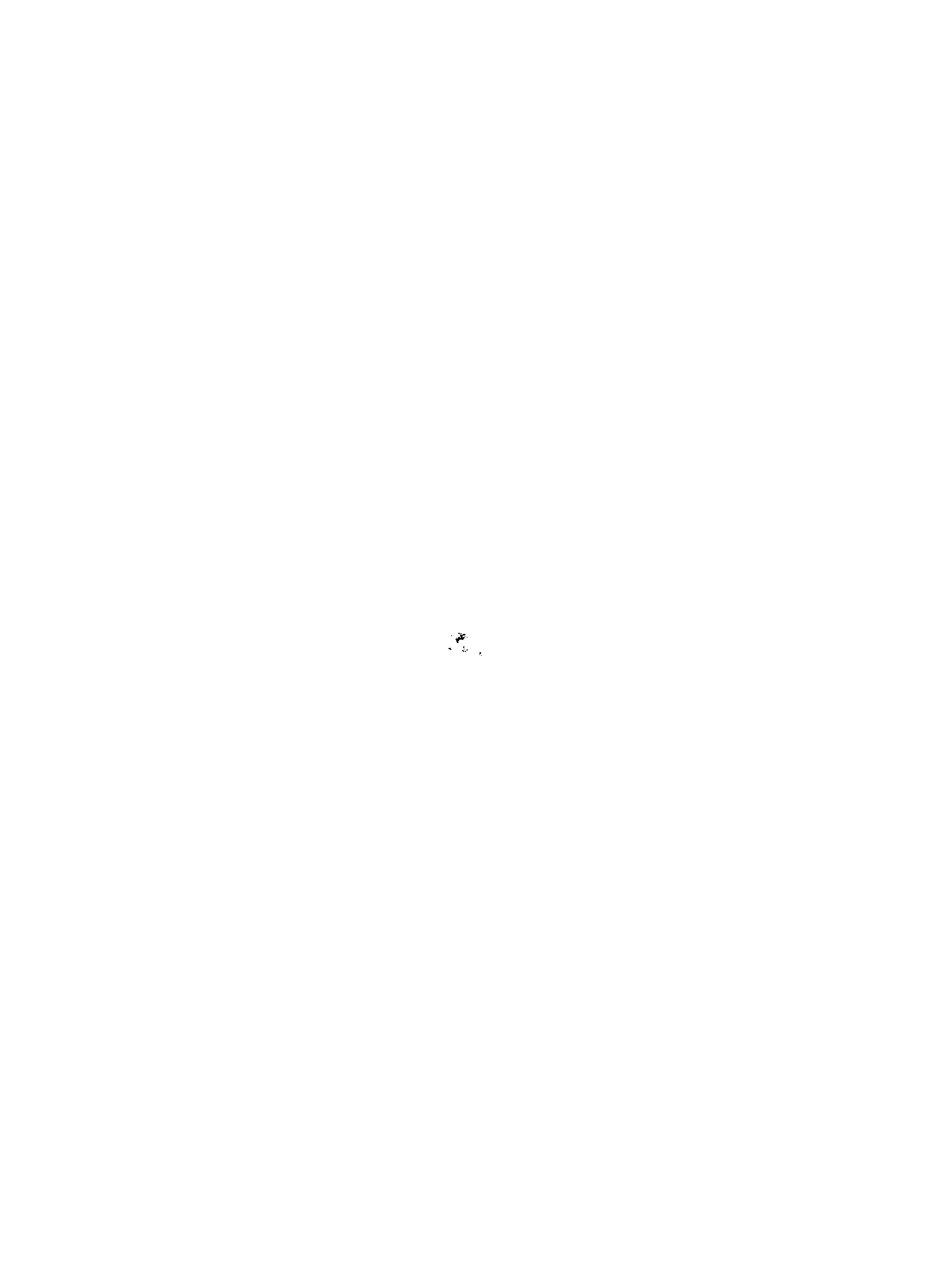
[٤] خاتمة :

لا تطمح هذه الدراسة في تقصي كل جوانب المدرسة التاريخية السودانية ، بل غاية طموحها ان يكون في هذه النماذج مؤشرات توضح منهج هذه المدرسة وايديولوجيتها . ولا تستطيع هذه الدراسة بالضرورة ان تطرح البديل الجديد في دراسة التاريخ طرحا مستوفيا . فالمدرسة التاريخية السودانية التي تناولنا منهجها ظلت تنتج قرابة نصف قرن ، وتمتلك كل الادوات التي تمكنها من ذلك الانتاج ونشره وتوجيهه .

فهل بمقدور دراسة كهذه ان تقدم البديل لكل ذلك الانتاج في هذا الحيز المحدود مساحة وزمنا ، أم تسعى لفتح منفذ لتبادل الرأي وتحديد مؤشرات علها تساعد البحث التاريخي مستقبلا ؟

الخلفية التاريخية للحركة الوطنية السودانية* في القرن التاسع عشر

(*) قدم هذا البحث في مؤتمر «الحركة الوطنية السودانية» الذي نظمه معهد الدراسات الافريقية بجامعة الخرطوم في يناير ١٩٨٦م



مقدمة :

الحركة الوطنية لها معانٍ ومظاهر وتجليات مختلفة. وتعكس هذه الاختلافات المرحلة التاريخيَّة المعينة التي يمر بها المجتمع، وهي اختلافات موضوعية. وتعود تلك الاختلافات أيضاً الى تباين المواقف الايديولوجية في إطار كل مرحلة تاريخية، بحيث يخضع تفسير معنى الوطنية وممارساتها الى الرؤية الايديولوجية لكل فئة اجتماعية.

والحركة الوطنية تعني بالضرورة وجود الوطن، ثم ميلاد الانتماء لذلك الوطن، وهو انتماء الى مكان في اطار زمن محدد، وانتماء الى تراث ولغة مشتركة يتناقل بها الناس اواصر انتمائهم. ويحتاج كل ذلك الى توفر مناخ نفسي وذهني يشحذ ذلك الانتماء ويعمل على تنميته.

والوطن ليس قدراً مكتوباً على البشرية منذ ميلادها، ولكنه ظاهرة تاريخية تبرز في فترة معينة عندما تتوفر الظروف الموضوعية لبروزه. فالناس عرفوا الانتماء الى القبيلة والعقيدة، وعرفوا التمسك بالملك الذي يقهرهم ويستسلمون لقهره. وكم من مناسبات حفظها التاريخ خرج فيها الناس وماتوا واستشهدوا دفاعا عن شيء آمنوا به خارج اطار الانتماء للوطن.

ان الحديث عن الخلفية التاريخية للحركة الوطنية السودانية في القرن التاسع عشر يطرح امامنا بعض الاشكالات لتحديد مفهوم السودان بالمعنى الذي نتداوله اليومَ، ومتى برز هذا التحديد لاسم السودان ولماذا؟. ثم تواجهنا مشكلة بروز الشعور الوطني كانتماء وكحركة لها مظاهرها

المختلفة. ان مواجهة هذه الاشكالات ومحاولة الاجابة على ما تطرحه من اسئلة يشكل جوهر هذه الدراسة.

الخلفية التاريخية لهذه الخلفية التاريخية:

عندما ندرس الحركة الوطنية السودانية في القرن التاسع عشر فلهذه الدراسة اسبابها. أولها بروز الكينونة السياسية الموحدة للسودان والتي تكونت نتيجة الغزو الاجنبي. ولكن بروز تلك الكينونة لم يكن حدثاً معزولاً عما كان يجري من تحولات في أحشاء المجتمع قبل وقوع ذلك الغزو. ورغم ان الفترة التي سبقت قيام الحكم الاجنبي قد تميزت بوجود تكوينات سياسية مختلفة مثل مملكة الفونج والفور، وتنظيمات قبلية واقليمية مختلفة إما متحالفة مع احدى المملكتين أو لها استقلالها، إلا أن هناك عوامل كانت تتخلق في بنية المجتمع وتدفع بعملية التوحد وان كانت في شكل جنيني. بل ان منطقة الشرق الاوسط والعالم ككل كانت تشهد ميلاد أنظمة اجتماعية ذات محتوى جديد وتوجه جديد تختلف عما سبقها من تشكيلات.

أما بالنسبة لأوربا فقد شهد مطلع القرن التاسع عشر انتصار البرجوازية الأوربية على الأنظمة الاقطاعية المستندة على الكنيسة، وتمكنت من الاستيلاء على السلطة السياسية. وأدى ذلك الانتصار الى افساح المجال لتطور النظام الرأسمالي بوتائر عالية. فكان القرن التاسع عشر عصر تنمية رأسمالية، وكان عصر ثورة ديمقراطية لبرالية تسعى لتخرج العالم كله من مستويات التخلف الاجتماعي عامة، سواء كان اقطاعاً غربياً أو اقطاعاً شرقياً أو نمطاً أسيويا للانتاج أو قبلية

عشائرية [١] . فلأول مرة يصبح العالم كله معرضا ومؤهلا للتوحد في اطار نظام اقتصادي شامل ومتقدم على الانظمة السابقة ، وهو النظام الرأسمالي . وما كان هناك تاريخيا امكانية لطريق آخر غير طريق التنمية الرأسمالية .

وقد أثر النظام الرأسمالي في البلاد التي تعامل معها تأثيرا تفاوتت درجاته وفق المراحل التي مر بها النظام الرأسمالي في مسار تطوره . فخلال الفترة التي امتدت حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية تمر بمرحلة المنافسة الحرة ، وهي التي شكلت علاقتها بالبلاد الافريقية ومن بينها السودان . وقد قامت تلك العلاقة على أساس تصدير السلع المصنعة واستجلاب المواد الخام وتأمين طرق التجارة العالمية . وصاحب ذلك ارسال حملات علمية مكثفة للتعرف على كنه تلك المجتمعات وسبر اغوارها ، تارة عن طريق التبشير وتارة عن طريق محاربة تجارة الرقيق ، وتارة ثالثة عن طريق البحث العلمي [٢] . ولذلك لم تتأثر البنية الاجتماعية في تلك البلدان من ملامستها لذلك الاستعمار في تلك المرحلة من تطوره ، وان كان تسرب التعامل النقدي قد بدأ يؤثر في

---

(١) يثير مفهوم «نمط الانتاج الاسيوي» جدلا واسعا على ايامنا هذه . ورغم ان التعبير قد استعمله ماركس منذ القرن الماضي الا انه ظل مهملا لفترة . وهذه الحيوية التي ننشدها اليوم هي محاولة لرد الاعتبار له ووضعه في مكانه المناسب في مجرى الفكر العملي ، باعتباره يمثل مرحلة انتقالية من المشاعية البدائية الى مجتمع الرق ، وهي مرحلة تميزت بها بعض المجتمعات الاسيوية والافريقية . راجع على سبيل المثال :

منسيف ، جاك وآخرين . حول نمط الانتاج الاسيوي (دار الحقيقة ، بيروت) ١٩٧٢ .

(٢) صدرت مؤخرا بعض مذكرات اولئك الاوربيين بعد ان تم تحقيقها . وهي تلقي المزيد من الضوء على نوايا التحركات . وقد قام البروفسير رتشارد هيل ومعه بعض الباحثين بتحقيق مجموعات منها ونشرها في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٠ .

أنظمتها التقليدية بدرجات متفاوتة. ولكن عملية النهب الاقتصادي التي مارستها الدول الرأسمالية، والعلاقة اللامتكافئة التي قامت بينها وبين تلك البلاد، أدت إلى إضعاف قاعدتها المادية وحرمانها من رؤية آفاق الثورة الديمقراطية اللبرالية التي كان ضجيجها يتعالى في أوربا.

أما المرحلة الثانية من تطور النظام الرأسمالي فهي مرحلة الاحتكار وتصدير رأس المال المالي، وهي المرحلة التي تعرف بالامبريالية، والتي نشطت حركتها المنظمة بعد مؤتمر برلين (١٨٨٤ ــ ١٨٨٥). وكان من النتائج المباشرة لهذه المرحلة غزو اغلب البلاد الافريقية واحتلالها وتهيئتها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا لاستقبال رأس المال المالي، ليحقق أعلى درجات الربح. وقد أدت تلك الحركة الى إضعاف أو ازالة البنيات الاجتماعية لتلك المجتمعات. لقد كان أثر الاستعمار سواء في مرحلته الاولى أو الثانية سلبياً. فهو تدخل شرس في مجرى التطور التاريخي لتلك المجتمعات، وعرقلة مسار تطورها وإضعاف بنياتها حتى تستطيع أن تلبي حاجات المجتمع الرأسمالي المتدافع نحو الربح الوفير [١].

وفي مطلع القرن التاسع عشر تعرضت مصر أيضاً الى تحولات عميقة في بنائها الاقتصادي ــ الاجتماعي. فالحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) كانت صدمة تاريخية وقعت على ضمير وعقل وكيان المجتمع المصري، «صدمة شاملة بالغة التعقيد والصعوبة» [٢]. واعقب القضاء على تلك الحملة مجيء محمد علي باشا الى الحكم (١٨٠٥) محمولاً على اكتاف الطبقة الوسطى المصرية النامية. وعند مجيئه كان الجنين الرأسمالي قد

---

(١) راجع مؤلف ف. أ لينين «الكلاسيكي»: الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية.

(٢) غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري المعاصر. بيروت.

وضحت معالمه في مصر في نهاية الاحتلال العثماني. ثم قامت الحركة القومية الجماهيرية في فترة الاحتلال الفرنسي بنشاط وافر. غير ان المجتمع المصري عجز عن ولادة جديدة، فانجز محمد علي العملية الجراحية التي جاءت به [1].

وكانت أهم معالم سياسته ضرب النظام الاقطاعي المملوكي واعادة توزيع الأرض على ملاك جدد. وهكذا بدأ التاريخ الحقيقي للطبقة الجديدة من ملاك الأرض المصريين، والتي بدأت تمارس علاقاتها الاقطاعية على أوسع نطاق وتوسيع ملكيتها. ونتج عن هذا تحولات في البنيات الاساسية للمجتمع المصري [2].

على ان التحول الرأسمالي الذي تم في عهد محمد علي كان متجها كله الى نقل التجارة الخارجية الى مستوى أعلى. فكان ذلك التحول نمواً رأسمالياً وليس تنمية، لأنه لم يكن يعتمد على توسيع السوق الداخلي توسعاً يجعله السمة الشاملة على المستوى القومي. وكان تقيد نظام محمد علي بأهداف التصدير أن أدخل الاقتصاد المصري في النظام الرأسمالي بأزماته. على أن محمد علي كان الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يستبدل «العمامة المفتخرة (النظام العثماني) برأس حقيقي».، وقد اصبحت مصر تحت قيادته الجزء الوحيد في الامبراطورية العثمانية الذي له قوة حقيقية [3]. وفي عام ١٨٢١ قامت مصر بغزو بلاد السودان، وحملت معها الى الكينونة السياسية التي شيدتها كل تلك التناقضات.

---

(١) احمد صادق سعد: حول نمط الانتاج الاسيوي. القاهرة.

(٢) محمد علي بركات: تطور ملكية الارض في مصر.

(٣) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث (موسكو، ١٩٧١) ص ٥٧ ما بعدها.

على ان العامل الخارجي لم يكن العنصر الوحيد الحاسم في تكوين السودان الجديد. فالتكوينات المحلية كانت تعصف بها تحولات عميقة في قاع بنائها الاقتصادي ـــ الاجتماعي. وجاء العامل الخارجي لينحرف بما كان يعتمل في المجتمع من حركة، فيحيلها من تطور تحكمه قدرات السودان المحلية واهتماماته، الى تطور مفروض من الخارج ليخدم متطلبات السوق الرأسمالية العالمية. لقد برزت خلال القرن الثامن عشر بعض المؤشرات التي تنبىء عن تلك التحولات: أهمها تزايد النشاط التجاري وانتقاله من نشاط تجاري خارجي محض، الى نشاط تجاري داخلي أخذ يمتص بعضاً من فائض الانتاج المحلي. وأدى هذا الى بروز طبقة تجارية بدأت تؤثر في مجرى الأحداث. ولم تكن الأنظمة السياسية القائمة بقادرة على استيعاب تلك التطورات التجارية، بل ان وجود تلك الأنظمة كان يعرقل مسار الحركة التجارية وانسيابها، مما أدى الى بروز تناقض بين القوى الاجتماعية الصاعدة من جانب والأنظمة السياسية الاقطاعية من الجانب الآخر. وقد وجد ذلك التناقض تعبيراً في بعض الحركات: منها الوهن الذي أصاب مملكة الفونج، ومنها ظهور بعض الحركات التي سعت الى خلق كيانات سياسية جديدة. ففشل بعضها ونجح الآخر في اقامة وحدة اقليمية عن طريق الغزو. وكانت كلها ارهاصات توحد فوقي. ولكن ضعف القاعدة المادية للمجتمع جعل منطلقات تلك الارهاصات تقوم على أسس قبلية واقليمية [١].

---

(١) هنالك العديد من المؤلفات التي تناولت تاريخ هذه المرحلة وابرزت جانبا او آخر من جوانب تطورها. ويمكن ان نشير الى:

R.S. O FAHEY AND J. SPAULDING: THE KINGDOMS OF THE SUDAN. LONDON, 1974

ومهما كان حظ تلك الحركات من النجاح أو الاخفاق، الا أنها كانت تعبر عما يمور داخل المجتمع من تحولات تنشد اطاراً للوحدة تلبي حاجة الحركة التجارية النامية. وكانت تلك الوحدة المنشودة هي في الواقع اطار السوق الداخلي الجديد. وبينما كانت هذه المحاولات تجري هنا وهناك، تم غزو بلاد السودان فأجهضت المحاولات الداخلية، وتولى الحكم الأجنبي الجديد أمر توحيد البلاد في كينونة سياسية لتصبح أساساً للسوق الداخلي، ولتربط ذلك السوق بالسوق الرأسمالية العالمية.

مقاومة الغزو: الارهاصات الاولى للحركة الوطنية:

منذ ان حطت جيوش الاحتلال الأجنبي بأرض بلاد السودان عام ١٨٢١، وهي تواجه مقاومة أثناء توغلها جنوباً. وكان بعض تلك المقاومة منظماً، وبعضها الآخر ينقصه التنظيم، وبعضها الثالث فشل في اللحظات الأخيرة، وخرجت مجموعات أخرى مسلمة للجيش الغازي دون عناء. ولا نود أن نخوض هنا في تفاصيل تلك المقاومة وفي مظاهرها المختلفة وعوامل فشلها. ما يهمنا هنا هو البحث عن أهداف تلك المقاومة وعلاقة تلك الأهداف بميلاد الشعور القومي العام [١].

هناك بعض المناطق التي تصدت للجيش الغازي وصادمته، ومناطق أخرى سلمت أمرها دون مقاومة، وبينهما أشكال متعددة من الرفض والقبول. وهذا يوضح انعدام الرابط الذي يجمع بين تلك المناطق، وهو السبب في انعدام المقاومة المشتركة، مما يعكس انعدام الرابطة التي تجمع

---

(١) صديق بشير محمد علي: المقاومة السودانية للحكم التركي ـ المصري ١٨٢١ ـ ١٨٨١ (بحث لدرجة الشرف، جامعة الخرطوم، ١٩٨٤).

بين تلك المناطق. كما ان الدوافع التي حدت بهم لمقاومة الغزو الاجنبي متباينة. فهناك قبائل قاومت منفردة مثل الشايقية، وهناك قبائل قاومت مجتمعة مثل قبائل كردفان في معركة الابيض، وهناك رجال الصوفية الذين شاركوا حسب قدراتهم وواجهوا عنتا من جراء تلك المشاركة. ولكن رغم انعدام الرابطة بين أشكال تلك المقاومة الا أنها أصبحت في المستقبل تشكل جانباً مضيئاً من تراث الأمة، وما زال الناس يستلهمون منها عوامل الصمود في لحظات الشدة، وما زالت جوانب تلك المقاومة تنساب في التراث الشعبي الأدبي. فالمقاومة التي لم تخرج من اطار قومي موحد، أصبحت تعبر عن لحظات النهوض القومي في حياة أهل السودان. ويبدو أن تلك المقاومة جاءت في لحظات كان الشعور القومي ضعيفاً فعجز عن احتضانها. ثم ارتدت الطابع القومي مستقبلاً عندما أخذ الناس يجوسون في اروقة الماضي، باحثين عن التجارب الحادة التي يمكن أن تصهر مشاعرهم المشتتة في بوتقة الانتماء القومي.

لقد ارتبط الشعور القومي منذ ميلاده بالمقاومة حتى غدت تشكل جانباً هاماً في البناء النفسي لأهل السودان في تشكيلهم القومي الجديد. صحيح أن أهل السودان لم يرتبطوا في مقاومتهم تلك بعمل موحد ضد الغزو الأجنبي، ولكن تلك المقاومة المتفرقة أصبحت احدى مكونات وحدتهم. فالكينونة السياسية الموحدة للسودان ولدت وهي تقاوم.

الكينونة السياسية الموحدة للسودان الحديث:

بعد انكسار شوكة المقاومة شرع الحكم الجديد في ضم المناطق التي تم غزوها في كينونة سياسية موحدة تضمها حكومة مركزية أجنبية. واستمرت عملية التوسع طوال فترة الحكم الأجنبي، وكان آخرها في

دارفور عام ١٨٧٤ . وقد نتج عن هذه العملية التوسعية بعض الجوانب السلبية : أولها ، ان ضم المناطق المختلفة للكينونة السياسية الجديدة تم عبر مراحل مختلفة ، بعضها في بداية الغزو والبعض الآخر بعد مضي ما يزيد عن نصف قرن . فنجد ان بعض مناطق بلاد السودان قد خضعت للحكم الأجنبي وسطوته فترة أطول من بعض المناطق ، مما أدى الى بروز مشاعر وتيارات متباينة بينها . فالمناطق التي قاست كثيراً تحت الحكم الأجنبي ، كانت تسعى للتخلص من ربقة ذلك الحكم . أما المناطق التي لم تكتو به كثيراً ما زالت تحتفظ بشوقها للعودة الى عهد استقلالها السابق ، والتخلص من ذلك الحكم الأجنبي قبل أن يغرس نابه عميقاً في جسدها .

وثانيها ، ان الحكم الأجنبي قام بضم تلك المناطق في إطار حكم مركزي موحد ، رغم انها كانت تمر بمراحل مختلفة من التطور التاريخي . وطبق ذلك النظام بلا مرونة ، ولم يعط اعتباراً للتفاوت القائم بين تلك المجتمعات . وثالثها ، ان عملية التوسع أنجزت لتلبي حاجة النظام الأجنبي وليس تلبية لرغبة تلك المناطق وظروفها التاريخية .

ولم يفهم الحكم الأجنبي طبيعة المؤسسات المحلية التي كانت قائمة في تلك المجتمعات ، مثل الطرق الصوفية والقبائل ، والتي نشأت لتلبي احتياجات تلك المجتمعات وكانت افرازاً لتطورها التاريخي . فقام الحكم التركي باخضاعها للنظام المركزي ، وسلبها استقلالها النسبي الذي كانت تؤدي من فوقه دورها الاجتماعي . فأضعف دورها دون ان يأتي ببديل ليقوم بما كانت تقوم به من مهام . فبقي أغلب تلك المؤسسات خارج اطار السلطة الجديدة ، يصادمها أو يقف منها موقف المعارضة الصامتة .

وقليل منها انخرط في سلكه وفقد بذلك دوره الاجتماعي في حركة المجتمع [١].

أما جنوب السودان فكانت معركته مختلفة. فمنذ مجيء الحكم الأجنبي وهو يصارع من أجل البقاء ضد الغزوات التي كانت ترسل لاصطياد الرقيق. وكانت كل قبيلة تدافع للحفاظ على كيانها. فلم تساعدها تلك المعارك على كثرتها في بلورة شعور قومي بينها. وعندما قامت الحكومة بضم بحر الغزال والاستوائية فان نفوذها كان اسمياً وغير مؤثر، بل وينعدم تمام احياناً. وقد أدى هذا الضعف الى تقوية الشعور القبلي بين القبائل، لأن تلك الوحدة القبلية كانت أهم سلاح في تلك الظروف المضطربة [٢].

ويمكننا ان نخلص الى ان الكينونة السياسية الموحدة تكونت وهي تقاوم الحكم الأجنبي. وكانت تلك المقاومة في كثير من مظاهرها امتداداً للمقاومة التي بدأت عند مجابهة الغزو الأجنبي.

تأسيس الحكم واستمرار المقاومة السودانية:

حكم الاتراك السودان زهاء ست حقب في اطار الكينونة السياسية التي اقاموها. ورغم ان تلك الكينونة غدت الاطار السياسي الذي تمت في

---

(١) MOHAMMAD SAID AL-QADDAL.: RELINION IN A CHANGING SOCIO-POLITICAL STRUCTURE: A STUDY OF ISLAM IN THE 19TH CENTURY. SUDAN. MODERNIZATION IN THE SUDAN (U.S.A. 1985)

(٢) H.A. IBRAHIM.: «THE RESISTENCE OF THE SOUTHERN SUDANEESE PEOPLE DURING THE FIRST IMPERIALIST ERA» (A PAPER PRESENTED TO THE CONFENCE ON THE ROLE OF SOUTHERN SUDAN ON THE BUILDING OF MODERN SUDAN), 1985.

داخله الحركة الوطنية ، الا ان قيامها في ذلك الوقت كان تدخلاً في مسار التطور الطبيعي لبلاد السودان . وقد أدت سياسة البطش التي اتبعها الحكم الأجنبي الى ارهاق الكيانات المحلية . وأثرت عملية النهب الاقتصادي التي اتبعها ذلك الحكم في ضمور القاعدة الانتاجية . فكان تنفيذ الحكم التركي لتلك السياسات عاملاً مساعداً في بلورة الشعور المعادي له لدى أهل السودان ، وأصبح هدفاً لنقمتهم . وما كان لذلك الشعور الا أن يتخذ مساراً بطيئاً في تطوره اذ قعدت به كل تلك العوامل السلبية . فشهدت تلك الحقب الست محاولات متكررة كانت تعتمد على الرفض والضيق والتمرد ، دون ان ينتج عنها حركة تهدد بقاء ذلك الحكم ، حتى حسب ان أمر البلاد قد خضع له تماما ، ولم يعد يخشى أي تهديد مباشر على وجوده .

وقد اتخذت تلك المقاومة شتى الأساليب والأشكال . فهناك الانتفاضات الشعبية الرافضة لسياسات الحكومة ، وهناك المقاومة المسلحة للحملات التي أرسلت لاصطياد الرقيق ، وهناك حركات التمرد التي قامت بها بعض القبائل . وهناك التمرد المسلح الذي قادته بعض الفرق العسكرية .

ولا ننسى حركات الهجرة الجماعية والهروب خارج حدود السودان ومقاومة الحكم الأجنبي في حركات خاطفة عبر تلك الحدود . وقد تمكن الحكم التركي من القضاء على تلك الحركات حتى وصل الى قناعة بقدرته التي لا تقهر [١] .

---

(١) راجع على سبيل المثال : ريتشارد هل : على تخوم العالم الاسلامي . ترجمة عبد العظيم عكاشة (دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٦) .

ولكن فشل تلك الحركات لم يكن يذهب هدراً. فقد كان ذلك الاخفاق يختزن في الذاكرة الشعبية، وساعد تراكمه على بلورة الوعي المعادي للحكم التركي. وكان ذلك الفشل أيضاً يفرز الحاجة الى بديل اكثر ثباتاً. فكان يدفع بالناس الى رؤية أفق مشترك أو امكانية رؤية مثل ذلك الأفق. وقد ساعدت تلك الهزائم في صهر الفوارق القبلية والاقليمية في بوتقة الوعي القومي. ولكنه وعي تحده قدرات المجتمع فسار في خطو بطيء، حتى بدأت شوكة الجلابة أو «التجار» تقوى، فشكلوا قوة اجتماعية اخذت تبحث لها عن ايديولوجية تعبر عن طموحها الاجتماعي.

الثورة المهدية وتطور الوعي القومي:

الذي يتناول تاريخ السودان الحديث بالدراسة لا بد له من وقفة طويلة عند الثورة المهدية. فرغم الفترة القصيرة التي عاشتها في حياة هذه الامة، الا أنها كانت جد هامة لما صحبها من هياج ولما احدثته من تغييرات قبل ان تمضي عن مسرح الأحداث. وسواء كنا من المتحمسين لها أو الرافضين لممارساتها أو واقفين بينهما مواقف متباينة، فلا بد لنا أن نعترف بعمق ما حدث. وقد نقف مشدوهين أمام بطولات أولئك النفر في معارك المهدية، أو متحيرين يشدنا ذلك الاستشهاد البطولي في كرري، أو ساخطين على كثير أو بعض من ممارسات الدولة المهدية. كل هذا ممكن ولسنا بصدد دراسته، بعد ان تناولته أقلام شتى تماوجت بين البراعة والتسطيح. الذي يهمنا ان ما حدث في تلك السنوات المجيدة كان عاملاً فعالاً في تكوين الأمة السودانية وبلورة وعيها، اردنا هذا أم لم نرد، اعترفنا به أم لم نعترف به. فما هي طبيعة تلك الثورة؟ [١].

---

(١) حول أسباب الثورة وطبيعتها راجع: محمد سعيد القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية. (جامعة الخرطوم، ١٩٨٦) الفصل الاول، الجزء الثاني.

تكاد تكون طبيعة الثورة المهدية أمراً واضحاً وضوح البديهيات ، ولكن ما ان نضعها في سياق التعامل المفهومي ، حتى نكتشف أننا محكومون بمواجهة بعض إشكالات خلال التصدي لتحديد المفهوم العلمي لهذه الطبيعة .

ولعل التشابك راجع الى التداول الكبير لطبيعة هذه الثورة ، ومرورها عبر مختلف التيارات الفكرية ، وخضوعها في كثير من الأحوال للتقديرات الذاتية والرغبات الخاصة . وحتى نخرج من هذه الدوامة نعود الى قاع المسألة لدراستها والوقوف على طبيعتها .

تكونت العوامل التي أدت الى انفجار الثورة المهدية في عهد الاستعمار التركي . ونحن ندرس تلك العوامل في اطار ذلك العصر . فكيف خرجت فكرة المهدي المنتظر من ظلام ذلك العصر لتضيء للقوم طريقهم ، فتلم اشتاتهم وتوحد جهودهم ضد ذلك الحكم ، ولتصبح هي دون سواها من الأفكار سلاحهم في حربه ؟ خرجت الفكرة من واقع السودان : واقعه الاقتصادي والاجتماعي وتراثه الاسلامي [١] .

كانت مقاومة الحكم الأجنبي تفرز دوماً الحاجة الى توحيد الشمل . وكان توحيد الشمل ضرورياً للحفاظ على الكينونة السياسية الموحدة التي اصبحت تشكل الحدود السياسية للسوق الداخلي . وقد ساهمت في نشاط ذلك السوق مختلف القبائل والفئات الاجتماعية بدرجات متفاوتة . وكان القضاء على الحكم الأجنبي يعني تفتيت تلك الكينونة السياسية وانهيار

---

(١) محمد سعيد القدال ، « الرؤية الثورية في فكر المهدي » . دراسات في تاريخ المهدية (الخرطوم ، ١٩٨٣) .

نشاط السوق الداخلي، ما لم يستبدل ذلك الحكم باطار جديد تنضوي تحت لوائه كل تلك القبائل والفئات الاجتماعية، فتحافظ على كينونتها الموحدة بعد أن تكون قد قضت على الحكم الأجنبي. فالصراع كان متشعب الجوانب: صراع ضد الوجود الاجنبي ــ وصراع من أجل الحفاظ على الكينونة السياسية ــ وصراع ضد النزعات القبلية والاقليمية الجانحة للانفصال. ومن بين تلك التناقضات انبثقت فكرة المهدي المنتظر كأفق عريض يصبو اليه الناس، ويأملون في الخلاص من الظلم في رحابه، وسلاحاً ضد الحكم الأجنبي، واطاراً عريضاً يقبلون الانضواء تحت لوائه، دون أن يكون في ذلك الانضواء تغول من قبيلة على قبيلة او فئة على أخرى، ففكرة المهدي المنتظر تسمو فوقهم جميعاً. وما كان هناك من سبيل آخر لبروز ايديولوجية تعبر عن تلك المرحلة التاريخية خارج اطار التراث الاسلامي. هكذا استلت عبقرية الانسان السوداني فكرة المهدي المنتظر من بين التراث، واضفت عليها بعداً تاريخياً يعبر عن تطلعات تلك المرحلة. بدأت الفكرة همسا ثم أخذت نبراتها تتعالى كلما وجدت تجاوباً مع الطموح القومي. وكان الخيال الشعبي يغذيها وينسج من نولها رؤيته للعالم الافضل [١].

ولم يكن التقاط الخيط الاول لتلك الفكرة بالامر العسير. فالفكرة قائمة منذ قرون في التراث الاسلامي. ورغم ان اصلها شيعي، الا أنها حملت منذ ميلادها نواة عنصر مستقل، جعلها قادرة على العطاء على مر العصور، ويسّر لها مهمة التسرب والانتشار في مختلف المذاهب والمدارس الاسلامية. ووصلت الى السودان محمولة في الأدب الصوفي، بالذات في

(١) محمد سعيد القدال: الامام المهدي: لوحة لثائر سوداني. (الخرطوم ١٩٨٥).

كتابات محي الدين بن عربي، وكتابات السيد محمد عثمان الختم. كما وصلت الى قبائل غرب السودان التي كانت تستقبل التراث الفلاني الذي يشير الى ظهور المهدي في أرض النيل. ووجدت في أرض السودان التي كانت تمور بالغضب ضد الحكم الاجنبي تربة صالحة فنمت فيها، حتى غدت الايديولوجية المعبرة عن الشعور القومي المعادي للحكم الاجنبي [١].

فالثورة المهدية ثورة ضد الحكم الاجنبي استمدت ايديولوجيتها من التراث الاسلامي. وكان التعبير عن الشعور الوطني في اطار الايديولوجية الدينية هو نتاج لظروف السودان في القرن التاسع عشر. فقد استطاعت فكرة المهدي المنتظر بطابعها الفضفاض ان تلم اشتات القبائل. واستطاعت بتقسيمها القاطع للناس الى مؤمن وكافر ان تجسد الوعي الاجتماعي في تلك المرحلة من تطوره، بشكل بسيط يفهمه الناس وينخرطون في الجهاد تحت بيرقه. وقد سعى المهدي، قدر جهده، وبقدر ما سمحت له ظروف العصر، الى تطبيق سياسات ذات محتوى قومي عريض. فعين خلفاءه الثلاثة ليمثلوا مناطق السودان الاساسية: الغرب والوسط والشمال، وأعطى عثمان دقنه وضعاً مميزاً ليمثل الشرق، وسعى في تعييناته لتوخي الكفاءة وليس الحسب او المنطقة [٢].

وكان للفكرة قصورها في جوانب أخرى. فهي تنادي بالخروج على الحكم الأجنبي في اطار دعوة المهدي المنتظر. وحققت هدفاً اجتماعياً كبيراً بتوحيدها مختلف الفئات الاجتماعية. ولكن تلك الدعوة لجمت

---

(١) القدال، الرؤيا الثورية.

(٢) القدال: الامام المهدي. الفصل الخامس عن برنامج المهدي السياسي.

انطلاق التطور الاجتماعي نحو استكمال معالم الأمة في تلك المرحلة الاولى ، لأن فكرة المهدي المنتظر لم تكن ترى تلك المعالم الا في حدود معلومة . كما ان المجتمع السوداني بواقعه التاريخي ذاك وقدراته المحدودة ، ما كان له أن يرى أفق الأمة الا في اطار فكرة محدودة . لذلك كانت فكرة المهدي المنتظر سلاحاً قاطعاً ضد الحكم الأجنبي ، فكان الانتماء اليها فعالاً كحركة ضد الوجود الأجنبي . اما الانتماء اليها كنظام يسعى لتشييد مجتمع جديد فكان يَقْعُد به قصور الدعوة نفسها في تحديد معالم المجتمع الجديد في بلاد ذات تباين كبير ، ولم يكتمل بعد بناء قاعدتها المادية ليعطي القومية بعدها التاريخي .

وقد برز قصور الدعوة المهدية في بلورة الحس الوطني في علاقتها بالجنوب . فقد تأرجحت تلك العلاقة بين الانتماء والاغتراب . فحينا كانت تهب قبائل الجنوب لنصرة الدعوة الجديدة . وحينا آخر تقف بمعزل عنها . وحينا ثالث تحمل السلاح ضدها . فالثورة المهدية التي بلورت الشعور الوطني في لحظة وهج ثوري في الشمال ، لم تستطع ان تحمل اشعاع ذلك الوهج ليضيء مشاعر القوم في الجنوب . ولم تر الدعوة المهدية في الجنوب جزءا من الكينونة السياسية ، فقد نهض حاجز الدين دون ذلك الادراك . فكان تاريخ الجنوب إبان المهدية يموج بالاضطراب وأحياناً بالفوضى ، فلم تتصل شرايين الوصل بينه وبين الشمال بعد [١]

وحين بدأ الغزو الاجنبي للبلاد عام ١٨٩٦ ، أخذ الشعور القومي منحًى جديداً . ودافع أهل السودان في المعارك المختلفة دفاعاً مستميتاً .

---

(١) راجع الدراسة المنشورة في هذا الكتاب بعنوان « الثورة المهدية في جنوب السودان : الانتماء والاغتراب .

حتى كانت وقفتهم الكبرى في كرري . فما الذي ثبت أقدام الناس في سهل كرري صباح ذلك اليوم وضحاه ؟ عم كان يدافع ذلك الحشد ؟ لا شك ان خليطا من المشاعر قد تمازج في نفوس الرجال فكان زادهم في ذلك المعترك . فمن كان يدافع عن المهدية التي ظل يحمل يقينها بين جنبيه فاضاءت نفسه في مثار النقع . ومن كان يدافع عن تراثه القبلي فلا يستطيع ان يعود فاراً من أرض المعركة . ومن كان يدافع عن كينونته كأنسان وجد نفسه وجها لوجه أمام الردى . ومن استخف بالموت في فزع القيامة ورأى الموت مع الجماعة عرسا . ومن افزعه رؤية الاجنبي « الاحمر » فخشي على عرضه وذكريات « الترك » ما زالت قريبة . وسواء كان هذا أو غيره فان وقفة القوم في تلك المعركة ، قد غدت جزءاً متيناً من تراث الوطنية السودانية . وهي قمة لمعارك المقاومة السودانية التي امتدت على طول القرن التاسع عشر .

خلاصة :

كان القرن التاسع عشر فترة تكوين هامة في تاريخ السودان الحديث ، حيث برزت فيه كثير من ملامحه التي ما زال يحملها على جبينه . فقد شهد ذلك القرن بروز الكينونة السياسية الموحدة لما أصبح يعرف بالسودان . ورغم ان تلك الكينونة كانت نتيجة للغزو الاجنبي ، الا ان ارهاصاتها كانت تتعالى منذ القرن الماضي ، ولذلك اصبحت المقاومة لذلك الحكم رغم منطلقاتها الاقليمية والقبلية جزءاً من تراث الحركة الوطنية . وغدت المقاومة بكل أشكالها جانباً من البناء النفسي القومي لأهل السودان انصهرت فيه وتشكلت . وهذا هو إرث الحركة الوطنية الباقي من القرن الماضي .

وجاءت الثورة المهدية لتعطي تلك المقاومة انتصارها الباهر فكانت تتويجا لها ، واضافة أساسية للتراث النضالي للحركة الوطنية ، وعندما انهزمت تلك الثورة كانت تقاوم ببسالة . فكانت اضافة جديدة في ذلك البناء . فلم يمض القرن التاسع عشر الا بعد ان خلف للحركة الوطنية أرضاً صلبة فوقفت عليها لتلتفت الى الماضي تستلهمه زادا لأ يامها .

الثورة المهدية في جنوب السودان: الانتماء والاغتراب*

(*) قدم هذا البحث في مؤتمر «دور جنوب السودان في بناء السودان الحديث»، والذي نظمته جامعة جوبا عام ١٩٨٥.

١ ــ تقديم :

تناولت بعض الدراسات التاريخية الثورة المهدية وردود الفعل لها في جنوب السودان : ــ بحر الغزال والاستوائية . وقد اهتمت تلك الدراسات بنشاط المهدويين العسكري والذي كان يهدف الى توسيع دائرة الثورة ورفع راياتها عالية في تلك البقاع . ولكن علاقة الثورة المهدية بجنوب السودان تحتاج الى معالجة تمتد ما وراء النشاط العسكري والتواجد الاداري ، ذلك لأن التطور التاريخي لجنوب السودان اتخذ مساراً يختلف عن تطور السودان الشمالي .. واذا كان التوسع التركي ــ المصري قد أخضع المديريات الجنوبية للحكم المركزي الذي اقامه في الشمال ، فهذا لا يعني ان الجنوب قد بدأ ينصهر في بوتقة الكينونة السياسية الجديدة التي انجزت بالغزو الاجنبي . واذا كانت الثورة المهدية قد أثرت تأثيراً كبيراً في الشمال ، فهذا لا يعني ان لها نفس الأثر في الجزء الجنوبي من البلاد . فكيف اثرت الثورة المهدية في جنوب السودان ، وكيف كان تفاعل الناس معها هناك ؟ هذا السؤال يشكل محور هذه الدراسة . وللاجابة عليه نحتاج ان ندرس الوضع في الجنوب عند اندلاع الثورة ، ثم نتناول مدى الانتماء والاغتراب في مسلك الثورة وهي تسعى للانتشار في ذلك الجزء من البلاد .

٢ ـ جنوب السودان عند اندلاع الثورة المهدية :

عندما قام محمد علي بغزو بلاد السودان الشرقي ، كان الجنوب يتكون من عدد من التكوينات القبلية . وكانت كل قبيلة تتمتع بنوع من الاستقلال ، ولكل منها عاداته وتقاليده التي يعيش بها ويحتكم اليها . ولكنها افتقدت عنصر التلاحم ، والمركز الموحد الذي يجمع بينها ، فكل قبيلة كانت تعتز باستقلالها [١] وكانت علاقتها بالشمال اما هامشية او معدومة ، اذ اقتصرت على بعض الغارات المتبادلة ، او بعض النشاط التجاري الواهي . ولعبت الظروف الجغرافية دوراً في تعميق تلك العزلة . وبينما كانت علاقات السودان الشمالي تتطور وتتوثق مع البلاد العربية والاسلامية تجارياً وثقافياً ، كان الجنوب يتجه نحو تكويناته المحلية .

ثم جاء الغزو التركي ـ المصري ليعمق من ذلك التباعد . فاحتل بلاد السودان الشرقي وأقام فيه كينونة سياسية تعتمد على الحكم المركزي وهي التي أصبحت نواة السودان فيما بعد . أما الجنوب فكان بالنسبة له مستودعا للرق ، فقد انعش الحكم التركي تجارة الرقيق . فكانت الحكومة تقوم بغارات موسمية على القبائل لأسرهم واسترقاقهم ، وشاركت مجموعات من التجار والأجانب والجلابة في تلك التجارة .

ولكن قبائل الجنوب لم تبق ساكنة ، بل قاومت لترد عنها غائلة الرق والاستعباد والاضطهاد . وبقيت تجارة الرقيق تسم علاقة الشمال بالجنوب بسمات غائرة في النفس . واتخذت القوى الاوربية موقفا من تلك

---

(١) RICHARD GRAY, A HISTORY OF THE SOUTHERN SUDAN 1839 - 1889 (Oxford, 1961) page 120 FF.

التجارة كان محكوماً بمختلف العوامل وتوازن القوى . فهي تحاربها من أجل تحطيم احتكار التجارة الذي فرضه محمد علي . وحينا آخر تقف منها في حذر لا تريد تعكير علاقتها بوالي مصر . وفي حين ثالث كانت تستجيب لضغط الرأي العام (١) .

وهكذا انفتح جنوب السودان امام تجار الرقيق من أجانب وسودانيين (جلابة) . ثم اخذ نشاطهم التجاري يتشعب ليشمل المنتجات الزراعية والحيوانية . واستغلوا ضعف التكوينات السياسية المحلية ، وغياب سلطة مركزية ، فأسسوا « الزرائب » التي غدت بمثابة الدول الصغيرة (٢) وأصبح الجنوب مقسماً بين عدد من التجار الاثرياء ، كل واحد منهم يمتلك عددا من الزرائب . واصبح كل تاجر يدير شؤونه التجارية والادارية من داخل تلك الزريبة . وكان هذا النشاط التجاري ترسيخا لنشاط تجاري كان قائماً من قبل (٣) . ولم يكن في تلك النشاطات ما يساعد على صهر الشمال مع الجنوب ، بل ولم يكن لذلك الانصهار حتى افق قائم في تلك المرحلة التاريخية . فالتجار كانوا يعيشون في عزلة عن المحيط الذي حولهم ، لا يربطهم به الا قنوات الربح والاستغلال . وحتى اللغة العربية ولدت وترعرعت في ظل اضطراب اجتماعي مكثف (٤) .

---

(١) ABBAS. I.M. ALI. THE BRITISH, THE SLAVE TRADE AND SLAVERY IN THE SUDAN: 1820 - 1881 (KHARTOUM, 1972) p. 12-15.

(٢) USHARI A. MAHMUD ARABIC IN THE SOUTHERN SUDAN (KHARTOUM 1983)

(٣) P.M. HOLT. STUDIES IN THE HISTORY OF THE NEAR EAST (LONDON, 1973) page 142.

(٤) عشارى ، ص ١٠ .

ثم جاء المكتشفون والمبشرون والمغامرون من الاوربيين [1] . ورغم اختلاف هُويتهم وتشعب اهتماماتهم ، الا انهم جميعا جاءوا تحت مظلة النظام الرأسمالي الاوربي المتطور . فهم طلائع الاستعمار الذين قدموا الى البلاد ليدرسوا ويتحسسوا كوامن ذلك المجتمع وقدراته . وبعد عام ١٨٦٠ م قرر الاوربيون والتجار منهم خاصة ان يستعملوا العنف والتوسع المباشر داخل القارة الافريقية ، بهدف اقامة مراكز مستديمة وقوية [2] . فازداد انفتاح الجنوب للنهب الرأسمالي ولنهب البرجوازية التجارية التي كانت تنمو في المنطقة . فبرزت بعض العوامل المشتركة بين الشطرين ، انها عوامل ولدت من المعاناة . فالجنوب كان مستودعا للثروات ، والشمال كان معبرا لتلك الثروات الى الخارج .

ثم قرر حكام السودان من الاتراك توسيع امبراطوريتهم الى الجنوب [3] . وقد تم ذلك التوسع خلف غطاء كثيف من المبررات التي لا تمت كثيراً الى النوايا الحقيقية وراء ذلك التوسع . ان توسع الامبراطورية التركية ـــ المصرية بين عامي ١٨٦٣ و١٨٧٩ هو في المكان الاول نتاج لتطور النظام الرأسمالي وانتقاله من مرحلة المنافسة الحرة الى الاحتكار والسعي للحصول على المستعمرات [4] . وقد استعر ذلك التسابق بعد مؤتمر برلين (١٨٨٤ ـــ ١٨٨٥) . واذا كانت مصر هي التي قامت

---

(١) ELIAS TORCOLO & RICHARD HILL (ED) THE OPENING OF THE NILE BASIN (LONDON 1974).

PAUL SANTI & RICHARD HILL (ED) THE EUROPEANS IN THE SUDAN: 1834 - 1878 (OXFORD, 1980).

(٢) جراي ، ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ وما بعدها .

(٤) لوتسكي . تاريخ الاقطار العربية الحديث (موسكو ١٩٧١) ص ٢٩٦ ـــ ٢٩٨ .

بذلك التوسع فانها فعلت ذلك تحت ضغط اوربا ، بعد ان وقعت مصر فريسة لها في عهد الخديوي اسماعيل . وباشر عملية التوسع تلك بعض من الاوربيين الذين تم تعيينهم بواسطة الخديوي . ونفذ الاوربيون مهمتهم التي كانت في ظاهرها لمصلحة مصر ، ولكنها في جوهرها كانت تخدم مصالح بريطانيا واوربا عامة . وعندما كان ذلك التوسع يتعارض مع مصالح بريطانيا فانها كانت تفرض سيادة مصالحها . فانسحاب ايرنست من يوغندا وما حدث في بلاط امتيسا ، وخطاب استانلي الى الرأي العام الانجليزي الذي يستنفره فيه لارسال بعثات تبشيرية ، تمثل كلها بعض الامثلة على نوايا تلك السياسة [١] . فالشركة البريطانية لشرق افريقيا بقيادة ماكنون كانت تتقدم بخطى ثابتة نحو البحيرات . فلم تعد هناك حاجة للمظلة المصرية ، بل انها كانت عائقا في الطريق .

وما ان انجزت عملية التوسع في الجنوب حتى قسم الى مديريات وقعت كلها تحت ادارة حكام من البريطانيين تحت السيادة الاسمية المصرية . فبيكر وغردون وأمين باشا في الاستوائية . وجسي ولبتون في بحر الغزال . وحتى دارفور وكسلا لم تخل من الاوربيين . ثم جاء غردون حكمدارا على تلك الاصقاع كلها . وفي الخرطوم بقي جقلر الالماني حكمدارا بالانابة في أشد اللحظات حلكة بالنسبة للحكم التركي — المصري وتدفقت البعثات التبشيرية الى الجنوب ، بل وجبال النوبة وبعض المدن الهامة [٢] .

---

(١) مكي شبيكة ، السودان عبر القرون (بيروت ١٩٦٤) ص ١٧٩ .

(٢) RICHARD HILL (ED) THE SUDAN MEMORIES OF CARL CHRISTIAN GIELER PASHA 1873 - 1883 (LONDON, 1984)

هذا هو الوضع في الجنوب عند اندلاع الثورة المهدية وهو وضع لا يخلو من تعقيد. فهناك مجموعات القبائل الجنوبية التي كانت تصارع جادة ضد الوجود الاجنبي الذي أرق ساكن حياتها. وكانت تجاهد ايضا للحفاظ على كينونتها ضد مختلف وسائل النهب الذي كانت تمارسه مختلف القوى الخارجية. فتولد لديها احساس بالظلم ورغبة للانعتاق منه. *ولكن ذلك الإحساس وتلك الرغبة لم يتطوروا الى وعي اجتماعي بهما.* ومن هذا القصور جاءت مساهمة الجنوب المحدودة في الانتماء للثورة، ووجد الاساس الموضوعي للاغتراب ايضا.

وكان هناك الوجود التركي ــ المصري الذي لم يستطع ان يغرس نظاماً اداريا كالذي غرسه في الشمال. وبقي مجرد وجود عسكري يتمركز في بعض الحاميات والمدن، وما ان يفارقها حتى تلاقيه عواصف الرفض. فبقي الجنوب رغم ارتفاع الاعلام المصرية في سمائه، بلادا غير خاضعة لنظام اداري مركزي، مما فتح المجال لمختلف القوى الاجتماعية لتتصارع لفرض وجودها. فبرزت مجموعات الجلابة والتجار الاجانب كقوى اجتماعية منظمة. واستطاعت عن طريق المال والسلاح الناري ونفوذها الحضاري ان تمارس عملية النهب: حينا تحت نفوذ الوجود الحكومي، وحينا مستعينة بقدراتها هي. أما مجموعات المبشرين فكانت تتحرك وسط تلك القوى المصطرعة، مما جعل نشاطها يشوبه الاضطراب ولكنه كان صاعدا الى أعلى. فكيف استطاعت الثورة المهدية ان تؤثر في هذا المناخ، وكيف كان تجاوب القبائل في الجنوب معها؟

٣ ـ الثورة المهدية : الاغتراب

خرج المهدي بدعوته في ١٨٨١ ، ووجدت في بادىء الامر استجابة محدودة وسط دائرة من الرجال الذين التفوا حوله والقبائل المحيطة به . ولكن بعد انتصاره في ابا ثم انتصاراته المتلاحقة في قدير ، بدأ نفوذه ينتشر وسط فئات وقبائل عريضة . أما في الجنوب فلم تجد الدعوة المهدية تلك الاستجابة في ذلك الوقت المبكر من عمرها . فدعوة المهدي المنتظر والتوجه الاسلامي للمهدي ، لم يجد صدى واسعا بين المجموعات المتباينة في الجنوب .. وما كان لمثل تلك الدعوة ان تمتد لها جذور بين قبائل لها خلفية تراثية تختلف عن مجموعات القبائل في الشمال ، والتي كان صراعها ضد الحكم الاجنبي وممارساته الهامشية والفعالة كلها تتجه نحو التوحد تحت أي راية عريضة بينما ظلت معالم هذا التوجه مختلطة المعالم في الجنوب . وهذا اول مظاهر الاغتراب .

وفي عام ١٨٨١ قام راشد أيمن مدير مديرية فشود ، باعداد حملة ضد المهدي في جبل قدير . وسار معه في تلك الحملة زعيم الشلك « كايكون » الذي خرج على رأس نفر من قومه بلغوا بضع مئات [١] . وفي قدير أبيدت تلك الحملة وابيد معها الشلك وزعيمهم . فما الذي حرك الشلك ضد المهدي ؟ لعلهم خرجوا تحت ضغط الحكم التركي ، او ربما خرجوا عن جهل بطبيعة الثورة المهدية ، فلم يروا ما يمنع مقاومتها ، بل قد يحقق لهم نصرا يفيدهم في مستقبل ايامهم . ومهما كانت الدوافع فان خروج الشلك مع تلك الحملة كان مظهراً من مظاهر الاغتراب الذي وسم العلاقة بينهما في تلك المرحلة المبكرة . ولكن انتصارات الثورة حملت معها مرحلة جديدة .

---

(١) المصدر السابق .

٤ ــ الثورة المهدية : الانتماء

عندما بدأت الدعوة المهدية في الانتشار خارج نطاقها المحدود في قدير، اتجهت ضمن ما اتجهت من مناطق الى بحر الغزال والاستوائية. وكان لذلك التوجه اسبابه الجغرافية والتجارية والاجتماعية. ويذهب كولنز الى ان المهدويين اتجهوا لنشر دعوتهم في بحر الغزال بين :

(١) القبائل الزنجية التي فقدت استقلالها بمجيء الحكم التركي. فكان كثير من تلك القبائل تحس، رغم أصلها الزنجي، بانتماء اكثر للقبائل العربية شمال بحر العرب، والتي كانت لها معها علاقات اخاء، فاستمعت لدعوة المهدي.

(٢) قبائل الدينكا والنوير والشلك والذين لم تكن لهم رابطة مع القبائل العربية فانضموا للثورة، لا من موقع الاخاء مع الثورة ولكن للتخلص من الحكم الاجنبي البغيض.

(٣) السودانيون الشماليون من حكام وتجار رقيق والجلابة والجنود الذين نشأوا في بحر الغزال. وكان الدناقلة اقواهم نفوذا ويمثلون القيادة بالنسبة لتلك المجموعات. وكانت المهدية تعني بالنسبة لهم بعثا لتجارة الرقيق رغم تعارضها مع مصالح القبائل الزنجية، ولكنه تناقض يمكن ان يحل [١].

بدأت الثورة في بحر الغزال بين القبائل المتاخمة لدارفور، فقد كانت لها روابط مع قبائل تلك المنطقة. وقد وصلتهم دعوة المهدي عن طريق مادبو علي

---

(١) ROBERT O. COLLINS. THE SOUTHERN SUDAN. 1883 - 1898 (YALE UNIVERSITY, 1962) page 22-23.

زعيم الرزيقات. فتلقت الدعوة قبائل الجانقي INJAJAGNLGULE الذين حملوا السلاح ضد الحكومة [1]. ماذا تعني هذه البداية؟ لم تصل دعوة المهدية الى بحر الغزال محاطة بهالة المهدي ونفوذه الصوفي الذي تناقله الناس، بقدر ما كانت تمردا يضرب بجذوره في التكوينات القبلية ضد الوجود الاجنبي. وهذا هو بداية الانتماء للثورة.

وكان لانتصارات المهدي العسكرية اثرها. بل ان ذلك الاثر كان اقوى في الجنوب منه في الشمال لطبيعة الوجود الهامشي للنظام التركي. فأدت تلك الانتصارات للقضاء على ما بقي من هيبة للحكومة. فثارت بعض القبائل، وبالذات القبائل الزنجية المستعربة مثل التقويو في ليفي TOGOYO OF LIFFI ومالت نحو دعوة المهدي [2]. لقد رأت تلك القبائل في دعوة المهدي حركة معادية للوجود الاجنبي دون ان تستبين جوانبها الاخرى. هذا التعامل مع الثورة المهدية يمثل جانباً من أبرز جوانب الانتماء لها.

ثم هب زعماء القبائل الجنوبية المتاخمة لدارفور للحاق بالمهدي في قدير ثم الابيض لمبايعته. فارجعهم المهدي كعادته الى اوطانهم بعد ان رافقهم بعض الانصار ونفر من الرزيقات. واوكل لهم المهدي مهمة نشر الدعوة وطرد الاتراك من بحر الغزال. ولم تجد تلك المجموعات جيشاً حكومياً منظماً حتى تستطيع مواجهته، اذ ان السلطة الحكومية تحولت الى مجرد رمز. أما الجلابة فقد اخذوا ينحازون لجانب المهدي. فكان على مجموعة الثوار ان تنتظر. ولكن طول الانتظار بالنسبة لتلك المجموعات غير

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥.

النظامية يبعث على الملل مما ادى الى تشتت شملها . فعاد الرزيقات الى ارضهم ، وتفرقت المجموعات الاخرى من القبائل المحلية لتبحث عن قوتها [١] .

ورغم هذا التشتت وبعض الانتصارات العسكرية التي احرزتها الحكومة ، الا ان شوكة الثورة لم تنكسر . فسرعان ما انفجرت في شات بين مجموعات من قبائل الديمو والبنقو والشلك (LUO) . واتضح ان تلك المجموعات لم تكن على استعداد للتسليم لجند الحكومة كما ان الحكومة كانت عاجزة عن تحقيق نصر مؤثر عليها [٢] . وكانت هذه نهاية للمرحلة الاولى للانتماء . وهي مرحلة لها ايجابياتها كما كان لها قصورها . فقد استطاعت الثورة ان تقوم على اكتاف قوى محلية تساندها بعض العناصر الوافدة . ولكنها فشلت في خلق قاعدة مستديمة في الجزء الغربي من بحر الغزال .

ثم اندلعت الثورة في شرق بحر الغزال . فقد قام الدينكا بسلسلة من الهجمات التي تحولت الى تمرد ضد الحكومة . لقد قاسى الدينكا هناك من الحملات التي قامت بها الحكومة ضد سليمان الزبير . كما عانوا من الضرائب ومن قسوة الحكام . فثورة الدينكا هنا تختلف عن ثورة القبائل الزنجية المستعربة في الشرق . فهم قد تأثروا بما حدث في شرق بحر الغزال ، ولكنهم لم يكونوا تحت التأثير المباشر لأفكار المهدي ، كانوا رافضين لأي شكل من أشكال التغول او النفوذ الخارجي ، سواء كان ثقافياً أو سياسياً أو دينياً . لقد كانت لهم قناعة بتفوق نمط حياتهم وفخورين بتقاليدهم ومعتقداتهم [٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

في فبراير ١٨٨٣ بدأ الدينكا في مهاجمة جند الحكومة ثم اخذت هجماتهم تتوالى ولكنها لم تتحول الى معركة صدامية حاسمة. واستطاعت الحكومة ان تحرز بعض الانتصارات الموقتة التي لم تتمكن من احتواء التمرد. وفي ربيع العام نفسه تحولت هجمات الدينكا الى ثورة. وأحست الحكومة بأن هذه الثورة هي الخطر عليها. فقرر لبتون مدير بحر الغزال القيام بحملة عسكرية مكثفة يسحق فيها حركة الدينكا. واستنفر بعض القبائل المحلية مثل الزاندي الذين انضموا اليه بدافع الغنيمة. ثم اخذ النفوذ المهدوي يجد طريقه الى حركة الدينكا الذين قاموا برفع اعلام المهدية الخضراء وبلباس الجبة المهدية وبتقليد صيحاتها للحرب. هكذا اخذت ثورة الدينكا التي بدأت بمنأى عن الثورة المهدية تقترب منها. وهذا اسطع مثال على الانتماء. ولكن بُعْد المسافة عن مركز الثورة وظروف المنطقة نفسها لم تساعد على دفع تلك البداية الى نهايتها المنطقية.

وكان اندلاع الثورة في الاستوائية نتيجة مباشرة للأحداث في بحر الغزال، وليس لما كان يحدث في قدير وفي كردفان عامة. فقد عانت قبائل الدينكا (AGAR DINKA) في الاستوائية كثيراً من غارات الحكومة وقهرها. فكان انتصار الدينكا في بحر الغزال عاملاً مشجعاً لهم. فاندلعت اول شرارة في يوليو ١٨٨٣ عندما هاجمت مجموعة منهم حامية الحكومة، ولكن الحكومة استطاعت ان تحتويها فلم تؤد الى حركة ثورية مؤثرة [١].

وعندما استولى المهدويون على بحر الغزال بقيادة كرم الله

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤.

الكركساوى ، تشجع الدناقلة في الاستوائية ، وقاموا بالاستيلاء على بعض المواقع الحكومية مستعينين بالتعزيزات التي وصلتهم من بحر الغزال. وتحالف القائد المهدوي عبدالله السميت مع الدينكا. فكانت تلك أول خطوة إيجابية نحو التحام عناصر من الشمال بقبائل الجنوب. وقد تعزز ذلك التحالف بمجيء كرم الله في مطلع عام ١٨٨٥م ، وتم الاستيلاء على امادي. على ان كرم الله لم يبق طويلاً اذ اضطر للانسحاب الى بحر الغزال ، وبقيت الثورة المهدية في الاستوائية في مرحلة الانتماء هذه محدودة في ذلك النطاق من الانتصارات [١].

ورغم النشاط المحدود للثورة المهدية في الاستوائية الا انها ابرزت جوانب ايجابية في عملية الانتماء ، ولكن صراعات القوى في الجنوب لم تسمح لتلك الخطوة بأن تنجز عملاً تاريخياً له أثره الباقي.

٥ ـ الثورة المهدية: الاغتراب ثانية..

كانت معركة شيكان (نوفمبر ١٨٨٣) نقطة تحول هامة في تاريخ الثورة المهدية. فقد أدى انتصار المهدي الى انهيار الحكم التركي ـ المصري في دارفور وبحر الغزال ، بعد ان ظلت الحاميات الحكومية هناك تقاوم في انتظار ما تسفر عنه المعركة. وكان نفر من جلابة بحر الغزال قد هربوا وانضموا الى المهدي في الابيض وشاركوا في معركة شيكان ، من بينهم كرم الله الكركساوي. وبعد المعركة بعثه المهدي الى بحر الغزال على رأس ١٥٠٠ من الانصار [٢].

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢.

وكان تعيين المهدي لأمير على المنظمة من أهلها أحد جوانب الاصالة في أسلوبه الثوري. فعندما بعث المهدي بكرم الله الى بحر الغزال اعتبره من اهل المنطقة، بينما هو في الواقع من الجلابة. ولكن التمييز بين الجلابة وقبائل المنطقة كان مهما، وهو الامر الذي لم يحدث، ولعل الثورة المهدية لم تجد بين زعماء المنطقة المحليين واحدا يستطيع قيادة الدعوة. فجاء كرم الله الى بحر الغزال اميرا من قبل المهدي للقضاء على الحكم الاجنبي، ولكن قيادته كانت مفروضة من الخارج وليست نابعة من قوة اجتماعية محلية. فكيف يستطيع جلابي ان يقود اهل المنطقة الى الثورة الا في حدود معلومة هي حدود القضاء على الاتراك. وهذا ما تم انجازه. فقد استطاع كرم الله ان يستولي على المديرية ويقضي على الحكم التركي فيها.

ولكن توازنات القوى في المنطقة لم تسمح له باقامة نظام مستقر للحكم. فما ان انهار الحكم التركي حتى ثار الجهادية على السلطة المهدية. وتم القضاء على التمرد. ثم انفجر ثانية عندما كان كرم الله في الاستوائية. واستمر الصراع بين الجهادية والانصار متفجرا، مما حصر السلطة المهدية في نطاق ضيق. وبعد وفاة المهدي استدعى الخليفة كل قواده الى امدرمان. وفي اكتوبر/ ١٨٨٥م غادر كرم الله بحر الغزال. وبانسحابه تلاشى النفوذ المهدي هناك، وعادت المنطقة الى سابق صراعاتها.

ولم تكن الاستوائية باحسن حال من بحر الغزال، الا ان التواجد الاوربي في الاستوائية جعل السلطة المهدية توليها عناية خاصة. فقد كان الخليفة حريصا على حماية ظهره من أي تدخل اوربي. فما ان ترددت اليه

انباء الحملة التي دخلت جنوب البلاد لانقاذ امين باشا ، حتى ظنها حملة اوربية تستهدف احتلال جزء من البلاد ، فقرر ارسال حملة لاحتلال الاستوائية . ففي صيف ١٨٨٨م ارسل عمر صالح على رأس حملة مكونة من ١٠٠٠ من الانصار و٥٠٠ من الجهادية وثلاثة سفن وستة مراكب شحن . فماذا كان الوضع في الاستوائية عند قدوم تلك الحملة ؟ [١] .

كانت الاستوائية في حالة فوضى . فالسلاح في ايدي نفر من رجال القبائل . والجهادية الذين تمردوا على الدولة المهدية التجأوا الى هناك ، وانتشر المغامرون ، وازداد الوجود الحكومي ضعفا على ضعف . وبعد انهيار الحكم التركي وزوال العدو المشترك انفجر الصراع بين القبائل المحلية ودعاة المهدية . فدعاة المهدية كانوا يسعون الى فرض حكمهم وعقيدتهم على سكان المنطقة ، وكانوا يتعاملون مع تلك القبائل من مواقع لا تساعد على الانصهار بل تغذي الاغتراب . وكانت ترد في وسائل المهدويين كلمة (زنجي) و(عبد) لتعني نفس الشيء في وصف سكان المنطقة . في هذا الجو كان على عامل المهدية الجديد ان يؤسس للدولة المهدية وجودا .

اتبع عمر صالح سياسة ذات اتجاهات متعددة . فكان عليه ان يؤكد قوة الدولة العسكرية التي بدونها لا يصبح لوجوده معنى . وهذا يعني ان يجرد القبائل من السلاح . ولكن تجريد القبائل من سلاحها كان بالنسبة لها يعني غزوا جديدا واستبدال حاكم تركي بحاكم آخر . فانفجر الصراع بين الفئتين . فقام عمر صالح بانتهاج سياسة تقوم على تحالفات وقتية . فكان يتحالف مع احد الزعماء الاقوياء . وبعد انتهاء المهمة التي من

(١) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

اجلها تم التحالف، يقوم بتجريد الزعيم من قوته. وقد حققت هذه السياسة بعض النتائج الوقتية، ولكنها عمقت الاغتراب (١).

من الجانب الآخر انتهج عمر صالح سياسة مغايرة. فأخذ يسعى الى معاملة الاهالي بالرفق والتسامح، وكان لها ثمارها. فقد قامت بعض القبائل من الباري بالانضمام اليه باعتباره اداة يمكن ان تخلصهم من الاتراك الطغاة.

واشتركت بعض القبائل اشتراكاً مباشراً في حروبات المهدويين. واشترك بعضهم اشتراكاً غير مباشر، اذ كانوا يقومون بقتل الهاربين من جند الحكومة. ولكن ضعف الوجود العسكري للانصار في المنطقة، والتواجد الاوربي في أشكاله المختلفة، لم يمكن تلك السياسة من احراز نتائج عميقة. وبقي الاغتراب هو سمة العلاقة بين المهدويين والسكان المحليين (٢).

وانتهى أمر المهدية في الاستوائية الى وجود عسكري معزول عن البيئة المحيطة به. وكان الانصار يواجهون هجمات مستمرة من القبائل، ونقصا في المواد التموينية. ولم تكن السفن التي بحوزتهم فعالة لنقص الوقود وقطع الغيار. وتحول الصراع كله الى عمليات عسكرية محدودة بلا جدوى. وعندما أحست القبائل بضعف الوجود العسكري المهدي، ضاعفوا من هجماتهم وضيقوا عليهم الخناق، حتى أصبح البحث عن الطعام يستوجب حملة عسكرية. وكانت خطابات عمر صالح في هذه الفترة تشوبها مسحة من كآبة ويأس (٣).

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٣) مهدية ٩٤/٣٣/١ وما بعدها، عمر صالح الى الخليفة.

ورغم ان الخليفة أرسل قائدين مجربين الى الاستوائية هما محمد عثمان أبو قرجة (١٨٨٢) وعربي دفع الله (١٨٩٣)، الا أنهما لم يتمكنا من تغيير موازين القوى. ولم يكن أمامهما الا مهاجمة القبائل وأسر بعض زعمائها. وكان هذا قمة الاغتراب [١].

ولعل الخلاصة المتشائمة التي انتهى اليها كولنز لا تبعد كثيراً عن وصف الحال. فقد كتب يقول ان حملات الأنصار كانت مجرد هجمات موسعة أخلت بالنمط التقليدي للحياة القبلية، ولم تخلف الا الفوضى والفزع. ورغم ان الأنصار كانوا نفراً قليلاً الا أنهم لم يجدوا صعوبة في هزيمة القبائل المحلية مستعينين بحماستهم وسلاحهم. ولكن قلتهم تلك هي التي عمقت الفوضى والفزع. فكانوا اقوياء في هزيمة القبائل، ولكن لم تكن قوتهم كافية لفرض نفوذهم في المنطقة. فتحول وجودهم الى غارات من أجل السلب والنهب للحفاظ على حياتهم [٢].

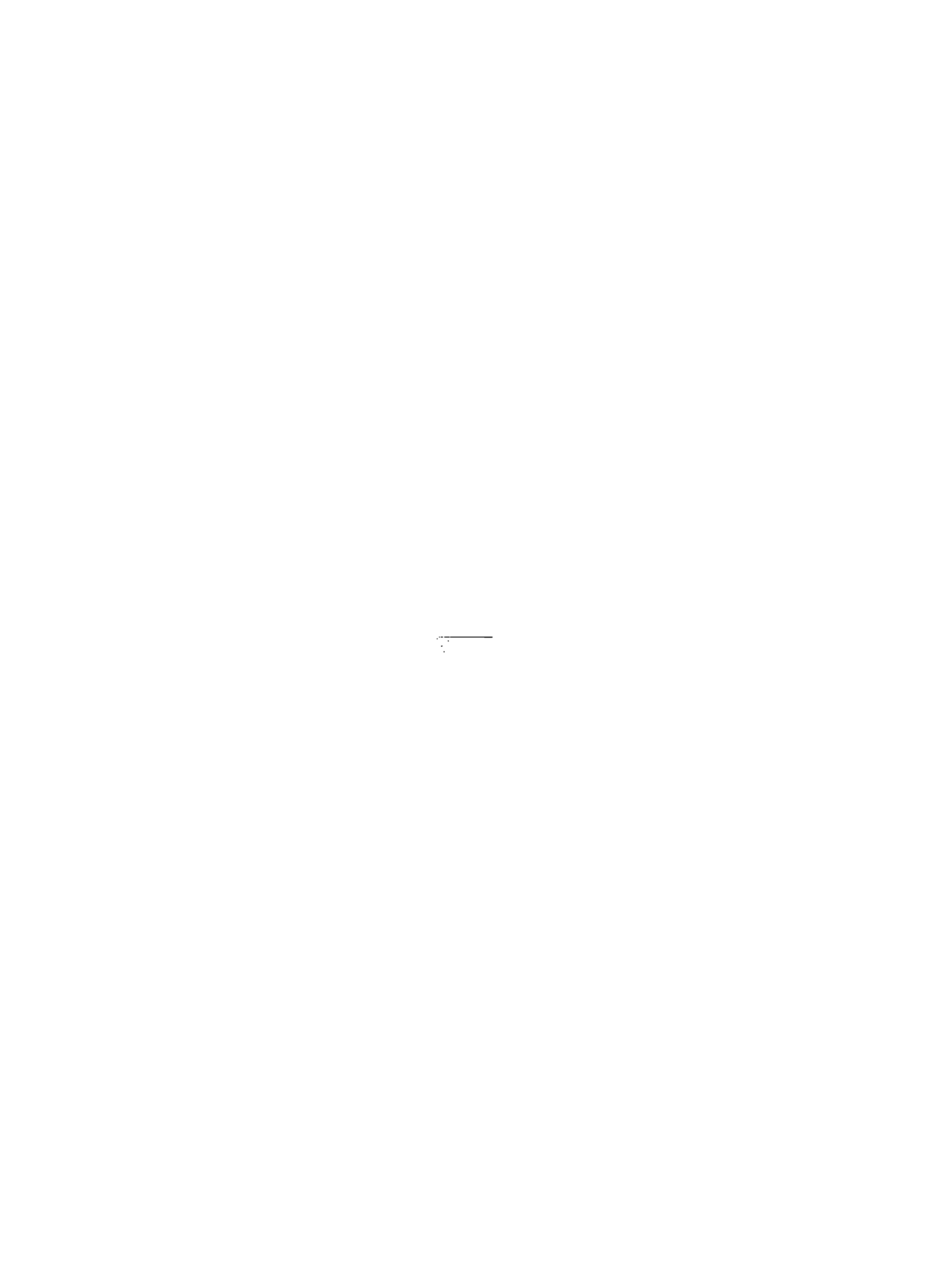
---

(١) كولنز ص ١١٠ ــ ١١١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

المدينة السودانية في القرن التاسع عشر:
بعض الملاحظات عن النشأة والتطور*

(*) نشرت في مجلة (الاداب) التي تصدرها كلية الاداب ـــ جامعة الخرطوم .



شهد القرن التاسع عشر ظهور المدينة السودانية الحديثة .. وهي تختلف في نشأتها وتطورها ونشاطها ومظهرها عن المدينة التي عرفت في السودان قبل القرن التاسع عشر في ظل المجتمعات الاقطاعية وشبه الاقطاعية .. [1] وسنحاول في هذه الدراسة ان نلقي بعض الضوء على العوامل التي تؤدي الى نمو المدينة في ظل المجتمعات التي بدأت تأخذ بالتبادل السلعي — النقدي متخطية بذلك قصور المدينة التي سبقتها . ثم نتناول العوامل الخاصة بالسودان ، أساساً العوامل السياسية والاقتصادية ، متعرضين لبعض الآثار الاجتماعية والمعمارية التي ترتبت على هذه النشأة الجديدة للمدينة .

(١) ويذهب انجلز الى القول بأن المدن التي قامت على أساس نمط الانتاج الأسيوي ، لا تشيد لتقوم بدور تجاري أو صناعي أساساً ، بل لتكون أساساً محلا لاقامة الحكم وبطانته وموظفيه وآلهته . راجع فردريك انجلز ، ضد دوهرنج ، ص ١٦ .

وفي سلطنة الفونج (١٥٠٤ — ١٨٢١) لم تعرف المدن الكبيرة ذات الارتباطات الاقتصادية المتشعبة ، ويرجع ذلك الى انخفاض الانتاجية الزراعية وانعدام الصناعات وعدم البروز الكامل للعمل الانساني . ويرى مازري ان قلة عدد المدن يعزى الى سيادة الاقتصاد البدائي . راجع صلاح مازري « المدينة السودانية الحديثة » مجلة الدراسات السودانية ، المجلد الاول ، العدد الاول ، ١٩٦٧ ص ٤٥ — ٥٩ وراجع ايضا .

CHARLES ISSAWI (ED) THE ECONOMIC HISTORY OF THE MIDDLE EAST, (CHICAGO, 1966) p, 464

مقدمة :

يعتبر نشوء المدينة وتطورها كظاهرة اقتصادية، من سمات الاقطاعية المتطورة، حيث تنشأ المدن كمراكز للانتاج البضاعي والتجاري والحرفي.. وتعكس أيضاً تطور الأسواق من موسمية الى أسواق مستديمة، حيث يتم البيع لا على أساس انفصال الحرفة عن الزراعة على صعيد المجتمع بأسره، وانما على أساس فردي.. ففي المدن الجديدة يستقر الحرفيون في الأماكن التي يمكنهم تصريف منتجاتهم منها.. ويستقرون أيضاً قرب المواد الخام، وحيث يتوفر الأمن النسبي، وعند محطات القوافل التجارية.. ويذهب ماركس الى ان اكتشاف النقود وظهور الانتاج البضاعي، يؤثر في عملية تراكم رأس المال التجاري، وفي إحداث تحولات جذرية في المجتمع من نتائجها تجمع الناس في المدن.. [1]. ومن خلال التطورات السريعة للاقتصاد البضاعي، تتاح للمزارعين في الريف امكانيات جديدة متنامية لتسويق منتجاتهم، ويكسب التبادل البضاعي أحجاماً كبيرة بين الفلاحين في المدينة والريف.

ولعلنا نحتاج أن نؤكد على أهمية انفصال الحرفة عن الزراعة، وتحولها الى فرع مستقل في الانتاج الاجتماعي، وارتباطها فيما بعد بالزراعة عن طريق السوق، نحتاج أن نؤكد أهمية هذا على ظاهرة نمو المدن.. ويبدو أن هذا ما قصده ماركس عندما وصف المدينة الحديثة بأنها (تحضر

---

(١) KARL MARX, PRE - CAPITALIST ECONOMIC FORMATIONS, (LONDON, 1964), p. 13.

للريف) على عكس المدينة القديمة التي كانت تمثل امتداد الريف وتغوله على المدينة .. [1] وقد أضاف هوبكنز ظاهرة خاصة بالمدينة الافريقية الحديثة ، وهي ضعف القيم الرأسمالية ووجود أغراض أخرى يجتمع لها القوم ، مما أثر في تركيبها الاجتماعي .. [2] .

هل يمكننا أن نقول إن المدن تنشأ في المنطقة التي تمثل الانتقال من البداوة الى حياة الاستقرار، وانها بقيامها في ذلك الملتقى تحتوي في تكوينها على عناصر تناقض وصراع بين نمطين من الانتاج ؟ وهل يمكننا أن نذهب الى القول بأن ذلك الصراع يتجه ، مع تطور علاقات الانتاج الجديدة نحو المزيد من الاستغلال ، ويتبلور في شكل صراع طبقي وليس مجرد صراع بين ثقافتين لا تتعايشان معا ؟ ان نمو المدن يتم على حساب تفتت القطاع التقليدي الذي يلفظ ، مع ازدياد انقسام العمل ، باعداد متزايدة خارج نطاق انتاجه المتدني .. وان تلك العناصر تطرق باب المدينة بحثاً عن عمل في مجال الحرف والأعمال الوضيعة .. [3] ..

ويذهب صلاح مازري الى أنه من العسير تفسير ظاهرة تطور المدن فقط من نواحي الاقتصاد والاجتماع ونواحي الدفاع والهجوم ، ولا من نواحي العوامل الطبيعية وحدها .. وانما تمازج بين كل هذه العوامل وغيرها ، بالاضافة الى قرار سكان المدينة المدني في العصر المعين ، تختلط كلها لتفسر ظاهرة المدينة .. [4] واذا كان هذا الامر يخص المدينة عامة ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) A.C. HOPKINS, AN ECONOMIC HISTORY OF WEST AFRICA (LONDON, 1973), p. 5

(٣) محمد سعيد القدال ، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية ، (دار النشر جامعة الخرطوم ، ١٩٨٦) ص ١٠١ .

(٤) صلاح مازري ، دراسات في مدن السودان (دراسة بالآلة الكاتبة ، ١٩٧٨) ص ٩ .

فانه ينطبق على المدينة الحديثة بشكل أدق ، حيث تتشعب العوامل وتزداد عمقاً ، مما يصعب معه تمييزها عن بعضها .. بل ان هذا التمييز والتناول الاحادي يعوق فهم الظاهرة نفسها ، ويقود الى استنتاجات مغرقة في الذاتية والى تشويه للصورة .. ان التناول العلمي الشمولي هو الوسيلة الى فهم الظاهرة والتعرف عليها .. فلا تؤخذ التفاصيل منفردة كل على حدة ، ولا يتم القفز الى العام دون فحص تلك التفاصيل ، بل تؤخذ كلها في وحدة جدلية تكشف كنه الظاهرة وتقف على حركتها ..

هذه خصائص عامة .. فما هي سمات المجتمع السوداني التي أدت الى نشأة وتطور المدن في القرن التاسع عشر منذ قام الاتراك ــ المصريون بغزو البلاد ؟ والى أي حد تشابكت وتزاملت الصفات العامة والسمات الخاصة في تفسير هذه الظاهرة ؟.. لا بد أن نشير هنا الى أن هناك مدناً شيدت من جديد في هذه الفترة مثل الخرطوم وكسلا ، وهناك مدن كانت قائمة ولكن تطور أمرها تطوراً كبيراً في هذه الفترة .. وسواء كانت مدناً حديثة أو قديمة ، فان العوامل التي أدت الى نشأتها وتطورها أثرت فيها تأثيراً متقارباً ..

أولاً : العامل السياسي

أدى الغزو التركي ــ المصري (١٨٢٠ ــ ١٨٢١) الى ظهور الكينونة السياسية للسودان الحديث . فقد تم عن طريق ذلك الغزو ضم مملكة الفونج والمشيخات التابعة لها ومملكة كردفان . ثم تبعها بعد ذلك اخضاع مناطق شرق السودان وساحل البحر الاحمر ، ثم مديريات الجنوب وأخيراً

مملكة دارفور. [1] وقد أدى هذا التكوين السياسي الجديد وشخوص الحكام الجدد شمالاً نحو مصر، صاحبة السيادة الجديدة، أدى هذا الى ضرورة البحث عن عاصمة جديدة تفي بالغرضين السابقين: عاصمة تستطيع أن تحكم التجمع الجديد الذي انجز بالغزو حكماً مركزياً، وأن تكون صلتها بمصر أكثر يسراً. ففقدت سنار اهميتها السابقة كعاصمة لمملكة الفونج. وبدأ الزحف شمالاً للبحث عن موقع جديد بين المدن التي كانت قائمة من قبل. فوقع الاختيار على وادمدني، ولكن سرعان ما نُبذت ليقع الاختيار على موقع الخرطوم.

ولكن ما الذي جعل الخرطوم بموقعها هذا تظل طوال تاريخ السودان قرية صغيرة خاملة الذكر، رغم ان الموقع كان معروفاً منذ عهد بعيد؟ فتاريخ الموقع معروف ويرجع الى ٤٠٠٠ سنة. فقد عُرِف في عهد دولة نبتة (٧٥٠ ــ ٣٠٠ ق.م) وفي عهد دولة مروي (٣٠٠ ق.م. ٣٥٠م)، وفي عهد الممالك المسيحية عندما انتقل الثقل الى سوبا (٤٥٠ ــ ١٥٠٤)، ثم انتقل الى سنار (١٥٠٤ ــ ١٨٢١) [2]. فطوال هذه الفترة كانت العواصم تنشأ من حولها دون أن تحفل بموقعها لتتخذه مقراً لها،

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحكم التركي ــ المصري راجع:

RICHARD HILL, EGYPT IN THE SUDAN; 1821 - 1881 (LONDON, 1959). pp. 35

AL BUSHRA, AN ATLAS OF KHARTOUM CONURBATION (KHARTOUM, 1976) pp. 31 - 32

محمد ابراهيم ابو سليم، تاريخ مدينة الخرطوم ص ٦ ــ ٨.

(٢) جاء السيد محمد عثمان الميرغني الكبير (الختم) الى السودان حوالي ١٨١٨ حيث زار سنار أولاً. فتاريخ نشأة قرية الختمية بعد ذلك، أي حوالي ١٨٢٠.

حيث نشأت سوبا والحلفاية وقرى[١] . ان الاجابة على هذا السؤال لا تكمن قطعاً في فطنة الاتراك ، وفي غفلة من سبقهم من الحكام . والذي فتح عين الحكام الجدد على هذا الموقع ، نابع من التطورات الجديدة التي حلت بالبلاد ، فهي التي جعلت اختيارهم يتصف بالفطنة . فاختاروا الخرطوم لأنها تقع عند ملتقى ثلاثة طرق نهرية ، وتقع وسط الممتلكات الجديدة مما يمكنها من التحكم فيها وادارتها . كما ان اتصالها بمصر غدا اكثر يسراً إما عن طريق النيل أو عبر الصحراء . فالعامل الجغرافي أصبح فاعلاً في ظل ظروف سياسية معينة ، ولم يكن كذلك في ظل ظروف سياسية مغايرة . فالعلاقة بين السياسة والجغرافية هي التي افردت للخرطوم اهميتها الجديدة .

وأدى هذا الوضع السياسي الجديد الى نشأة مدينة أخرى ، هي كسلا في شرق البلاد . فالمدينة لم تكن موجودة عندما جاء السيد الحسن إبن محمد عثمان الميرغني الى تلك المنطقة ، واختط قريته السنية التي عرفت فيما بعد بالختمية ، وهي مكان يقع عند سفح جبال التاكا عند نبع توتيل . وكان لنشأة وتطور كسلا اعتبارات ادارية . فقد رأى الحكام الجدد الحاجة لمركز اداري يشرف على ممتلكاتهم الجديدة في الشرق البعيد ، ويشرف ايضاً على الممتلكات التي قد تقع تحت يدهم مستقبلاً . والموقع الذي اختاروه يقع عند نهاية سهل البطانة وبداية الهضبة الحبشية ، وعلى ضفة نهر القاش الموسمي . فهو موقع اداري وعسكري . وغدت المدينة عاصمة لمديرية التاكا التي اتسع نطاقها بامتداد حدودها الشرقية الى مرتفعات كرن ، وحدودها الجنوبية الى امارة سواكن ، كما أصبحت

---

(١) محمد الأمين شريف : شيء من تاريخ مدينة كسلا (سلسلة من المقالات نشرتها وزارة الاعلام بكسلا في نشرتها الدورية) .

مركزاً يسيطر على القبائل في تلك المنطقة بالذات الحلانقة والهدندوة، وتتدخل في الصراعات التي كانت بينهما. فأدى قيامها لخلق جو من الاستقرار ساعد على انسياب الحركة التجارية واستغلال الموارد الطبيعية [١].

وأثرت التطورات السياسية الجديدة على المدن التي كانت قائمة من قبل. فقد قسم السودان الى سبع مديريات: فازغلي، سنار، الخرطوم، كسلا، بربر، دنقلا، كردفان. وأصبح قمندان الجنود في كل مديرية مديراً عليها [٢] وهكذا اختلط الطابع الاداري المركزي بالطابع العسكري. فغدت بعض المدن القديمة عواصم ادارية ومراكز عسكرية، مما أضاف الى ثقلها التاريخي ثقلاً جديداً وادى الى تطورها كثيرا. وأصبحت تلك المدن تتحكم في مساحات شاسعة تحكمها حكماً مركزياً، وترتبط بالسلطة المركزية في الخرطوم ارتباطاً وثيقاً، مثال ذلك الابيض وبربر وسنار والقضارف.

فنشأة وتطور المدينة الحديثة ارتبط بالسلطة المركزية والطابع العسكري. ولعل هذه الصفة قد اضفت عليها طابعاً «سلطويا». فهي مدينة نشأت تحف بها هالة السلطة وتبدو قسماتها بيِّنة عليها. وفوق ذلك فهي سلطة أجنبية فتعمقت غربتها عن المحيط القبلي الرعوي الذي نهضت فيه. ووسمتها الحاميات العسكرية بالجبروت مما اضفى على غربتها بعدا جديدا. فغدت تلك المدن مراكز حكم لا يصلها بمحيطها الا السلطة المركزية العسكرية، وليس لها من قنوات اتصال بالمجتمع الذي

---

(١) نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان (دار الثقافة بيروت ١٩٦٧) ص ٥٤٧.

(٢) المصدر السابق.

كانت تتصل أسبابه بالقبيلة والصوفية . فعندما شبت الثورة المهدية غدت تلك المدن جزرا معزولة في محيط معاد لها ، فأخذت تتهاوى الواحدة تلو الاخرى تحت الثورة وقوتها العسكرية المتعاظمة .

وكانت الثورة تمضي قدماً وهي تستولي على أهم المدن بعد معارك ضارية . وبحكم هذا الاستيلاء المسلح تحولت تلك المدن الى حاميات عسكرية . فأم درمان غدت قلعة عسكرية تضم مختلف التنظيمات العسكرية واخلاطا من الجنود : ملازمين ، جهادية ، وجنود نظاميين وغير نظاميين . وكانت الجنود تغدو اليها وتروح [١] . وتلك مدينة القلابات تتحول من قرية خاملة الذكر على الحدود الى معسكر يضم نحواً من ستين الف مقاتل [٢] . وأدت ظروف الحروبات المستمرة الى حركة دائبة كانت مدعاة لعدم الاستقرار . فما ان يستقر الجنود في معسكر حتى يستنهضهم الجهاد الى ميدان آخر . ولم يكن ذاك الترحال بالأمر الهين على مجتمع بدأت بعض مواقعه تخلع عن نفسها ثوب البداوة . ومن الجانب الآخر لم يكن ذلك التنقل بالأمر العسير على قوم ما زال مأكلهم وملبسهم ومسكنهم مشدوداً الى حياة الترحال التي يألفونها ولا ينفرون منها كثيراً .

والمهدي نفسه لم يكن يطيق المدينة بحكم نشأته الصوفية الزاهدة . فكان يقيم معسكره خارج المدن الكبيرة حيث يعرف باسم « بقعة المهدي » . أو لعله أدرك ان المدينة تمثل بالنسبة للناس وجها للحكم

---

(١) فدوى عبد الرحمن على طه : أم درمان في فترة المهدية ، ١٨٨٥ ــ ١٨٩٨ (بحث لنيل درجة الشرف قسم التاريخ . جامعة الخرطوم) .

(٢) محمد سعيد القدال . المهدية والحبشة : ١٨٨١ ــ ١٨٩٨ (دار النشر جامعة الخرطوم ، ١٩٧٣) ص ، ١١٩ .

التركي ـــ المصري الذي كرهوه. لهذا كان أثر النظام المهدوي على تطور المدينة سلبياً في بعض جوانبه [١] .

ثانياً : العامل الاقتصادي

كان هدف الحكم التركي ـــ المصري استغلال موارد البلاد الطبيعية والبشرية الرخيصة [٢] . وكان يهدف الى تحقيق تلك السياسة عن طريق تطوير القطاع التجاري ليؤثر بدوره على بقية القطاعات الأخرى، للحصول على أقصى ربح بأقل تكلفة [٣] . فالاستثمار في مجال التجارة لا يحتاج الى درجة عالية من التطور التقني والمعرفي. ان تطور القطاع التجاري يعتمد على تطوير السوق الداخلي والتجارة الخارجية. فالتوسع في زراعة المحاصيل النقدية بغرض تصديرها للخارج، يدفع الأسواق الموسمية لتتحول تدريجيا الى نقاط لتجميع تلك المحصولات. ولكن احتكار الدولة للتجارة الخارجية منذ عهد محمد علي، قاد الى مركزية [٤] التجارة

---

(١) القدال، السياسة الاقتصادية، ص ١٠٥.

(٢) حسن احمد ابراهيم، محمد علي في السودان: دراسة لأهداف الفتح التركي المصري (دار النشر جامعة الخرطوم ب ت).

(٣) IBRAHIM KERSANY MOHAMED, THE EFFECTS OF CAPITALISM UPON THE PAST AND FUTURE DEVELOPMENT OF PRECAPITALIST AGRICULTURE ON THE SUDAN (PH. D, LEEDS UNIVERSITY, 1981) pp. 49

(٤) هناك عدد من الرسائل الجامعية عن النشاط الاقتصادي في فترة الحكم التركي ـــ المصري. نذكر منها:

محمد الامين سعيد: سياسة محمد علي في السودان

محمد ألامين سعيد: عهدا عباس ومحمد سعيد في السودان

بشير كوكو حميده: ملاح من تاريخ السودان في عهد الخديوي اسماعيل

عوض عبد الهادي العطا: معالم تاريخ الحكم التركي ـــ المصري في اقليم التاكة، مصوع وسواكن. وهذه الرسالة موجودة بمكتبة السودان بجامعة الخرطوم.

الخارجية مما حتم تجميع المحاصيل فيها وتوجه الطرق التجارية نحو مركز السلطة .

فتقلص النشاط التجاري في الطرق التجارية التقليدية مثل « درب الاربعين » . كما ان ارتباط التجارة الخارجية الوثيق بمصر دفع بالتجارة شمالاً صوب مصر . هذا العامل الاقتصادي المتمثل في مركزية التجارة في الداخل وفي نشاط الطرق التجارية المتجهة الى مصر ، لعب دوراً فعالاً في نشأة وتطور المدينة السودانية في القرن التاسع عشر .

فالخرطوم التي نشأة كعاصمة ادارية انتعشت أيضاً كمركز تجاري . فمنذ عام ١٨٣٤ تحدث الرحالة ارسلان بك عن أهمية موقع الخرطوم التجاري وارتباطه بطرق القوافل التي تتجه منها الى الشرق والغرب والشمال والجنوب . ثم اقترح انشاء مدينة تجارية بها ، ووضع لها الخرائط اللازمة [١] . وهكذا غدت التجارة في هذه الحاضرة مهمة جداً حتى انها أصبحت وحدها تعادل جميع تجارة الاقاليم السودانية ، وكانت مقاديرها « اجلّ من ان تحصر » . واصبحت للخرطوم اهمية عظيمة تقوم منها القوافل والسفن الشراعية حاملة صنوف التجارة الى جميع مدن السودان . وقد سهل النيل الازرق والنيل الابيض التوغل عميقاً في داخل القارة الافريقية ، مما جعل موقع الخرطوم عند ملتقاهما مركزاً لتجميع وتوزيع البضائع شمالاً وجنوباً . وكان لوقوعها على رأس مثلث الجزيرة والتي هي أكثر المناطق انتاجية في البلاد ، ان دفع بمكانتها التجارية كثيراً [٢] .

---

(١) أبو سليم ، الخرطوم ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ — ٥١ .

لقد تحولت الخرطوم الى مركز للتجارة الخارجية ، والى مركز لتوزيع البضائع على الاسواق المحلية ، فغدت سوقا نشطا يذخر بالبضائع من الانسجة المصرية وريش النعام والصمغ وسن الفيل . « وبلغ ما تتجر فيه من السن نحو ٤٠ ألف قنطار . اما الصمغ والريش . فان ما يوزع منهما كل يوم تبلغ اجرته نحو الف جنيه فأكثر ما عدا موزونات سن الفيل » هذا بجانب البضائع الاستهلاكية المستوردة . كما كان بها سوق نشط للخضروات والفواكه التي تجلب من المزارع التي نشأت حولها . وقد أبدى الرحالة الذي زاروها اعجابهم من تنوع وجودة البضائع في حوانيتها [١] .

وشهدت كسلا في العقدين الاولين من نشأتها نمواً تجارياً مضطرداً ، اذ « اقيمت بها سوق مزدهر للتجارة » . ووفدت اليها مجموعات من القبائل المجاورة من الحلنقة وغيرهم « للخدمة في أعمال الدولة أو في التجارة أو الزراعة » [٢] وبعد ضم مصوع الى السودان أصبحت كسلا تقع في وسط الطريق التجاري بين مصوع والقضارف وموانىء البحر الاحمر الأخرى وتمر بها قوافل منظمة . وبعد زراعة القطن في دلتا القاش وتشييد المحالج ، زاد نشاط السوق في كسلا وأصبح قوة جاذبة لمختلف المجموعات ذات القوة الشرائية العالية [٣] .

أما المدن التجارية التي كانت قائمة من قبل مثل الابيض والمسلمية والقضارف وبربر وشندي وسواكن ، فقد وجدت في النشاط التجاري دفعة جديدة ، تأثرت بها كل مدينة بشكل يختلف عن الأخرى . فالابيض

---

(١) سيد بشرى ، ص ٣٢ .

(٢) محمد الامين شريف ، المقال ٣ ص ١ .

(٣) Hill, Egypt, p 11.

تأثرت بعاملين هامين هما: تنظيم تجارة الصمغ وتصديره إلى الخارج، وضم المديريات الجنوبية، مما جعلها في خط القوافل القادمة من بحر الغزال [١] وقد افاض يوسف ميخائيل في مذكراته في وصف نشاطها التجاري. ونشطت الحركة التجارية في المسلمية، وغدا أغلب سكانها من التجار، وتحولت الى مركز تجاري تفد اليه البضائع من أثيوبيا ومصر والجزيرة العربية عبر سواكن ومصوع، كما اصبحت ايضاً مركزاً للتجارة القادمة من دارفور وجبال النوبة [٢]. وكان لوقوع بربر في خط بربر — سواكن وفي طريق القوافل المتجهة شمالاً عبر الصحراء الى كرسكو أثره الكبير في تطور المدينة الى مركز صاخب بالحركة التجارية. ولم تعد القضارف مركزاً للمحصولات النقدية فحسب، بل صاحب ذلك قيام مصانع الصابون والسجاير. وقد تجلىّ النشاط الكبير الذي شهدته مدينة سواكن — باعتبارها ميناء البلاد الوحيد — في نمو الجالية التجارية الأجنبية بها، وفي اعداد التجار المحليين الذين كانوا يمارسون نشاطهم فيها.

عند قيام الدولة المهدية تأثرت التجارة الداخلية والخارجية من جراء حرب التحرير والحروبات الخارجية، ومن جراء الحصار الاقتصادي الذي فُرض على الدولة المهدية، ومن جراء سياسات الخليفة التجارية نحو الدول المجاورة. ولكن رغم هذه السلبيات فان السوق الداخلي حافظ على جوانب من نشاطه، ولم يتأثر بنفس القدر الذي عانت منه التجارة

(١) وتحدث تاج الانبياء في مقالة عن الابيض عن أهمية موقعها والعوامل التي ساعدت على تطورها في القرن التاسع عشر. راجع: تاج الانبياء علي الضوى «مدينة الابيض ماضيها وحاضرها» مجلة الدراسات السودانية (مجلد ٤، العدد الاول، ١٩٧١) ص ٥٠ — ٥٢.

(٢) R. HILL (ED) ON THE FRONTIERS OF ISLAM (OXFORD, 1970) p. 29

الخارجية. وكان لاحتكار الدولة لتجارة الصمغ وسن الفيل ولتدخلها في تجارة الحبوب، ان تحولت أم درمان من «بقعة المهدي» التي أسسها عاصمة لدولته الجديدة، الى عاصمة تجارية، بل العاصمة التجارية الوحيدة، حتى كان النشاط التجاري يفيض عن طاقتها. على أن المركزية المفرطة، والقتالية التي كانت سمة الدولة المهدية، قد حولت المراكز التجارية الى مراكز عسكرية ــ ادارية، وحافظت بعضها على جوانب من نشاطها التجاري تتأرجح بين الحرب وحالات الهدوء النسبي [1].

ثالثاً: الطابع المعماري والسكاني للمدينة:

ترك العامل السياسي بصماته بينة على طابع المدينة المعماري وعلى تركيبها السكاني. فمنازل الحكام ومباني أجهزة الدولة في العهد التركي ــ المصري احتلت مكاناً مرموقاً وممتازاً. فحكام السودان الجدد شيدوا مبانيهم من الحجر، واختاروا لها مكاناً على شاطىء النيل، واهملوا سكن الاهالي [2]. وارتبط تطور مدينة كسلا بقيام الثكنات والمؤسسات العسكرية. وشيدت هذه المباني بالآجُر والحجر، بينما منازل الأهالي من القش واللبن والجالوص [3]. وفي الابيض أصبح «كشك» المديرية والبوابة التي تقف جنوب المدينة رمزاً للسلطة والقوة والجاه. وقد حرص معظم حكام كردفان على اقامة مساكنهم بالقرب منها، بداية بالاتراك حتى عهد الحكومات الوطنية [4]. وهكذا برز في المدينة عالمان: عالم

(١) القدال، السياسة الاقتصادية الفصل الثالث والرابع عن السياسة التجارية الداخلية والخارجية.
(٢) مازري، دراسات، ص ٩.
(٣) محمد الامين شريف، مقالات. (٤) تاج الانبياء، ص ٥٥.

الاتراك الاجانب بمبانيهم الفارهة، والحي الشعبي الذي تقطنه مختلف قبائل البلاد، وبينها خط فاصل خلق شعوراً بالانفصام والغربة والارتباط بالأجانب، ويؤكد تاج الانبياء على هذا الامر بالنسبة للأبيض [١].

وفي عهد الدولة المهدية تأثر العمار بعدة عوامل: أولها الاهتمام بالمباني التي تمثل النفوذ والسلطة. وقد تجلى هذا في مدينة أم درمان — مدينة المهدية الاولى. فكان بناء قبة المهدي أبرز تلك المعالم، وشيد بها منزل الخليفة عبد الله، ومنازل الحكام و« الملازمين » ومباني بيت المال. كلها شيدت تشييداً متيناً واختيرت لها مواقع ممتازة بالقرب من النيل [٢]. وثاني تلك العوامل تيار الزهد الذي بشر به المهدي ودعا فيه الى نبذ مظاهر الحياة المادية والأخذ بالبساطة في المأكل والمسكن والملبس. وتطابق هذا التيار مع طابع الحياة البدوية والرعوية، فارتد الناس الى المساكن البسيطة التي سرعان ما يزيلونها لينتقلوا لمكان آخر. وثالثها الحروبات المستمرة التي جعلت قطاعات من السكان في حالة تنقل مستمر. واخيراً ضعف الخبرة الفنية في البناء [٣]. هذه العوامل الثلاثة الأخيرة طبعت العمار المهدوي بالمحلية وعدم الاستقرار. فكانت السفن النيلية محملة غالبا بمواد البناء التي تناسب هذا الطابع. فأغلب المنازل في المدن كانت منازل زهاد ورعاة، وجنود متنقلين.

أما التركيب السكاني للمدينة فيمثل خليطا من الأجناس والقبائل، جذبهم النشاط التجاري والتقرب من الحكام. فوفدت الى تلك المدن

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣ — ٥٤.

(٢) فدوى عبد الرحمن

(٣) القدال، السياسة الاقتصادية، ص ١٣٩.

بشكل منظم مجموعات من قبائل الشمال ، تركوا قراهم تحت وطأة شتى الضغوط ، كما جذبهم بريق المدينة الحديثة ولعل تلك الهجرة كانت امتداداً للهجرات التي بدأها الجلابة مبكراً ، ووجدت في ظروف القرن التاسع عشر ما جعل منها حركة منسابة ومكثفة [١] فأصبحت المدن تأهل بالدناقلة والشايقية والجعليين والرباطات وخلافهم [٢] حيث بدأوا ينصهرون في بوتقة السلطة المركزية والنشاط التجاري انصهارا لا يخلو من معاناة ، بل لعل الانصهار ولد من المعاناة والضيق . وفي مدينة الخرطوم تجمعت تلك القبائل في حي سلامة الباشا الشعبي . وكانت مجموعاتهم تغدو وتروح مع القوافل والسفن التجارية التي تضرب في الجنوب ، او تنتشر في أواسط السودان [٣] . وكانوا يعملون في تجارة المحاصيل والمنتجات السودانية ، او يُحَوِّمُون حول البيوتات التجارية الأجنبية ، يتعلمون منها او يزدادون تبرماً بها ، وهكذا كان شأن الابيض والقضارف وبربر وغيرها .

ولم يكن ذاك الخليط السكاني من القبائل المحلية فحسب ، بل من جمهرة من الأجانب ايضاً . فالحكم التركي ـــ المصري فتح الباب للتجار المصريين والعرب ليلجوا أرض السودان . كما أدت الضغوط الأجنبية الى فتح الباب أيضاً للتجار الاوربيين الذين اقاموا القنصليات والشركات ، وانتشروا حتى المديرية الاستوائية [٤] ثم اخذوا يتوافدون بعد ذلك في

---

(١) فتح الرحمن الامين احمد ، حركة الجلابة واثرها على الحياة السودانية في القرن التاسع عشر ـــ بحث لنيل درجة الشرف . قسم التاريخ ، جامعة الخرطوم ، ١٩٨٢ .

(٢) ابو سليم ، الخرطوم ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٤) HILL, EGYPT, p. 97.

ثياب الحكام والرهبان والعلماء والمكتشفين . وكانت كثافة اولئك الاجانب تختلف من مدينة لأخرى . فهي عالية في الخرطوم ، وأقل منها في الأ بيض ، ثم تقل تدريجياً حتى يصبحوا جماعات متفرقة في المدن المنتشرة هنا وهناك ، أو حاكماً قائماً في دارا أو بحر الغزال [1] وقد يطلق اسم احد اولئك الأجانب على مدينة أو على حي . فتذهب إحدى الروايات الى ان اسم القضارف من « قضدروف ود سعد » بنسب الى احد الاجانب من القبط .

لقد انتهى العهد الذي تمركز فيه الجعليون في شندي ، والشايقية في مروي ، والمناصير في أبي حمد ، والحلنقة يتحلقون حول موقهم في كسلا . فكان في حركة تلك المجموعات بداية لانهاء عزلة القبائل عن بعضها البعض ، وعزلتها عن العالم الخارجي . ولعل تلك الحركة قد دشنت انصهار تلك المجموعات ، ولعله كان تدشينا متواضعاً في بادىء الامر .

وقد وجدت عملية الانصهار تلك دفعة في فترة المهدية . ففكرة المهدي المنتظر كانت التعبير الايديولوجي للنزوع نحو الانصهار والتوحد وتحت مظلتها الوارفة تجد القبلية والطائفية والاقليمية مكانا لها . وفكرة المهدي المنتظر الفضفاضة هي افراز لقدرات الواقع المادي المحدودة ، مما جعل اداءها مأساويا أحياناً ، ومحكوماً بقدرات العصر الذي برزت فيه في أحيان

---

(١) شهد السودان منذ عهد الخديوي اسماعيل اعدادا متزايدة من الاوربيين احتلوا مراكز ادارية مركزية واقليمية وأعداداً من المبشرين . ويعتبر البروفسر هولت قدومهم ظاهرة من ظواهر التحديث التي شهدها المجتمع السوداني . ولعل هذا اضعف الجوانب . ويبدو انهم كانوا طلائع الاستعمار الاوربي الذي اشتدت حركته في الربع الاخير من القرن الماضي ، راجع :

P.M. HOLT, STUDIES IN THE HISTORY OF THE NEAR (LONDON, 1973). pp. 140 - 143.

أخرى. وهذا ما قعد بها عن تخطي الحاجز التاريخي. فأسهمت تلك الفكرة في عملية الانصهار، ولكنه انصهار تحده طبيعة الفكرة نفسها. ولعل ظروف الحروبات واجراءات العنف التي صاحبتها، جعلت ذلك الانصهار يتصف بالفوضى أحياناً، ولا يتغلغل عميقاً في المجتمع [١].

وكانت عملية التهجير [٢] التي ادت الى نقل بعض المجموعات القبلية من مكانها بغرب السودان الى المدن الكبرى في اواسطه، احدى الوسائل التي ساعدت على عملية الانصهار، رغم ما حفها من أساليب تعسفية، ورغم الاعتبارات السياسية التي املتها. وقد ساهم التهجير في خلخلة النظام القبلي، وفي غرس بذرة الأمة، وكان ذلك ينسجم مع التوجه العام للمجتمع لبلورة التشكيلة التجارية [٣]. وكان الاختلاط يتم عن طريق أساليب أخرى. فهناك جيوش المهدية التي كانت تتكون من خليط من القبائل، وترابط في المدن الكبرى وحدود الدولة. وهناك الاستدعاءات المستمرة التي يوجهها الخليفة للقبائل للحضور الى

---

(١) ناقشنا فكرة المهدي المنتظر وعلاقتها بالواقع الاجتماعي وكيف كانت تعبيراً له في دراستين:
القدال، السياسة الاقتصادية، ص ٤٢ وما بعدها
محمد سعيد للقدال «الرؤايا الثورية في فكر المهدي» (شعبة التاريخ، جامعة الخرطوم، المجلد الاول، ١٩٨٣) ٧٤ — ٨٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل عن التهجير راجع:
ــ موسى المبارك الحسن، تاريخ دارفور السياسي (دار النشر جامعة الخرطوم، بدون تاريخ) ص ٦٩ــ٧٣
ــ عوض عبد الهادي العطا، تاريخ كردفان السياسي (ص ١٢١ــ١٣٠)
ــ القدال، السياسة الاقتصادية، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، المقدمة.

أم درمان. فالمدينة السودانية في فترة الحكم المهدوي شهدت نوعا من الاختلاط (القسرى) [1].

فالخريطة السكانية للمدينة في القرن التاسع عشر كانت تمثل خليطا من القبائل ومجموعات من الاجانب. ولم يكن موقع المدينة يؤثر على ذلك الخليط السكاني. ولذلك كانت المدينة تقف فوق التكوينات القبلية والاقليمية والطائفية. ولعل هذا أول مؤهلاتها لقيادة المجتمع مستقبلا. وما ان تفد تلك المجموعات الى المدينة حتى تبدأ عملية الفرز الاجتماعي. فتبرز المجموعات الغنية التي تتحكم في النشاط الاقتصادي، وتبرز معها المجموعات الوسيطة التي تساعدها في تراكم رأس مالها التجاري. ففي مدينة الابيض مثلا يقول تاج الانبياء ان الشقة اتسعت بين الاغنياء والفقراء وظهرت طبقة غنية معظمها من التجار القادمين من النيل ومن الاجانب [2] واسهب يوسف مخائيل في وصف هذه في مذكراته، ورأى فيها سببا لما أصاب الناس من عسف [3]. على ان الروابط القبلية كانت تحد من عنف الفوارق الاجتماعية، في مجتمع لم تتبلور فيه تلك الفوارق تبلوراً قاطعاً، فهو مجتمع في مرحلة انتقال. وكان التجار الاجانب يقفون على قمة الهرم الاجتماعي ويتحكمون في ثرواته. فالصراع في المدينة كان صراعا متشعب الجوانب.

---

(١) وحول سياسة الخليفة الداخلية والقبلية راجع:
القدال، المهدية والحبشة، والرسائل الجامعية التي تناولت تاريخ المهدية والمفصلة في: السياسة الاقتصادية للقدال.

(٢) تاج الانبياء، ص ٥٣ — ٥٤.

(٣) مذكرات يوسف ميخائيل، تحقيق صالح محمد نور (رسالة دكتوراة، جامعة لندن، ١٩٦٢) ص ٢٣ — ٢٧.

خاتمة :

ظهرت المدينة السودانية في القرن التاسع عشر وهي تحمل في احشائها كل تناقضات المجتمع السوداني، وتبدو بصماته جلية على جبينها. فالحكم الأجنبي المركزي الذي جاء لينهب خيرات البلاد بأيسر السبل ـ النشاط التجاري ـ مهد لها الظهور والتطور. فهي مدينة تحمل طابع الاغتراب الأجنبي السلطوي والنشاط التجاري. ولم تمض الدولة المهدية دون أن تترك بدورها آثارها عليها. ومن هذين الاثرين تشكلت خريطتها السكانية والمعمارية، فكانت بذلك الأساس الذي تطورت منه المدينة في ظل الاستعمار البريطاني (١٨٩٨ ــ ١٩٥٦)، فهي مركز الحكم والسلطة ولكنها ايضا مدينة القيادة السياسية والعمل الوطني والتفتح المبكر للوعي الاجتماعي.

أفكار حول تاريخ
الحركة الوطنية السودانية
١٩٠٠ ـ ١٩٣٧*

(*) أعدت هذه الورقة للمؤتمر الذي نظمه اتحاد الوطنين العرب في بغداد (١٩٨٧) حول اعادة كتابة تاريخ الأمة العربية.

تقديم :

تحتاج دراسة الحركة الوطنية الى تقييم جديد، ذلك ان كل جيل يعيد النظر في ماضيه وفق همومه التي يعانيها، والتحديات التي تواجهه، ودرجة الوعي الاجتماعي التي وصل اليها. فاعادة التقييم نابعة من احتياجات الحاضر. فالماضي لا يتغير، بل الذي يتغير هو الحاضر. ومن هذا التغيير المتجدد في تركيب الحاضر تبرز الحاجة الى تقييم الماضي. ومما يساعد على شحذ التقييم الجديد توفر أدوات جديدة للبحث، في مقدمتها تطور وسائل العلم وتطور قدرات الانسان في البحث والتقصي.

ومما يضاعف من أهمية دراسة تاريخ الحركة الوطنية انها تشكل الماضي القريب المتصل بحاضر مجتمعنا، وتشكل احدى قوى الدفع التي تحرك وتكيف حاضر هذا المجتمع، وتلقي بظلالها على مستقبله. على ان هذا الماضي القريب يشكل عقبة أمام الدراسة العلمية الموضوعية، نسبة لتداخل جوانب من الماضي القريب مع خيوط الحاضر، يمتزج فيه الذاتي بالموضوعي تمازجا لا يخلو من خلل.

وعندما نتناول تاريخ الحركة الوطنية السودانية، تواجهنا العديد من الدراسات، والتي تدفق فيضها في السنوات الاخيرة، في سعي القوى السياسية السودانية لتحديد دورها في تلك الحركة، وهو تحديد لا يخلو من مبالغة واضفاء صفات على مواقف تلك القوى في الماضي لا تطابق الواقع. ولكن التاريخ لا يكتب بالرغبات الذاتية، ولكن بصرامة العلم التي لا تعرف تبريراً ومزايدة. ومن أهم تلك الدراسات مجموعة المذكرات والسير الذاتية التي نشرها بعض الرجال الذين شاركوا في الحركة الوطنية

بدرجات متفاوتة [1] على ان تلك السير الذاتية، رغم اهميتها كمادة لدراسة تاريخ الحركة الوطنية، تحتاج الى تمحيص وتحقيق ليستقيم أمرها وتصبح مادة صالحة للبحث العلمي.

ولا بد من وقفة قصيرة لدى منهج هذا البحث. يقوم منهج هذا البحث على ثلاثة مرتكزات: أولها: ـــ دراسة الظاهرة التاريخية في شمولها، على نقيض المنهج الذي يستل الظاهرة التاريخية من محيطها العام الذي نشأت فيه. مثل هذا التناول الاحادي يقف حائلاً دون فهم الظروف التي أدت الى بروز تلك الظاهرة التاريخية، فيقف المؤرخ عاجزا عن سبر أغوارها وادراك دلالاتها وحركتها فلا يستطيع تفسيرها. وثاني المرتكزات الغوص عميقاً الى القاع المادية الصلدة التي انبجست منها الظاهرة التاريخية، بدلاً من التعامل الفوقي مع تجلياتها السياسية والايديولوجية. وثالثها، وضع الاعتبار الكافي للجانب الذاتي. فالاساس الموضوعي للظاهرة التاريخية لا يدرس بمعزل عن الظرف الذاتي، الذي له دوره المؤثر في نشأة وتطور الظاهرة التاريخية. ولكن العنصر الذاتي لا يتم تناوله مثالياً بمعزل عن العنصر الموضوعي، ولا يؤخذ الموضوعي ميكانيكيا بمعزل عن الذاتي. انما يؤخذان معا في جدلية هي التي تحكم مسار الحركة التاريخية [2].

تتناول هذه الدراسة المراحل التي مرت بها الحركة الوطنية السودانية وأشكال الصراع التي أفرزتها كل مرحلة والتنظيمات السياسية التي صاحبتها. وتنتهي الدراسة عند بروز مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٧.

---

(١) راجع الدراسة المنشورة في هذا الكتاب حول كتب السيرة هذه

(٢) للمزيد من الدراسة حول هذا المنهج راجع:

حسين مروة، النزعاب المادية في الفلسفة العربية الاسلامية (بيروت ١٩٧٩) ص ٢٥ وما بعدها.

البدايات الاولى :

خرج أهل السودان من هزيمة الدولة المهدية تتجاذبهم شتى الانفعالات . فكانت النهاية تعني للبعض نهاية الحلم ، وللبعض الآخر نهاية التسلط . وفجر انهيار الدولة المهدية النزعات القبلية والاقليمية . وفي ذاك المناخ الذي تخيم عليه الهزيمة وتتجاذبه المنازعات ، بدأ الاستعمار البريطاني يؤسس حكمه الجديد ، مستعينا ببعض الفئات الاجتماعية التي جذبها الى دائرته بشتى الوسائل والطرق لتصبح قاعدة لدعم حكمه [١] .

شهدت الفترة بين ١٩٠٠ ــ ١٩١٨ عدداً من حركات المقاومة التي كانت تعبر عن رفض الحكم الجديد ، وتبحث لها عن هوية خارج الاطر والظروف التي سادت في القرن التاسع عشر . ولكن الظروف الموضوعية للمجتمع السوداني حصرتها وحكمت خطاها . وأهمها الحركات الدينية التي ادعى قادتها نسبتهم الى المهدي ونبي الله عيسى [٢] . وهي توضح ان روح المهدية لم تنطفىء تماماً رغم الهزيمة . كما توضح مكانة الدين في نفوس أهل البلاد . وقد عبر لورد ملنر عن تخوف الانجليز من الحركات ذات الطابع الديني ، حيث كتب في تقريره يقول ان امكانيات التطرف الديني كامنة في عمق بسيط تحت السطح . وهناك حركات معارضة اقليمية وقبلية وعسكرية . واتصفت كلها بالضعف مما أدى الى القضاء عليها سريعا ، ولكنها حافظت على جذوة المقاومة مشتعلة ، وحافظت على

---

(١) محمد المكي ابراهيم ، الفكر السوداني : اصوله وتطوره (الخرطوم ١٩٧٦) ، ص ٢٣ ــ ٢٨ .

(٢) MOHAMED OMER BESHIR, REVOLUTION AND NATIONALISM IN THE SUDAN (LONDON 1974) p. 47.

استمراريتها، فلولاها لانقطع حبل الوصل. وعكست تلك الحركات الشعور المعادي للاستعمار لدى الشعب. ولكن مشكلتها عدم وجود مؤسسات تستطيع جمع الشمل وتدفع قوى الشعب للنضال الحازم [١].

وقد كتب أحد مثقفي البرجوازية عن تلك الحركات الدينية بأن قيادتها ضاربة في غياهب الجهل تائهة في سراديب التعصب وانفردت بتعكير صفوة الامن بين الفينة والاخرى، تحت اسم الثورة الدينية، تزهق الارواح قبل أن يلقى قادتها حتفهم في حومة الوغى أو على خشبة المشانق دون كبير عطف أو اهتمام من الرأي العام [٢]. ورغم ان هذا التقييم يعكس الاتجاه العلماني الذي اتصفت به الحركة الوطنية منذ نشأتها، الا أنه مجحف لأنه لم يأخذ في الاعتبار الظروف التي صاحبت نشأة تلك الحركات. كما تجاهل دور التضحية في العمل الوطني. فالعمل الوطني قد لا يكون له عائد مباشر مثل التجارة الرابحة.

الحركة الوطنية بين ١٩١٨ ــ ١٩٢٤:

بدأت الامبريالية في بناء قاعدة اقتصادية في السودان من أجل استغلاله بفعالية. فحطمت الأنظمة الاقتصادية المحلية من أجل تهيئة المناخ لاستقبال رأس المال المالي. فأخذ الاستعمار في تشييد البنيات الأساسية التي يحتاجها رأس المال. فأدخل المواصلات الحديثة، بالذات السكة الحديد التي امتدت شبكتها لتربط مناطق الانتاج بميناء التصدير

---

(١) عبد الخالق محجوب، لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوداني: (الطبعة الثانية، الخرطوم ١٩٨٧) ص ١٥.

(٢) احمد خير، كفاح جيل (الطبعة الثانية، ١٩٧٠) ص ١٨.

الرئيسية التي شيدت حديثاً (١٩٠٧)[١] . وبدأ الاستعمار في اجراء التجارب الزراعية لانتاج المحاصيل النقدية بتركيز خاص على القطن . وشرع في تحويل ملكية الارض الى ملكية فردية أو وضعها في يد الدولة[٢] . ووضع التجارة الخارجية في يد الشركات الأجنبية وربطها بالسوق الرأسمالية الحديثة فشرع في بناء هياكلها ومؤسساتها . ووضعت الأسس للنظام التعليمي الاستعماري[٣] .

وقد استطاعت الامبريالية تحقيق اهدافها بعد مرور عقدين من الزمان . فأصبح اقتصاد السلعة هو الذي يسود في السوق تحرسه قوة الدولة الحديثة . وجاءت الحرب العالمية الاولى لتعطي الاقتصاد السوداني دفعة ، فحقق قفزة في الاقاليم الشمالية . كما ان العرض البريطاني المغري بافساح المجال للحصول على قسط من الانعاش المادي المتأتي عن محصول القطن ، دفع بالارستقراطية الاقطاعية السودانية وشيوخ العشائر والزعامات الطائفية الى كسب ود السلطات البريطانية ، والعمل على الارتباط الوثيق بها[٤] .

ان السياسة الاستعمارية الرأسمالية القائمة على النهب وعلى امتصاص الطبقات الاجتماعية المنتجة ، اضعفت الحركة الوطنية ، على ان

---

(١) بشير محمد سعيد ، السودان من الحكم الثنائي الى ثورة رجب . الجزء الاول ، الحلقة الثالثة (الخرطوم ١٩٨٦) .

(٢) هناك العديد من الدراسات حول سياسة الاستعمار وملكية الأرض لعل أهمها رسالة الدكتورة ميمونة ميرغني حمزة لدرجة الدكتوراة بجامعة الخرطوم .

(٣) M.W. DALY, EMPIRE ON THE NILE ANGLO - EGYPTIAN SUDAN 1898 - 1934 (C.U.P. 1986)

(٤) لوثر راثمان وآخرين . تاريخ العرب منذ القدم وحتى الوقت الراهن . ترجمة حسن أحمد السلامي وآخرين (مدريد ١٩٨٥) ص ٨٣ .

نفس السياسة الاستعمارية أدت الى دفع السوق الداخلي كاطار للنشاط الاقتصادي، مما ساعد في توسع القاعدة المادية وبروز الشعور القومي. وهذا هو مأزق الاستعمار ومن بين هذا التناقض نفذت الحركة الوطنية السودانية.

على ان تلك العوامل لم تكن تعمل بمعزل عن مؤثرات أخرى داخلية وخارجية. فهناك الصراع بين بريطانيا ومصر وهما طرفا الحكم الثنائي الذي حكم السودان بموجب اتفاقية ١٨٩٩. على ان مصر كانت شريكا اسمياً في الحكم، وهي نفسها كانت خاضعة للسيطرة البريطانية. ولكن بين مصر والسودان توجد رابطة اللغة والدين والتاريخ. وتلك قنوات اتصال افتقدها البريطانيون. ومن هذا التناقض الآخر بين طرفي الحكم الثنائي نفذت الحركة الوطنية أيضاً. على أن ضعف الحركة الوطنية في تلك المرحلة من نشأتها أدى الى أن يتحول الموقف التكتيكي من مصر، الى استراتيجية ترفع شعار وحدة وادي النيل تحت التاج المصري.

وهناك عوامل خارجية كان لها دورها المؤثر في مسار الحركة الوطنية السودانية. ولعل أهمها الحركة الوطنية المصرية المناهضة للاستعمار، بل الفكر البرجوازي المصري الذي كان يطرح رؤياه الجديدة في مختلف القضايا الايديولوجية. فكانت أحداث الصراعات السياسية، وجلبة الفكر الجديد تجد كلها اصداء لها في السودان. فكان مصطفى كامل وثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ودستور ١٩٢٣ وطه حسين والعقاد وشوقي الخ.. اسماء وأحداث يتناقلها مثقفو البرجوازية السودانية وكأنها تعيش بين ظهرانيهم [١].

---

(١) حسن نجيلة. ملامح من المجتمع السوداني، الجزء الاول (الخرطوم ١٩٥٩) ص ٩٧ وص ٢٣٥.

شهدت البلاد العربية ثورات معادية للاستعمار كانت ايضا تجد لها صدى في السودان. فما حدث في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والحجاز، كان يلم به أهل السودان بدرجات متفاوتة. ولم تمض حركة مصطفى كمال وحركة التتريك دون أثر. واشرأب المثقفون الى نضال حزب المؤتمر في الهند، وكم فتنوا بشخصية غاندي، حتى حفظوا قصيدة شوقي فيه عن ظهر قلب. وكان تسمية مؤتمر الخريجين الذي ظهر فيما بعد تيمنا بحزب المؤتمر الهندي [١].

وكان للحرب العالمية الاولى اثرها. فقد خلفتها حركات ثورية في بلدان اوربا والشرق العربي مما كان له أثره على السودان. كما انها اضعفت الاستعمار البريطاني بشكل عام. فقد تم تغير الحكام العسكريين من البريطانيين في السودان اذ غادروا البلاد للاشتراك في الحرب، وحل محلهم حكام من المدنيين مما خفف من الضغط الاستعماري المباشر. وظهرت ابان الحرب نقاط الرئيس ولسون التي بشرت بحق تقرير المصير للمستعمرات، واصبحت من بنود مؤتمرات الصلح التي اعقبت انتهاء الحرب. واندلعت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وتطاير شرر منها الى بقاع المعمورة النائية، ومنها السودان.

أثرت تلك العوامل في المجتمع السوداني بدرجات متفاوتة، وكان من نتائجها بروز فئة اجتماعية متحالفة مع الاستعمار وأخرى مناوئة له. أما الفئة الاولى فتكونت من الزعماء الطائفيين ورجال العشائر وبعض كبار موظفي الدولة. وكانت تعمل هذه الفئة لتمتين علاقتها مع الاستعمار بعد ان اتسعت القاعدة المشتركة بينهما من المصالح الرأسمالية. فنجد جريدة

---

(١) لوثر راثمان، المرجع السابق، الفصول الثالث والرابع والخامس.

الحضارة الناطقة باسم السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي، تطالب باخراج المصريين من السودان وبقاء الانجليز سادة ومعلمين للشعب، حتى يقوم ساعده ويتمكن من حكم نفسه. واجتمع اولئك الزعماء مع بعض زعماء القبائل والعلماء الدينيين وامضوا (سفر الولاء) تأييدا لبريطانيا التي لم ير منها أهل السودان الا كل خير [1]. وهذا ما دفع أحد الشباب لهجاء رجال الدين قائلاً:

الا يا هند قولي واخبريني
رجال الشرع صاروا كالمعيز
الا ليت اللحى كانت حشيشا
فتعلفها خيول الانجليز

وقد كان البريطانيون يدركون مرامي الزعامات الدينية وحدودهم. فقد كتبوا عنهم يقولون: (لا يستقيم عقلاً ان يؤخذ رأي اولئك الزعماء الدينيين باعتباره الرأي الكامل والنهائي الذي يمثل الرأي العام السوداني. فمن البديهي أن يكون اولئك الزعماء حريصين على زيادة نفوذهم في البلاد. وهم يقدرون تماماً قوة بريطانيا العظمى التي تمثلت في الانتصار النهائي في الحرب. ولذلك فان أملهم ان يلتحموا مع النفوذ البريطاني).

أما الفئة الاخرى فتتكون من الطبقة الوسطى التجارية والتي كانت آخذة في النمو في المدن ومواقع الانتاج الحديث. ووجدت تلك الطبقة من المثقفين من الاصل البرجوازي الصغير، الذين ولجوا باب التعليم، قيادة

(١) بشير محمد سعيد، المرجع السابق، الحلقة الثانية ص١٣.

لها تعبر عن ايديولوجيتها. وشكلوا طليعة الحركة الوطنية وقيادتها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

شهدت الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى مباشرة بروز أشكال حديثة تعبر عن الطموح الوطني. فكانت تلك التنظيمات تنظر الى السودان كله متخطية الاقليمية والقبلية على ان جنوب البلاد ظل خارج دائرة اهتمامها المباشر وكانت حركة علمانية. ولهذا عدة أسباب. فتجربة الدولة المهدية ما زالت تتردد ذكرياتها. كما ان موقف المؤسسات الدينية الرسمية والطائفية التي تعاونت مع الاستعمار قد ابعد عنها جمهرة المثقفين أو هي بعدت عنهم. لقد كانت حركة وطنية سياسية ضد الاستعمار البريطاني بدأت تنظم نفسها سياسياً على المستوى القومي.

ولكن شاب بروزها بعض القصور والضعف وهو نتاج التركيب الطبقي للمجتمع السوداني، حيث لم تزل البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ضعيفة التكوين، ولم تزل تأكل من فتات الرأسمالية. فكانت تنظيماتها فوقية لا تحفل كثيراً بالجماهير، بل لعلها كانت تهابها فنظرت اليها في تعالي الصفوة الثقافية. فكانت خالية من أي برنامج يمكن بمقتضاه تعبئة الجماهير وحملها على الانضمام اليها. فكان برنامجها خالياً مما يمكن ان تلقاه الجماهير في مستقبلها من نظم ديمقراطية وتقدم اقتصادي واجتماعي (١).

وواجهت الحركة الوطنية تحديات. فهناك الانجليز بكل سطوتهم وأجهزتهم البوليسية وقبضتهم على مصادر الرزق. وهناك القيادات

---

(١) عبد الخالق محجوب، المرجع السابق، ص١٧.

التقليدية بنفوذها وسط الجماهير وتعاونها مع الاستعمار. فكانت سداً أمام تسرب نفوذ الحركة الى الجماهير العريضة. كما ان العلاقة غير المتكافئة مع الطبقة الوسطى المصرية حجبت عنها آفاق الحركة الثورية التي بدأت تلتهب في بعض ارجاء المعمورة. وكانت الطبقة الرأسمالية المصرية نفسها تساوم الانجليز في حرية السودان لتنال مكاسب داخل مصر، ولتنال قسطا من الادارة الفعلية للسودان.

فما هو النشاط السياسي للحركة الوطنية في هذه الفترة؟ كان انشاء نادي الخريجين بام درمان عام ١٩١٨ الخطوة الاولى في ذلك الدرب الطويل. وهو أول تنظيم يضم المتعلمين على أساس التعليم وليس المنطقة أو القبيلة. ولذلك بدأ نشاطه مهتماً بنشر التعليم وتوسيعه بالنشاط الثقافي عامة. على ان تطور النشاط السياسي وجد طريقه الى النادي الثقافي الاجتماعي وتحول تدريجيا الى منبر للعمل السياسي. فبرز فيه الانقسام الايديولوجي الذي يعكس التمايز الطبقي. فكان هناك فريق من المتعلمين يتحالف مع الاقطاع والقوى التقليدية، وفريق آخر يعبر عن طموح البرجوازية النامية [١].

على ان النشاط الثقافي لم يقتصر على نادي الخريجين بل امتد خارجه، فأخذ المتعلمون في تكوين جمعيات ادبية في احيائهم وفي بعض العواصم الكبرى. وكانت تعنى بأمور الأدب والثقافة عامة. وهي تعكس المزاج الصفوي للمثقفين. ولكن حصيلتها من التراكم المعرفي قاد الى بلورة أفكار اجتماعية وسياسية فكانت هي القنطرة التي وصلت العمل الثقافي بالنشاط السياسي [٢].

---

(١) تحدثت أغلب المراجع السابقة عن نشأة نادي الخريجين.

(٢) خضر حمد، مذكرات خضر حمد (الخرطوم ١٩٨٠) ص ٢٩.

وهكذا ولدت جمعية الاتحاد السوداني عام ١٩٢٠ بعد ان سبقتها حركات فردية سرية تمثلت في توزيع بعض المنشورات التي تهاجم الحكم الاستعماري. فكان تكوين الجمعية انتقالاً من العمل الفردي الى العمل السياسي الجماعي المنظم. واتصف تنظيمها بالسرية المطلقة حماية لها من بطش الأجهزة البوليسية الاستعمارية [١] . ان بروز جمعية الاتحاد السوداني في ذلك الجو الخانق وبتلك الامكانيات، يمثل الخطوة الاولى في ذلك المسلك الوعر. ولعل ذلك النفر من الرجال الذين شيدوها قد تحلوا بقدر من الشجاعة وبومضة رومانتيكية أضفى عليها العمل السري بعضاً من جلاله. فاستهانوا بوظائفهم وبوضعهم الاجتماعي، فابترقت النزعة الوطنية لتضيء نفوسهم وحملت الجمعية معها قصور البرجوازية الصغيرة ومثقفيها في مجال العمل السياسي.

وطرحت الجمعية أول برنامج سياسي من عشر نقاط: هاجمت الاستعمار البريطاني وبرنامجه السياسي والاقتصادي والتعليمي. وانتقدت احتكاره لسلعتي السكر والقطن. وهاجمت بذخ الحكام البريطانيين في الوظائف والسكن. وعكس برنامج الجمعية وتركيب قيادتها هويتها الطبقية التي نضحت بطموحات البرجوازية التي حرمت نصيبها من الفائض الاقتصادي. وما زال استقلال السودان من الحكم الأجنبي بعيداً من مجال أفقها السياسي [٢] .

وكان الوعي الاجتماعي يرتفع، فيفضي الى تطور الحركة الوطنية. فكان لا بد لجمعية الاتحاد السوداني ان تشهد صراعاً من نتائج ذلك

---

(١) محمد عمر بشير، المرجع السابق، ص ٧١.
(٢) سليمان كشة، المرجع السابق.

التطور، وان يقود ذلك الصراع الى انقسام في صفوفها. وهو انقسام املته ضرورة انتقالها الى مرحلة أرقى في العمل السياسي ويعكس طموح البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، ويعكس مزاجها في العمل السياسي الذي لا يضع للجماهير الشعبية وزناً مناسباً في دائرة نشاطها السياسي كما يعكس تعجلها للوصول الى النتائج قفزاً فوق الواقع الموضوعي، وهو واقع يحتاج تطويره الى عناء كبير، الامر الذي لا تحفل به كثيراً. ويعكس ايضاً صفوية المثقفين ونزوعهم نحو الحرية والعدالة في شكلها الطوباوي [1].

واتخذ الصراع الذي أدى الى الانقسام عدة مظاهر فبرز اتجاه ينادي بنقل النشاط السري الى العلنية. ونشب خلاف حول من يتحدث باسم السودان: هل زعماء الطوائف والعشائر أو القيادة الجديدة من المتعلمين. وفي هذا المنعطف برز علي عبد اللطيف وهو ضابط في الجيش من قبيلة الدينكا احدى قبائل جنوب السودان ذات الأصل الزنجي. ونادى بالسودان أمة موحدة تشمل الشمال والجنوب. وأودع أفكاره في مقالة بعث بها الى جريدة الحضارة. وحوكم عليها بالسجن والفصل من الجندية. والمقالة حسب ما ورد في تقرير ايوارت لا تحتوي على أية كلمة لصالح مصر، ولكنها نادت بانهاء الحكم الأجنبي، واشتملت على مشاعر صادقة يحس بها أغلب المثقفين [2].

وهكذا برزت جمعية اللواء الابيض بقيادة علي عبد اللطيف وعبيد

---

(١) مارتن دالي، المرجع السابق.

(٢) كونت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة أبوارث لدراسة الأوضاع في السودان بعد ثورة ١٩٢٤ وتقدمت بتقريرها عام ١٩٢٥.

حاج الأمين ، ومجموعة أخرى من طلائع المثقفين وأسست لها خلايا في المدن الأخرى على أساس من السرية الصارمة . ثم أخذت في توزيع المنشورات المعادية لبريطانيا . ومنذ يوليو ١٩٢٤ بدأت في تنظيم المظاهرات . وكان أولها مظاهرة ام درمان التي قادها وخطب فيها احد تجار المدينة . وادى اعتقال علي عبد اللطيف في نفس الشهر الى المزيد من المظاهرات . وكان أخطرها مظاهرة طلبة المدرسة الحربية في أغسطس . وانتشرت المظاهرات الى بعض المدن الكبيرة . على ان الادارة الاستعمارية البريطانية استطاعت احتواء تلك المظاهرات ، كما اعتقلت طلبة المدرسة الحربية وقدمتهم الى المحاكمة . وقامت باعتقال قيادة جمعية اللواء الابيض (١) .

وفي نوفمبر تم اغتيال السير لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام . وكان اغتياله اثناء وجوده في القاهرة وهو في طريقه الى السودان . واشتعل الموقف في السودان من جديد . فأرسلت بريطانيا انذاراً الى حكومة سعد زغلول ضمنته مطالب قاسية . فاستقال سعد وخلفه زيور في رئاسة الحكومة . وتم تنفيذ أهم مطلب لبريطانيا هو سحب الجيش المصري من السودان . وبعدها وصلت الثورة قمتها في المواجهة العسكرية بين ضباط وجنود مدرسة ضرب النار بقيادة عبد الفضيل الماظ والجيش البريطاني . ودارت رحى معركة حربية في نوفمبر ١٩٢٤ استشهد فيها عدد من السودانيين وقتل فيها مجموعة من الجنود البريطانيين . وتمكن البريطانيون من احتواء الموقف واعدام عدد من الضباط (٢) .

---

(١) HASSAN ABDIN. EARLY SUDANESE NATIONALISM 1919 - 1925 (KHARTOUM 1986) CHAP, 3 & 4.

(٢) محمد عمر بشير، المرجع السابق .

لقد كانت ثورة ١٩٢٤ معلماً بارزاً في مسار الحركة الوطنية السودانية ، مهما كان كشف حسابها في النهاية . فالشعور الوطني ينمو ويشتد ساعده من خلال الصراع والتضحيات . وتحولت الثورة الى رمز يلهم الناس جيلا بعد جيل . حتى السيد عبد الرحمن الذي لم يشارك فيها بل لعله كان معادياً لها ، كتب فيما بعد يقول : (وانني وان كنت أكبر صفات الرجولة والصبر التي امتاز بها أعضاء جمعية اللواء الابيض الا أنني لا اعتبر حركة ١٩٢٤ ممثلة للمطالب الحقيقة لشعب السودان) (١) . واعتبر احمد خير ان مثل هذا القول يمثل تلازماً بين الانتهازية والاعتدال حتى يصبح القول ان الاعتدال عنوان مستعار ينتحله الانتهازيون لاخفاء حقيقتهم .

على ان هناك تقييما اكثر دقة لثورة ١٩٢٤م . فقد كان شعار الجمعية والثورة التي فجرتها هو (وحدة وادي النيل) يعبر عن العجز السياسي والاقتصادي للطبقة الوسطى السودانية ، اكثر من التعبير عن رغبة الجماهير الشعبية في الانعتاق من عسف الاستعمار البريطاني . كما ان حركة ١٩٢٤م كانت خالية من أي برنامج يمكن بمقتضاه تعبئة الجماهير وحملها على الانضمام اليها ، اذ ان البرامج في مجمله لم يخرج عن ترديد الفاظ الحرية ووحدة وادي النيل وعاشت مصر ، أما المستقبل الذي يمكن ان تلقاه الجماهير من نظم ديمقراطية للحكم وتقدم اقتصادي واجتماعي ، فأمور كانت مهملة من جانب تلك الحركة . وكان تنظيم الحركة ضعيفا وغير متسع في المستوى المطلوب لمجابهة الاستعمار . كانت به بعض العناصر الخائنة التي اتهمت بنسفه والتآمر على اعضائه (٢) .

---

(١) السيد عبد الرحمن المهدي ، جهاد في سبيل الاستقلال ، أشرف على اعداده الصادق المهدي (الخرطوم ١٩٨٦) ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) عبد الخالق محجوب ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

الحركة الوطنية بين ١٩٢٥ ــ ١٩٣٧

خرجت الحركة الوطنية بعد ١٩٢٤ منهزمة. وتراجعت قيادتها من مثقفي الطبقة الوسطى تراجعا مرتبكا. وكانت السنوات التي اعقبت فشل ثورة ٢٤ (سنوات عجاف) كما وصفها احد السودانيين (١). وتنبه الاستعمار البريطاني في انزعاج لدور القوى الجديدة من المثقفين والطبقة الوسطى التي عبروا عن طموحها وقادوا نشاطها. وبدأ الاستعمار ينتهج سياسة يحافظ بها على بقائه. فأرهب الحركة الوطنية. وتطور في أجهزة المخابرات لاختراق تلك الحركة. ومن الجانب الآخر سعى الى بعض العناصر من تلك القيادات لجذبها الى دائرة نفوذه. فوسع في مجال التعليم العالي، وفتح لهم أبواب الخدمة المدنية في درجاتها العليا. وهذا ما عكسه تقرير الحاكم العام السير لي ستاك منذ ١٩٢١ وبرز في تقرير ملنر (٢). وكان هدف الاستعمار ان يعزل طلائع مثقفي البرجوازية عن الشعب، وتحويلهم الى عناصر يائسة تزهد في جدوى الكفاح ومناهضة الحكم الاستعماري. وقد تدرج بالفعل بعض اولئك المثقفين في أجهزة الدولة، وكونوا رصيدا للمستعمر خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (٣).

وكان الجانب الاخر من السياسة الاستعمارية يتمثل في احياء المؤسسات القبلية والطائفية التقليدية، وتحويلها الى أدوات يستغلها في حكم البلاد.، وركوبها كقنطرة يعبر بها الى سكان البلاد. ورغم ان الادارة الاهلية بدأت تدخل الى جانب الاستعمار منذ نهاية الحرب العالمية

---

(١) محمد المكي ابراهيم، المرجع السابق ص٢٤.
(٢) راجع تقرير السير لي ستاك في محمد عمر بشير ص ٢٢٩.
(٣) عبد الخالق محجوب، المرجع السابق.

الاولى ، الا ان الفترة بين ١٩٢٥ ـــ ١٩٢٧ شهدت اصدار القوانين واللوائح التي تنسق نشاط تلك الادارة الاهلية لتصب في مجرى السياسة الاستعمارية . ورغم ان البعث الصناعي للقبلية بهدف خدمة الاغراض السياسية الاستعمارية ظل يواجه السياسة البريطانية في السودان منذ نهوض الحركة الوطنية ، الا ان الاساس الاقتصادي للقبلية كان يضعف تحت تأثير الاشكال الجديدة من الاقتصاد النقدي ، وتحت تأثير المدن النامية التي كانت تجذب افراد تلك القبائل ، وتحت تأثير القوانين الموضوعية لتطور المجتمع السوداني . لذلك لم يتمتع زعماء القبائل بالتأييد الذي كانوا يجدونه من قبل ، وقد اصبحوا قيادة مفروضة من قبل الادارة البريطانية عن طريق التعيين . وأخذت رجل تلك القيادة تنزلق تدريجيا الى دائرة النشاط الرأسمالي ، وبدأت تراكم أموالها من فضلات الفائض الاقتصادي التي كان يرميها لها الاستعمار فنشطت في مجال الزراعة والثروة الحيوانية [١] .

أما القيادات الطائفية فقد ازداد ارتباطها بالاستعمار ، بعد ان افسح لها المجال للمساهمة في الاستغلال الرأسمالي . فمن خلال تخصيص مبالغ للأراضي من صندوق حكومة السودان تحول هؤلاء الى ملاك كبار لمزارع القطن . وارتادوا مجال العقارات واحرزوا فيه نجاحاً مادياً . وبهذا أضافوا الى قبضتهم الدينية على الناس نفوذهم الاقتصادي الرأسمالي والاقطاعي [٢] .

---

(١) جعفر محمد علي بخيت ، الادارة البريطانية والحركة الوطنية في السودان (بيروت ١٩٨٧) وفيه دراسة وافية عن الادارة الأهلية .

(٢) مدثر عبد الرحيم ، الامبريالية والحركة الوطنية .

وانحسر النشاط السياسي عامة . أما الطبقة الوسطى فقد قبعت بعيدا قانعة بممارسة نشاطها التجاري . وأما نشاط المثقفين فقد انحصر في اندية الخريجين وخاصة في الجمعيات الادبية والحفلات الاجتماعية . وكان النشاط الادبي في ذلك الوقت يتجه نحو التمسك بالتراث العربي ، وهو بذلك يمثل عملا لمقاومة الاتجاه الاستعماري لهدم اللغة العربية وآدابها في السودان . ولم ينتشر نشاط الخريجين ذاك ليشمل الحياة اليومية للناس ، فانحصر في اندية الخريجين ومن يطرقون ابوابها . هكذا انفجرت الحركة الادبية التي قادها جيل الثلاثينات لتصبح محور النشاط الفكري والاجتماعي والسياسي . وقد وجد ذلك الجيل في تلك الحركة متنفسا وعزاء في ذلك الجو الخانق الذي فرض ظله على الحياة السودانية (١) .

ومن خيبة الأمل التي اصابت المثقفين من احداث ١٩٢٤ ، ومن صعود نفوذ القيادات الطائفية ومن ضغط السياسة الاستعمارية ، ومن لهفة البرجوازية الصغيرة وتعجلها للنتائج ، اخذت فئة المثقفين تتطلع الى التعاون والتحالف مع الطائفية باعتباره اقصر الطرق التي يتوسلون بها الى الجماهير . ولكنهم بذلك التوجه تنكبوا طريق الجادة ، وارتادوا مضمارا لا يمكنهم السير فيه الا في ذيل الطائفية . ومن هنا جاءت غضبة بعضهم على الطائفية والابتعاد عنها ونقدها (٢) .

لقد ادركت البرجوازية وبعض قيادتها من المثقفين ، انه بدون التعاون مع القيادات التقليدية فلا سبيل لها للوصول الى تلك الجماهير . وهي لا تريد الوصول الى تلك الجماهير بتنظيمها وتفجير طاقتها بحكم

---

(١) حسن نجيلة ، ملامح .

(٢) جعفر حمد ، المرجع السابق ص ٥٥ .

مصالحها الطبقية . كما ان القيادات التقليدية ادركت انه بدون التعاون مع البرجوازية والمثقفين فان نشاطها سيكون قاصراً وستفقد الجانب المستنير من المجتمع المرتبط بالانتاج الحديث وبالعلم . وبما ان الحركة الوطنية لا تستوجب فرزاً طبقياً فان الالتقاء بين تلك الفئات الاجتماعية أصبح ممكنا . فتم اللقاء على أساس توازن القوى وهو الذي حكم خطى الحركة الوطنية التي قادتها الطبقة الوسطى ، وطبعها بأسلوب المناورات ، وجعلها أسيرة العمل الاصلاحي ، هكذا برز في نادي الخريجين مجموعة الفيليين والشوقيين [١] .

ثم انفجرت الازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩ . وتصاعدت خطواتها حثيثة لتقود العالم الى بؤرة الحرب العالمية الثانية . وهبطت وطأة الازمة على كاهل أهل السودان ثقيلة . فعبروا عن سخطهم وضيقهم بها في بعض أشكال المقاومة والتي كانت بداية اليقظة والبعث الجديد للحركة الوطنية . فأخرجتها من وهدة اليأس التي اعقبت الهزيمة (وكان من الممكن لو توفرت لدى الشعب القيادة السياسية المكافحة ان ينهض في حركة قوية من أجل التحرر الوطني واستبدال حياة البؤس والشقاء ولكن الطبقة الوسطى ظلت بعيدة تتفرج يعمل مثقفوها بين جدران انديتهم في الجمعيات الادبية) [٢] .

وأخذت الازمة تشد بقبضتها على خناق النظام الرأسمالي . فأخذت بعض الأنظمة الرأسمالية تدعم وتدفع بالفاشية لعل فيها مخرجا لها من المد

---

(١) الشوقيون انصار السيد محمد علي شوقي وهم جماعة السيد عبد الرحمن المهدي ، والفيليون أنصار الشيخ الفيل وهم جماعة السيد علي الميرغني .

(٢) عبد الخالق محجوب ، المرجع السابق .

الاشتراكي المتنامي . وما ان انطلقت الفاشية من عقالها رافعة رايات التعصب الهستيري تمتص به غضبة البرجوازية الصغيرة وهلعها ، وتجتذبها تحت الويتها المجنونة ، حتى أخذت تعد للحرب ، فأخذت تنتهك سيادة هذا البلد لتنتقل للآخر . وكانت تنظر بنهم الى المستعمرات الغنية ما وراء البحار ، تحلم بالاستيلاء عليها لتعيد التوازن في النظام الرأسمالي على صعيد تقسيم العمل على نطاق العالم .

وعندما دخل التحضير للحرب مراحله الحاسمة ، بدأ الاستعمار البريطاني في مصالحة القوى الوطنية في المستعمرات ليضمن ولاء هذه الجبهة اثناء الحرب . فأجرت بريطانيا مفاوضات مع الدوائر الحاكمة في مصر . فعقدت معها اتفاقية سنة ١٩٣٦ التي اعطتها بموجبها بعض المكاسب والتنازلات الشكلية . وكان من ضمنها موضوع السودان ، حيث حصلت الدوائر المصرية الحاكمة على بعض الامتيازات في السودان ، ضاربة عرض الحائط بعلاقتها مع اهله [١] .

ان الازمة الاقتصادية وتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وسط طبول الحرب ، دفع بأهل السودان ليعيدوا النظر في أمرهم والبحث عن مخرج وسط ركام الأزمات . وفي هذا الجو قام المثقفون بانشاء مؤتمر الخريجين وهو تنظيم يسير تحت منهج اصلاحي ، ويعمل على نشر التعليم ، ويهتم بأمور الثقافة (ان قصر مؤتمر الخريجين على المناداة بالاصلاح دون التعرض لنظم الحكم الاستعماري ، واقتصار نشاطه على خريجي المدارس دون غيرهم لا يعبر عن ضعف الشعب السوداني ، بل عن ضعف الطبقة الوسطى واحجامها

---

(١) HASSAN AHMED IBRAHIM. THE ANGLO - EGYPTIAN TREATY - 1936 (KHARTOUM 1978).

ورغبتها في سلوك الطريق السهل) ورغم الوحدة التي سادت المؤتمر الا أنها كانت قشرة هشة كمنت تحت سطحها كل خلافات المثقفين وانتماءاتهم الطبقية المتباينة (١).

واتخذت تلك الصراعات شكل المناورات والمؤامرات والعمل الفوقي. الا ان تصاعد المد الجماهيري وتطور الوعي القومي، والارتباك الذي احدثته الحرب العالمية الثانية في صفوف الاستعمار، دفع بالمؤتمر لاتخاذ خطوات اكثر ايجابية. فكانت مذكرة سنة ١٩٤٢ التي بعث بها للادارة البريطانية مطالباً بحق تقرير المصير بعد الحرب (٢).

ان بروز مؤتمر الخريجين يشكل مرحلة جديدة في تطور الحركة الوطنية السودانية. وهي مرحلة تقع خارج دائرة هذا البحث. على ان أهم مؤشر للمستقبل بعد تكوين المؤتمر كان انقسامه الى شقين: أحدهما كان يلبي الاحتياجات الموضوعية للحركة الجماهيرية فوقف ضد الاستعمار، والآخر وقف مع الاستعمار. ومن هذا الانقسام برزت الاحزاب السياسية بعضها يعبر عن تطلعات البرجوازية، والاخرى عن مصالح الاقطاع وشبه الاقطاع، ولكن نهاية الحرب شهدت ايضا بروز تنظيمات سياسية تعبر عن قوى اجتماعية أخرى: البرجوازية الصغيرة والعمال والمزارعين وهذا يشكل محور دراسة منفصلة.

---

(١) AFAF ABDEL MAJID ABU, FACTIONAL CONFLICT IN THE SUDANESE NATIONALIST MOVEMENT, 1918 - 1948 (KHARTOUM 1985)

(٢) عثمان حسن أحمد، الأصول الفكرية للحركة الوطنية في السودان (جريدة الأيام ١٩٨٦/١/٢) ص ٥.

ملاحظات حول بعض كتب السيرة الذاتية السودانية* وقيمتها كمصدر لدراسة التاريخ

(*) قدم هذا البحث في المؤتمر الذي نظمه معهد الدراسات الافريقية الاسيوية تحت عنوان «الدراسات السودانية ماضيها وحاضرها ومستقبلها» في يناير ١٩٨٨.

تدور هذه الملاحظات حول بعض كتب السيرة الذاتية والمذكرات التي نشرتها مجموعة من الشخصيات السودانية، التي شاركت في الحياة السياسية والاجتماعية منذ مطلع هذا القرن، وهم:

(١) بابكر بدري (١٨٦٤ ــ ١٩٥٤) تاريخ حياتي ــ ثلاثة أجزاء.
(٢) عبد الرحمن المهدي، (١٨٨٥ ــ ١٩٥٩) جهاد في سبيل الاستقلال (أشرف على اعداده الصادق المهدي).
(٣) أحمد خير. (١٩٠٥) كفاح جيل.
(٤) علي عبد الرحمن الامين (١٩٠٦ ــ ١٩٨٣) الديمقراطية والاشتراكية في السودان.
(٥) محمد أحمد محجوب (١٩٠٨ ــ ١٩٧٦) الديمقراطية في الميزان.
(٦) خضر حمد (١٩١٠ ــ ١٩٧٠) مذكرات خضر حمد.
(٧) أمين التوم (١٩١٤) ذكريات ومواقف.
(٨) عبد الماجد أبو حسبو (١٩١٩ ــ ١٩٨٥) مذكرات عبد الماجد أبوحسبو (الجزء الأول).
(٩) محيي الدين أحمد عبدالله (١٩١٩) التاريخ من أجل التاريخ، ويمكن ان نضيف اليهم:

(١) سليمان كشة. سوق الذكريات ــ الجزء الاول.
(٢) حسن نجيلة. ملامح من المجتمع السوداني في جزءين [١].

---

(١) أغلب هؤلاء الكتاب قدموا نبذة لحياتهم في الغلاف الخلفي لكتبهم.

وسوف نتناول في البداية فن السيرة الذاتية وأسلوبها كما طرحه الدكتور احسان عباس في كتابه «فن السيرة» [١]. ثم نأخذ نماذج من تلك الكتب في تناولها لبعض الاحداث الهامة في تاريخ السودان. وننتهي بتقييم لجدوى تلك الكتب كمصدر تاريخي.

فن السيرة الذاتية :

يرى الدكتور احسان عباس أن السيرة الذاتية ليست حديثاً ساذجاً عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر. ولأنها ليست كذلك فنحن نستسيغها ونجد فيها متعة. فالسيرة الذاتية قريبة الى القلوب لأن كاتبها خلق رابطة ما بيننا وبينه. فهو يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته، فيثير فينا رغبة في الكشف عن عالم مجهول. فهو يفضي لنا بمكنونات صدره فيطلعنا على عالم داخلي، قد يكون طوى معاذير صدره لصراعه مع الحياة في فتراتها المختلفة العادية والمضطربة [٢].

وكل سيرة تجربة ذاتية لفرد. وقد تكون لشخص نجح في حياته، أو لفرد كافح وادركه الاخفاق. ولكن المهم أن تبلغ التجربة ورؤيتها عبر التطلع الى الماضي على أساس من نظرة ذاتية. ولولا هذا لكان كل انسان قادراً على أن يكتب سيرة حياته. فهناك أشخاص يقصون أحداثاً من حياتهم فيها متعة، ولكنهم يعجزون عن أن يكتبوها سيرة كاملة، لأنهم يعجزون عن أن يروا مكانهم في الحياة، ولا يرى الانسان مكانه بوضوح

(١) احسان عباس، فن السيرة، (بيروت ١٩٥٦).
(٢) المصدر السابق، ص ٩٨ — ١٠٠.

الا اذا أصبحت تجاربه ذات وحدة متكاملة ، وكانت له قاعدة فلسفية يتقابل بها وجها لوجه مع حقائق الوجود الأخرى [١] .

وتتطلَب السيرة الذاتية أن يكون صاحبها متميزاً في ناحية من نواحي الحياة ، وأن يكون ذا صلة دقيقة بأحداث كبرى ، أو أن يكون ممن لهم مشاركة في بعض تلك الاحداث . وقليل من السير الذاتية ما فيه انعكاس لتجربة ذاتية ذات حدود واضحة بين ولادتها واكتمالها .

ان حظ السيرة الذاتية في البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي أو شدة الصراع الخارجي . وقد تجري حياة فرد عظيم من الناس جريان الماء الرقراق على أرض من الحصباء ، ولكن عظمته في مكانه من التاريخ تجعل لسيرته الذاتية قيمة وذيوعا . ولا بد لها كي تكتب من أن يتجسد فيها الماضي بخيره وشره ، لا على شكل ذكريات متقطعة أو صور خارجية ، بل على أساس من التطور الذاتي داخل النفس وخارجها [٢] .

وتكتب السيرة الذاتية لارضاء الضمير . فقد يكون كاتبها قد تحول من مذهب سياسي الى مذهب آخر ، أو من منتصر الى منهزم . فيكتب سيرة حياته ، منتحلا ضروبا من التعليل والاعتذار والتبرير . فوراء كل سيرة ذاتية يوجد هذا الدافع النفسي أو ذاك .

فالسيرة الذاتية تعتمد على العنصر الذاتي ، فالذي يكتب سيرته يبصر الحقائق متصلة بذاته على نحو ذاتي . وهنا لا بد أن يكون الكاتب لسيرته

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

الذاتية موضوعيا في نظرته لنفسه . بمعنى أنه يتجرد من التحيز لنفسه ، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث ، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها ، وحبها لاعلاء شأنها وتنقيصها من قدر الآخرين . وقل من يحسن هذا النوع من التجرد[١] .

فإلى أي حد يمكن أن يكون كاتب السيرة الذاتية صادقاً ، وما هي درجة ذلك الصدق ، وهل من الممكن للصدق التام أن يتحقق فيها ؟ ان الصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل والحقيقة الذاتية صدق نسبي مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها . ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية محاولةً ، لا أمرا متحققاً . فهناك عوامل تحول دون تحقق الصدق في السيرة الذاتية : منها النسيان الطبيعي والنسيان المتعمد . فنحن لا نتذكر من عهد الطفولة الا القليل . وبعض ما نتذكره أحيانا ، نحاول اخفاءه لأنه لا قيمة له . فنحن نخفي ونبقي خضوعا لتلك الحاسة الفنية ، وهناك أشياء نستحي من ذكرها كبعض العلاقات الجنسية . ثم إن الذاكرة لا تنسى بل هي تفلسف الأشياء الماضية ، وتنظر اليها من زوايا جديدة ، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغييرها ، وتجدد التعليل والمعاذير لأشياء سابقة ، فالماضي لا يمكن استرجاعه على حاله ، ولا مناص من تغييره ، بوعي أو بغير وعي . ومن ضروب التغيير الواعي فيما نذكره ونكتمه ، أننا لا نقول كل ما نعرفه عن الأحياء لئلا ينالهم الأذى من صراحتنا[٢] .

ويمكننا أن نضيف الى ما ذكره الدكتور احسان ، أن السيرة الذاتية

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٣ ــ ١١٤ .

في مجال دراسة التاريخ لها دور أساسي ، فهي تملأ فجوات في التاريخ لا تتوفر في المصادر الأخرى . فكاتب السيرة الذاتية قد يذكر جوانب خاصة من تجربته تكون فتحا لفهم تاريخي تقف المصادر الأخرى دون جلائه . ولذلك نحن نبحث في السيرة الذاتية ، بجانب المتعة الفنية ، عن تلك الأحداث الصغيرة التي تساعدنا في فهم الماضي . واذا أغفلت السيرة الذاتية تلك الجوانب ، واهتمت بالأحداث الساطعة فان قيمتها التاريخية تقل كثيرا .

متى كتبت تلك السيرة الذاتية ؟

تكتب السيرة الذاتية في الغالب الأعم عند نهاية مرحلة من حياة كاتبها ، فاما أن يكون قد بلغ من العمر مرحلة أحس أنه توقف عن العطاء ، أو تكون قد انتهت مرحلة من التاريخ ، فيرى أن يقف عندها يسجل التجربة الماضية ، فكتاب أحمد خير « كفاح جيل » كرسه كاتبه لتجربة مؤتمر الخريجين ، بعد أن تطور المؤتمر وخرجت منه الأحزاب السياسية ، وانتهى دوره في قيادة الحركة السياسية [١] .

على أن أغلب السير الذاتية التي نتناولها هنا ، قد كتبت بعد استقلال السودان . ولعل كتابها رأوا أن الاستقلال أنهى مرحلة ، وبدأت به مرحلة جديدة ، مما يستوجب الوقفة عند ذلك المفترق لتسجيل الأحداث الماضية . وهم في تلك الوقفة لم يكونوا ينظرون الى الماضي فحسب ، بل الى ما سيكون عليه دورهم في المستقبل أو ما قاموا به في صنع الأحداث . ولذلك

---

(١) الاستاذ أحمد خير المحامي من طلائع المثقفين الذين عملوا بالسياسة ضد الاستعمار وهو صاحب فكرة مؤتمر الخريجين . قد كتب البروفسير مدثر عبد الرحيم نبذة قصيرة عنه عند تقديمه الطبعة الثانية لكتابه عام ١٩٧٠ عن الدار السودانية . راجع ص ٦ — ٨ .

لم تخل كتاباتهم من تبرير واعادة صياغة للأحداث بما يتواءم مع موقفهم وموقف القوى السياسية التي يمثلونها في السودان المعاصر. ولعل أغلبية السير الذاتية للسياسيين، يعكس هاجس السياسة الذي يسيطر على بلد ما زال يبحث عن أفضل الطرق التي تحكمه وتقود خطاه.

كما أن أغلب تلك السير الذاتية قد كتبت عندما أحس كتابها أنهم أدوا دورهم في الحياة العامة بدرجة أو أخرى. فأصبح عليهم أن يرجعوا البصر الى مجمل حياتهم السياسية، فان مذكراتهم وسيرتهم لم تخل من دفاع عن موقفهم السياسي الماضي، مهما صبغت تلك الكتب بالتبرير والتحليل، دون أن تحفل كثيراً بالأحداث والتفاصيل التي نبحث عنها في مثل هذه الكتب. فالقارىء يستبين منذ الوهلة الأولى أن المواقف السياسية التي انتهى اليها ذلك الكاتب، ويستبين خط الدفاع الذي سينهجه، بل وأي التفاصيل سيذكر وأيها سيخفى، فيقل عنصر التشويق، كما يقل شأن عناصر أخرى، حتى غدا بعضها مقالة سياسية خالصة.

الشيخ بابكر بدري وتاريخ حياته:

يمثل كتاب الشيخ بابكر بدري «تاريخ حياتي» نموذجاً للسيرة الذاتية [(١)]. ولعل الكتاب جاء بتلك الصورة، لأن صاحبه عاش حياة

---

(١) يتألف كتاب الشيخ بابكر بدري من ثلاثة أجزاء:
الجزء الأول من ١٢٧٩ هـ الى ١٣١٦ هـ أي من حوالي ١٨٦٥ م الى موقعة كرري ١٨٩٨ م.
الجزء الثاني من ١٨٩٩ الى ١٩٢٨
الجزء الثالث من ١٩٢٩ الى ديسمبر ١٩٤٩
ولكن ابنه الاستاذ يوسف بدري واصل المذكرات التي تركها والده بخط يده لتغطي الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٥٤.

طويلة حافلة. فقد ولد في العهد التركي المصري (١٨٢١ ــ ١٨٨٥)، وشب ونضج ابان الثورة المهدية (١٨٨٥ ــ ١٨٩٨)، واكتهل مع بداية الحكم الاستعماري البريطاني، ودخل الشيخوخة عند نهايات ذلك الحكم وبداية عهد الاستقلال. فقد عاش خلال أربع حقب من تاريخنا الحديث ولم تكن حياته مجرد سنوات تتلو بعضها بعضا، وانما كانت حياة حافلة بالانجاز، تقلب فيها صعوداً وهبوطاً. فهو ثائر مقاتل، وأسير، وتاجر، ومعلم، وعامل، ومؤسس لمعهد تعليمي، ورب أسرة نال أفرادها حظاً وافراً من النجاح. ومارس الرجل ضروبا من النشاط البشري من عمل ذهني ويدوي واداري.

على أن قيمة الكتاب الكبرى في صراحة الكاتب في سرده لأحداث حياته. فهو صريح ما وسعه الى الصراحة سبيل في مجتمع محافظ تقليدي. ولعله عندما دون سيرته كان قد بلغ من العمر والمكانة الاجتماعية، ما جعله ينظر الى تلك الأحداث باعتبارها أموراً تنتمي الى ماضٍ بعيد لا يؤثر على المكانة التي يحتلها. فهو يكتب من فوق انجازات لاً يخفي اعتزازه بها.

وتكمن قيمة الكتاب الاخرى في أن صاحبه لم يهتم بالأحداث الكبرى التي مرت بها البلاد، الا في مشاركته فيها وتجاربه الذاتية. فثورة ١٩٢٤ لا تجد في مذكراته الا ذكرى عابرة. بينما تحتل الثورة المهدية حيزاً كبيراً منها. وحتى في حديثه عن الثورة المهدية، فهو لا يتحدث عن أسبابها أو تقييمها او تحليلها كما تفعل كتب التاريخ، وانما اقتصر حديثه عن دوره في تلك الثورة. فيأتي بتفاصيل ساعدت كثيراً في كشف جوانب هامة من تاريخ تلك الحقبة. وكنت قد تعرضت لقيمة

هذه المذكرات أثناء دراستي للتاريخ الاقتصادي للدولة المهدية فقلت «من تلك الكتب مذكرات المرحوم بابكر بدري.. وعلى الرغم من أن المعلومات التي حصلت عليها من هذه المذكرات محدودة، فانها مهمة في تحديد أفكاري حول ظهور السوق وأثره على الحياة في السودان [1]». فتناول على سبيل المثال دوره في النشاط التجاري، ذاكراً بعض التفاصيل التي تكشف جوانب هامة من ذلك النشاط. كما تعرض لأساليب تهريب البضائع ورشوة الموظفين في الدولة المهدية ومشاركته في كل ذلك [2].

وقد وجد التعليم ابان فترة الاستعمار البريطاني حيزاً كبيراً في مذكراته. وكان تناوله لأسفاره في أنحاء السودان في مجال النشاط التعليمي، قد أعطى صورة قلمية حية لحياة أهل السودان في تلك السنوات. وقد ساعده في كل ذلك احتفاظه ببعض الوثائق الهامة وتسجيله لبعض المذكرات، وهي أمور قل أن يحفل بها المتعلمون في بلادنا، فهذه أمور تحتاج الى جهد ومثابرة والى فهم حضاري بقيمة الكتاب والكتابة، وايجاد مكان لهما في تركيب الأسرة.

ان مذكرات الشيخ بابكر بدري لها قيمتها الفنية، وقيمتها التاريخية في تلك التفاصيل التي جادت بها ذاكرته على تقدم سنه.

---

(١) محمد سعيد القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية (الخرطوم ١٩٨٦) ص ١٨.

(٢) بابكر بدري، الجزء الاول ص ١١٩ وص ١٢٥.

تاريخ السودان في بعض كتب السيرة الذاتية :

تعرض بعض أولئك الكتاب لتاريخ السودان بمثابة خلفية لسيرتهم ومذكراتهم . ولا اعتقد أن التاريخ القديم أو حتى الحديث يمكن أن يكون جزءاً من سيرة ذاتية أو مذكرات ، اللهم الا اذا كان ذلك الشخص قد عاش بعض أحداث ذلك الماضي . ولكن الذين تعرضوا في كتبهم للتاريخ ، ما كانوا يكتبون سيرة وانما كانوا يقيمون أحداث الماضي لاسقاطها على صراعات الحاضر .

فيبدأ كتاب علي عبد الرحمن الأمين بفصل عن الحركة الوطنية عبر التاريخ ويتعرض في فصل آخر لجوانب من تاريخ السودان . ويتحدث محمد أحمد محجوب في القسم الأول من كتابه عن بعض تلك الجوانب التاريخية . ويخصص عبد الماجد أبو حسبو أربعة فصول لتاريخ السودان منذ العهد التركي ــ المصري حتى النصف الأول من هذا القرن . ولعل هذه الاجزاء أضعف جوانب تلك الكتب . فقد كان أصحابها رجال سياسة ، وما كانوا مؤرخين وقد تطورت أساليب البحث التاريخي كثيراً على عهدهم ، ولم يسمح لهم انشغالهم بالسياسة بالاطلاع أو المران على تلك الأساليب .

فجاء تناولهم يغلب عليه الجانب الذاتي البحت . فعندما يتناول علي عبد الرحمن تاريخ الثورة المهدية ، فلأن حزب الأمة الذي يتصارع معه قد اتخذ من تلك الثورة مادة يقيم منها تنظيمه السياسي . ومن حق أي حزب سياسي أن يعود للتراث يستمد منه جانباً من مقومات حاضره . ولكن هذا لا يعني الهجوم على ذلك التراث ضمن حملتنا على خصومنا السياسيين . فالثورة المهدية ليست حكراً على حزب الأمة ، ولا هو ببرنامجه وسياسته

امتداداً لها. وإذا كان السيد عبد الرحمن ابن الإمام المهدي هو مؤسس ذلك الحزب وراعيه، فان معارضة سياسته هي الأجدى، وليست مهاجمة الحركة التي قادها والده في القرن التاسع عشر. فيقول علي عبد الرحمن «بدأنا نسمع في الأيام الأخيرة وبعد تكوين حزب الأمة، أن الزعيم الديني محمد أحمد المهدي انما قام بثورة ليحقق استقلال السودان وليخلصه من الاستعمار التركي... والحقيقة أن هذه النتيجة جاءت عفوا ولم يكن لها أثر في تفكير المهدي». ويرى أن فترة الحكم المهدوي كانت «كلها فترة ثورة وحروب متصلة يتخللها قلق واضطراب وسلب ونهب لم ير له السودان مثيلاً منذ أن دخل العرب السودان في أول عهد الاسلام [1]».

أما عبد الماجد أبو حسبو فيتحدث عن الثورة المهدية «بوصفها أول ثورة وطنية قومية تنتصر على قوى استعمارية غاشمة» أما عن أسبابها فيقول إن المهدي رأى «ما كان يعانيه شعبه من ظلم واضطهاد. ثم رأى كيف بدأ الناس ينحرفون عن جادة السبل وعن القيم الاسلامية والخلقية. ولا بد أن المهدي فكر كثيراً وطويلاً في الطريقة التي يوقظ بها الناس من سباتهم وينفض عنهم غبار الاستسلام ويدفع بهم الى ميادين الجهاد في سبيل الله والوطن» وعن علاقة الثورة المهدية بمصر يقول «أسارع الى القول ودون تردد الى أن الثورة المهدية لم تكن ضد الشعب المصري وانما كانت ضد الخليفة العثماني [2]». أما محمد أحمد محجوب فينتهي الى القول بأن «محمد أحمد المهدي ذهب في التاريخ لا أعظم

---

(١) علي عبد الرحمن الامين. الديمقراطية والاشتراكية في السودان (بيروت ١٩٧٠) ص ٣٠ ــ ٣٣.

(٢) عبد الماجد أبو حسبو، جانب من تاريخ الحركة الوطنية في السودان الجزء الأول. (الخرطوم ١٩٨٧) ص٢٣ ــ ٢٥.

أبطال السودان فحسب ... بل أيضا كواحد من أعظم الزعماء والدينيين المسلمين وكأحد الشخصيات غير العادية التي قلما تظهر في التاريخ [١] » . ولعل هذه الفقرات تصلح لخطبة سياسية ، وليس حديثاً علمياً عن حركة سياسية ، ما كان أغنى أولئك الكتاب عنها .

وعندما نأتي الى مذكرات السيد عبد الرحمن ، التي أشرف على اعدادها الصادق المهدي وسمح بتسرب أفكاره وتوجهاته اليها ، نجده يتناول الثورة المهدية تناولاً عابراً ، على الرغم من أن عبد الرحمن المهدي عاش خمسة عشر عاماً في ظل الحكم المهدوي [٢] . ولو عكس تجربته مفصلة لقدم اضافة باقية لدراسة تاريخ هذه الحقبة . ولكن يبدو أن المذكرات كانت تلهث لتصل الى بعض القضايا التي تسعى منشورات حزب الأمة لابرازها أو تبريرها في سيرة السيد عبد الرحمن .

الميلاد والنشأة الأولى :

تعتبر فترة الطفولة مرحلة هامة في تكوين الانسان وقد عاش معظم كتاب هذه السير التي نحن بصدد الحديث عنها ، في فترات زمنية متقاربة . ولكنهم أهملوا تلك الفترة من حياتهم ، ما عدا بعض الاشارات العابرة عند أمين التوم ومحيي الدين أحمد عبدالله [٣] . وهذا الاهمال أفقد

(١) محمد احمد محجوب . الديمقراطية في الميزان (الخرطوم ، بدون تاريخ) ص ٢٦ .

(٢) عبد الرحمن المهدي . جهاد في سبيل الاستقلال (الخرطوم ١٩٨٦) ص٣ — ٦ .

(٣) امين التوم . ذكريات ومواقف على طريق الحركة الوطنية السودانية (الخرطوم ١٩٨٧) ص ٣ — ٨ . وكذلك : محيي الدين احمد عبدالله . التاريخ من اجل التاريخ (الخرطوم بدون تاريخ) ص ٥ .

تلك الكتب بعضا من قيمتها ، مما أحالها الى دراسات مثلها مثل كتب التاريخ الأخرى . ويبدو أن الأحداث السياسية الهامة ، كانت تشغل بال أولئك الكتاب ، حتى أنستهم بوعي أو بغير وعي ذلك الجانب الهام في تكوينهم . فحرمنا من الوقوف على جوانب من حياة مجتمعنا . كما انعدمت الالفة التي تنشأ عادة بين كتاب السيرة الذاتية والقراء عبر الكشف عن جوانب من حياتهم تختلف عن حياة الآخرين .

وعندما نأتي الى مذكرات السيد عبد الرحمن نصاب بخيبة أمل أكبر . فليت الكاتب قدم لنا جوانب من حياته في عهد الخليفة عبدالله ، أو جوانب من الحياة في ام درمان . وهل ظل السيد عبد الرحمن طوال فترة حكم الخليفة في العاصمة أم سافر الى بعض أنحاء البلاد ، وما هي تجاربه في ذلك التسفار؟ ولكن لعن الله السياسة فهي التي أملت كتابة تلك المذكرات ، وكأنما المذكرات كفيلة بتغيير حقائق التاريخ وقناعات العصر .

ولعل «سوق الذكريات» و«ملامح من المجتمع السوداني» وبالطبع مذكرات بابكر بدري ، تساعد على سد بعض الفجوات بما قدمت من بعض الجوانب في حياة أهل السودان ، مما يكسب حقائق التاريخ مسحة انسانية [١] . ويبدو أن العبء سيقع على عاتق الروايات الشفاهية لتكملة ذلك النقص ، حتى يستطيع كتاب التاريخ أن يجعلوا الوثائق تقف على أقدام آدمية .

---

(١) حسن نجيلة ، ملامح من المجتمع السوداني . الجزء الأول (الخرطوم ١٩٥٩) . والجزء الثاني (الخرطوم ١٩٨٠) .

الطائفية :

جميع هؤلاء الكتاب لهم علاقة بالطائفية في السودان بدرجة أو أخرى ، وبالذات بطائفتي الختمية والأنصار. وقد كان لتلك الطوائف دورها المباشر في دعم الاستعمار البريطاني وتثبيت أقدامه في البلاد. وهذا الدور يوضحه نشاط تلك الطوائف والذي برز في بعض الأشكال الصارخة ، مثل سفر الولاء (١٩١٧) وسفر الوفد السوداني الى بريطانيا [(١)] . وتجلى أيضا في الدعم المادي الذي لقيه زعماء تلك الطوائف من الحكم الاستعماري ، حتى تحولوا الى ملاك أرض كبار ورأسماليين مقتدرين. وفي هذا الصدد يقول السيد عبد الرحمن المهدي «أرى أن الانجليز رغم أنهم مستعمرون ورغم أنهم غزوا بلادنا كما غزاها الأتراك من قبل ، لم نجد من الاستسلام للأمر الواقع وفوق ذلك فان الانجليز يتمسكون بالعدالة ما دامت نتائجها لا تتعارض تعارضاً ظاهراً مع مصالحهم [(٢)]» . وكرس الفصل الخامس من كتابة ليشرح كيف جمع ثروته في ظل الحكم البريطاني [(٣)] .

وكان البريطانيون يدركون مرامي أولئك الزعماء وحدود نفوذهم. فكتبوا عنهم يقولون «لا يستقيم عقلا أن يؤخذ رأي أولئك الزعماء الدينيين باعتباره الرأي الكامل النهائي الذي يمثل الرأي العام السوداني. فمن البديهي أن يكون أولئك الزعماء حريصين على زيادة نفوذهم في

---

(١) راجع : بشير محمد سعيد ، السودان من الحكم الثنائي الى انتفاضة رجب ، الجزء الأول الحلقة الثانية .

(٢) جهاد في سبيل الاستقلال ، ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

البلاد. وهم يقدرون تماماً قوة بريطانيا العظمى التي تمثلت في الانتصار النهائي في الحرب. ولذلك فان أملهم ان يلتحموا مع النفوذ البريطاني».

وقد وجدت الطائفية حيزاً كبيراً في تلك المذكرات واتصف تناولها بردود فعل متباينة تبايناً لا يخلو من تعصب. فيتحدث أحمد خير عن أول لقاء تم في نادي الخريجين لبحث اقتراح محدد هو التعاون مع الزعماء الدينيين. و«انعقدت مناظرة حامية وقام جدل عنيف وصريح بين المؤيدين والمعارضين للاقتراح... وسقط الاقتراح صريع هجوم شُنَّ عليه من طابورين: طابور المؤمنين بضرورة تحرير الفكر من النفوذ الديني من حيث المبدأ دون الالتفات الى ملابسات الزمان والمكان. وطابور آخر لا يعارض من حيث المبدأ بقدر ما يعارض لما يساور نفوس رجاله من شكوك عن أهداف الفكرة ودوافعها لأنهم كانوا يعتقدون أنها من إيحاء أحد المعسكرات الطائفية وتحقيقاً لرغبات رئيسها في ضم الجيل الحديث الى صفوف أتباعه». ويستمر أحمد خير فيقول: «ولقد بلغ التعصب ضد التعاون مع الزعماء الدينيين أن نادى فريق بعدم قبول الدار التي وهبها أحد الزعماء لتكون مقراً للنادي [١]».

أما خضر حمد فيرى أن جماعة الأ بروفيين التي ينضوي تحتها «يؤمنون تمام الايمان أن الطائفية هي وكر الاستعمار وسنده وفي نفس الوقت سلاحه الذي يحارب به في ميادين عديدة... كانت الطائفية كل شيء في نظر الحكومة وهي تريد بذلك أن تقوي من شأنها أو تصغر من شأن الطبقة المتعلمة» ويستمر ليقول ان المتعلمين أو الموظفين الكبار أصبحوا «حاشية للسادة وجمهوراً للطائفة... وكان الشباب منقسماً الى قسمين:

---

(١) أحمد خير، ص ٢٢ — ٢٣.

قسم جمع الذين لا يهمهم شيء فبعدوا عن الطائفية ... أما القسم الثاني فهو قسم أولئك الذين انساقوا مع الطائفية عن جهل ... وخلاصة القول إن الطائفية لم ينج منها الا القليل حتى الابروفيين فقد جرفهم التيار في انتخابات ١٩٤٣ ولكنهم ثابوا سريعاً الى رشدهم » وينتهي الى القول بأن « الطائفية قوية أو قل هي البلد كلها تجمعت في كتلتين [١] » .

ويخصص أبو حسبو جانباً من الفصل الرابع سماه « حرب الطائفية في السودان » . ويقسم الطائفية الى نوعين : الطائفية السياسية وهي التي تحولت الى العمل السياسي مستخدمة ولاء الناس لها استخداما سياسيا لا صلة له بالدين ، ودخلت في معارك سياسية من أجل السلطة والنفوذ . ثم يفصل في أمر هذه الطوائف أساساً الختمية والأنصار ثم الطائفية الهندية . أما النوع الثاني فسماه الطائفية غير السياسية والتي يرى أن لها وجها مشرقاً [٢] .

ويشن علي عبد الرحمن هجوماً على حزب الأمة وطائفة الأنصار فيقول : « أنشأ البريطانيون حزب الأمة ليكون ــ كما قال المستر نيوبولد السكرتير الاداري في ذلك الوقت ــ ترياقا ضد الحركة الوطنية ... ولعل الخطأ الكبير الذي ارتكبه البريطانيون ولم ينتبه له قادة حزب الأمة أن نشأة ذلك الحزب في أحضان بيت المهدي . وبالطبع إنهم قصدوا بذلك صبغة الحزب بالصبغة الطائفية (الأنصارية) لينضوي تحت لوائه كل الأنصار ومن يدينون بعقيدة المهدية في كل أرجاء السودان . ولم ينتبهوا

---

(١) خضر حمد ، مذكرات خضر حمد . الحركة الوطنية السودانية ، الاستقلال وما بعد ، (الخرطوم ١٩٨٠) ص٥٥ ــ ٥٨ .

(٢) أبو حسبو ، ص ٨٠ ــ ٨٤ .

الى أن هذه الصبغة الانصارية لا بد أن تجعل الآخرين الذين اكتووا بنار المهدية ورأوا وسمعوا بما قامت به من ظلم وعسف وسفك دماء وهتك أعراض مما جعلهم يكرهون حزب الأمة ويرون فيه خطر استعادة عهد المهدية مرة أخرى [١] » .

ولا يخفي أمين التوم اعجابه الشديد بالسيد عبد الرحمن المهدي وبانحيازه التام الى حزب الأمة ان لم نقل تحيزه الشديد . ولكنه في انحيازه ذاك يأتي بنماذج لتجارب ذاتية لها بعض القيمة . فهو يتحدث عن مرور السيد عبد الرحمن بمدينة بورتسودان عام ١٩٣٧ في طريقه الى لندن . ويقول أمين التوم « أما نحن في النادي فأقمنا حفل شاي فخماً تكريماً للسيد الإمام القيت فيه خطب وطنية قوية ، وكان السيد الامام ، كما أذكر ، مسروراً غاية السرور بهذا الحفل الذي أقامه له الخريجون في ناديهم . ويقول في موضع آخر « وفي هذه الفترة تألق الامام عبد الرحمن المهدي كزعيم وطني جليل وأصبحت داره في الخرطوم وداره في أم درمان وفي جزيرة أبا موئلا للأنصار من كل مكان في السودان ولكبار الخريجين وصغارهم من أبناء الأنصار ومن غير أبناء الأنصار وللشعراء يكتبون القصائد الرائعة في مدح الامام المهدي والمهدية والبطولات الخالدة في مدح الإمام عبد الرحمن [٢] » .

الحركة الوطنية وقضايا أخرى :

شهد السودان تطورات سياسية هامة قبيل الحرب العالمية الثانية حتى الفترة التي أعقبت ثورة أكتوبر . ولعل أهمها قيام مؤتمر الخريجين ، وظهور

---

(١) علي عبد الرحمن ، ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) أمين التوم ص ٤٠ وص ٤٥ .

الأحزاب السياسية ، والصراع من أجل استقلال السودان الذي تحقق عام ١٩٥٦ ، ثم انقلاب عبود في ١٩٥٨ وأخيرا أكتوبر وما بعدها . وقد لعب كل الكتاب الذين نحن بصدد الحديث عنهم أدوارا هامة في تلك الأحداث ، وإن تفاوت دور كل منهم بين هذا الحدث او ذاك .

ولست بصدد تناول ما جاء في تلك الكتب حول الأحداث لأن منهجهم في تناولها لا يختلف عن منهجهم في تناول النماذج التي ذكرتها . فقد خلا تناولهم من الجوانب الخاصة التي عاشها كل منهم أثناء تلك الأحداث ، مما جعل أغلبها اما مقالات سياسية أو دفاعاً حاراً أمام محكمة التاريخ لمواقف لا يجدي الدفاع عنها .

على أننا نلاحظ أن غالبية هذه المذكرات كانت حول تاريخ الحركة الوطنية والاستقلال .

ــ جهاد في سبيل الاستقلال
ــ الحركة الوطنية السودانية ، الاستقلال وما بعده
ــ جانب من تاريخ الحركة الوطنية في السودان
ــ على طريق الحركة الوطنية السودانية .. الخ .

ولكن لماذا هذا التركيز؟ ان هذا الجيل لعب دوره الأساسي في تطور الحركة الوطنية وفي معركة الاستقلال . ولكن اتصف تقييمهم لمعركة الاستقلال بالتباين الشديد . فعندما نقرأ للسيد عبد الرحمن وأمين التوم نرى أن حزب الأمة هو الذي قاد معركة الاستقلال . وعندما ننتقل الى خضر حمد وأبي حسبو نرى أن الأحزاب الاتحادية هي التي تصدت لقيادة تلك الحركة . كما أن تضخيمها للأدوار الفردية يقف حائلاً بينها وبين التفاعل مع تلك المذكرات .

على أن تلك المذكرات على اختلاف مواقفها اهتمت بالنشاط الفوقي للحركة الوطنية. ولم يقدم أي منها وصفا لدور الناس من أجل المعركة ضد الاستعمار البريطاني. وانصب دفاعهم إما عن شعار « السودان للسودانيين » أو « وحدة وادي النيل » . ولعلهم بهذا قدموا صورة صادقة لنشاطهم الذي اتصف بالفوقية وبالمناورات السياسية التكتيكية والصفوية.

ما هي قيمة تلك الكتب كمصدر لدراسة التاريخ؟

من النماذج التي قدمتها من تلك الكتب ومقارنتها مع ما ذكره د. احسان عباس عن السيرة الذاتية يتضح لنا الآتي:

١) أهملت الجوانب الشخصية التي هي قنوات اتصال بين الكاتب والقارىء.

٢) ضخمت من دورها في الاحداث.

٣) جنحت نحو التبرير.

٤) سيطر عليهم هاجس الصراعات السياسية.

ويمكننا أن نخلص الى القول بأن قيمة غالبية هذه الكتب كمصدر للتاريخ ضعيف، وبعضها لا قيمة له.

الخلفية التاريخية*
لثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤
خواطر حول تاريخ
الحركة السياسية السودانية

(*) نشرت هذه الدراسة على حلقات في جريدة الميدان اليومية التي يصدرها الحزب الشيوعي السوداني، وذلك عام ١٩٨٧.

(١)

عندما نتناول حدثا تاريخيا لندرسه فان ذلك التناول لا يبدأ عند الساعة التي وقع فيها ذلك الحدث، ولا تتم دراسته بمعزل عن الظروف التاريخية التي أتت به. مثل هذه المعالجة الأحادية تؤدي الى تشويه التاريخ والى الخوض في المغالطات، لأن منطلقها ذاتي. والذاتية مدعاة للمغالطة واللجاج، والبعد عن المنهج العلمي الموضوعي والذي يرتكز على التناول الشمولي والغوص عميقاً الى القاع الصلد الذي انبجس منه ذلك الحدث.

ونجد على ايامنا هذه بعض الكتابات عن ثورة ٢١ اكتوبر تأخذ طابعاً غير علمي ولا تاريخي. فبعض الاحزاب بل والافراد يسعون الى تضخيم دورهم التاريخي، واضفاء صفات على مواقفهم ليس لها أي بعد تاريخي. ان ثورة اكتوبر ليست حدثاً معزولاً عن مجرى الحركة الوطنية السودانية، بحيث تصبح مواقف الانتماء اليها والاغتراب عنها أو البعد والاقتراب منها هي بنت اللحظة. فليست ثورة اكتوبر أمراً فجائياً مثل انفجار البراكين والاعاصير التي تأخذ الناس على حين غرة.

هذه الصفحات محاولة لتتبع الجذور التاريخية لثورة اكتوبر حتى قبيل اندلاعها، لعل في هذا التتبع ما يساعد على فهم الحدث ساعة وقوعه. فنتناول أولاً الوضع في السودان منذ بدايات الاستقلال على أيام الحكم الذاتي حتى قيام الحكم العسكري الاول. وننتهي بتوضيح معالم ذلك الحكم العسكري وأبعاد المقاومة الشعبية له، ونتابع أمواج الغضب التي كانت تتدافع نحو الانفجار حتى جاءت ثورة اكتوبر وتوجت ذلك النضال.

خرج أهل السودان من القرن التاسع عشر الى رحاب القرن العشرين وليس لهم من زاد في تلك الأيام الحالكة السواد الا تراث المقاومة وتراث توحدهم ساعة الشدة ، فاختزنوهما في ركن عزيز من ذاكرتهم .

فقد شهدت البلاد بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٥٣ أشكالاً مختلفة من المقاومة للاستعمار ، وشهدت محاولات لتوحيد الصف . وكان انجاز تلك المقاومة واسهامها في مجرى الحركة الوطنية السودانية ، نتاج عوامل شتى بعضها داخلي وبعضها خارجي ايضا . ولا شك ان ما كان يتم من توحد بين مختلف القوى الاجتماعية كان من العوامل التي حددت درجة ذلك الانجاز. فالحركات الدينية والقبلية التي صادمت الاستعمار بين ١٩٠٠ و١٩٢٣ كانت حركات معزولة وأغلبها محلي الطابع ولم تنشأ بينها وحدة . فكان أغلبها يستلهم تراث المهدي المنتظر دون أن تكون المرحلة التاريخية مهيأة لظهور دعوة مهدية .

ولكن تلك الحركات حافظت على جذوة النضال وكانت استمراراً لتراث المقاومة . وكان من أسباب هزيمة ثورة ١٩٢٤ انها لم تستنفر القوى الاجتماعية المختلفة ولم توحدها . وما كان لها موضوعياً ان تقوم بمثل ذلك الدور. ولكنها فاقت الحركات التي سبقتها بخروجها من الاطار الديني والقبلي ، وارتكازها على قاعدة اجتماعية أكثر اتساعاً من الحركات السابقة . وكان مؤتمر الخريجين حركة متقدمة في مقاومة الاستعمار. فقد جمع فصائل متعددة من الخريجين يمثلون مختلف القوى الاجتماعية ولكن قيادته فشلت في دفع تلك الوحدة الى حلبة المناطحة مع الاستعمار .

ان محاربة الاستعمار الأجنبي كان يمكن ان تجمع الشتات منذ ذلك الوقت لولا بروز شعارات تعبر عن افلاس القيادة السياسية التي كانت تقود العمل السياسي وتحمل طموحات البرجوازية السودانية ، فكان انجاز مؤتمر الخريجين نتاج عوامل مختلفة منها درجة الوحدة التي شيدها .

وشهدت الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) مقاومة للاستعمار اكثر وعياً في مضمونها وأكثر اتساعاً في قاعدتها واكثر انضباطاً في تنظيمها . فظهرت الأحزاب السياسية وبرز العداء للاستعمار الأجنبي أفقاً عريضاً تلتقي تحت لوائه القوى السياسية رغم تباينها الشديد . ومن فوق تجارب المقاومة التي امتدت نصف قرن ومن فوق تجارب الوحدة التي تتم هنا وهناك ، خرج أهل السودان معا عام ١٩٥٣ ليدخلوا فترة الحكم الذاتي والاستقلال .

لقد كان تحقيق الاستقلال عملاً مشتركاً قام به أهل السودان بمصادمتهم للاستعمار وبوحدتهم ، ولم يكن انجاز فئة أو مجموعة حتى تزايد به واحدة على الأخرى . وهذا ما دفع عبد الخالق محجوب ليكتب في ١٩٥٨/١١/٢٤ قائلاً «وكان النصر الأول في يناير ١٩٥٦ للشعب حينما استقلت بلادنا وخرجت جحافل المستعمرين وقد دفع الشعب في هذا ثمناً غالياً وليس كما يقول مزيفو التاريخ والمحقرون لشعبنا من أن الاستقلال جاء هبة ومنحة لنا . لقد سقط أجدادنا وآباؤنا وهم يحملون علم الاستقلال في كرري ، وسقط شهداؤنا في الحلاويين . وواجه الرصاص وطنيون عام ٢٤ ، ثم ضرج ثرى عطبرة وبورتسودان شهداء الجمعية التشريعية الأبطال ، لقد كتب وطننا كراهيته للمستعمرين بالدم والتضحية » .

في عام ١٩٥٤ نال السودان الحكم الذاتي، وتكونت في مطلع ذلك العام أول حكومة وطنية برئاسة المرحوم اسماعيل الازهري، ولكن السيادة ظلت في يد الحاكم العام البريطاني فهو رأس الدولة. وبقيت السياسة الخارجية والدفاع في يد الحكم الاستعماري. وما زال جيش الاحتلال باقياً فوق ثرى الوطن. هذا هو الحكم الذاتي. وهو يعني أن يعطى السودانيون الفرصة ليجربوا مقدرتهم على حكم بلادهم، فهو شبيه بالمرحلة الانتقالية. ثم يجري في نهاية فترة الحكم الذاتي استفتاء يقرر على ضوئه أهل البلاد المصير الذي يريدون. وقد ناضلت شعوب المستعمرات طويلاً لتنال حق تقرير المصير هذا.

استمرت فترة الحكم الذاتي حتى نهاية ١٩٥٥. وشهدت أزمات عميقة ومنعطفات حادة. وكان أولها حوادث مارس ١٩٥٤ المؤسفة. وكان حزب الأمة قد انهزم في الانتخابات التي أجريت قبل شهر. فقد حصل الوطني الاتحادي على خمسين مقعداً والأمة على ثلاثة وعشرين والمستقلون على اثني عشرة مقعداً والجنوب على تسعة مقاعد والاشتراكي الجمهوري (حزب زعماء العشائر المتحالفين مع الاستعمار) على مقعدين والجبهة المعادية للاستعمار (تحالف الديمقراطيين والشيوعيين) على مقعد واحد. وكانت تلك النتيجة مثار دهشة ليس لحزب الأمة فحسب بل للانجليز الذين راهنوا على فوزه.

ثم تمت دعوة اللواء محمد نجيب رئيس مجلس الثورة المصري للسودان لحضور الافتتاح الرسمي للبرلمان. وكان حزب الأمة قد حشد حوالي ٤٠ ألفاً من أنصاره في العاصمة. ووقع الصدام المؤسف الذي راح ضحيته أرواح من الانصار والبوليس. ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي

يستخدم فيها «عنف البادية» في الحياة السياسية وما كانت الأخيرة. ولسنا بصدد دراسة وتقييم أحداث مارس. ولكن مهما كانت دوافعها فقد هزت التجربة الديمقراطية الوليدة، وأحدثت استقطاباً حاداً في الحياة السياسية.

وشرعت حكومة الوطني الاتحادي في تنفيذ السودنة وذلك باستبدال الموظفين البريطانيين بكوادر سودانية. وكانت السودنة من المهام الملحة لفترة الحكم الذاتي. وقد تم انجازها رغم الصعوبات التي حفت بها. فقد تم سودنة ٨٠٠ وظيفة نال منها الجنوبيون ست وظائف. وما كان للسودنة ان تمضي دون ان تثير بعض القضايا. فهل السودنة هي استبدال حاكم بريطاني بآخر سوداني دون المساس بقوانين الحكم الاستعماري ذاتها، حتى يستطيع الكادر السوداني في السلطة ان يمارس الحكم ويدير جهاز الدولة في مناخ وطني ديمقراطي؟ وهلا عنت السودنة اشراك جماهير الشعب في الحكم، لا ان يصبحوا مطية للقوانين الاستعمارية وورثتها من البيرقراطيين السودانيين؟ ام ان القوى الاجتماعية التي تسلمت زمام الحكم تريد ممارسة السلطة بنفس القوانين الاستعمارية القمعية؟

ولا شك ان قضية الحريات والغاء القوانين المقيدة لها من القضايا الملتهبة التي ظلت تثار طوال فترة الحكم الذاتي. وكانت من القضايا التي جذبت اليها فئات وقوى اجتماعية عريضة فتكونت الهيئة الشعبية الدائمة للدفاع عن الحريات وكان من أبرز نشاطاتها تلك المذكرة التي رفعتها الى رئيس الوزراء يوم ١٩٥٤/٣/٢٣ تطالب بالغاء قانون النشاط الهدام. وقد وقع المذكرة سكرتير اتحاد الصحافة ورئيس اتحاد طلاب كلية الخرطوم الجامعية ورئيس اتحاد العمال ورئيس اتحاد المزارعين ورئيس

اتحاد مزارعي جبال النوبة ورئيس اتحاد نقابة موظفي ومستخدمي البريد والبرق ونقابة المحامين واتحاد الجامعيين ورؤساء غالبية الصحف. وفي ١٩٥٥/١/٢٤ تقدم رؤساء جميع الصحف بمذكرة تطالب أيضاً بالغاء القوانين المقيدة للحريات.

فقضية السودنة وقضية الحريات قضيتان لا تنفصلان. ان خروج الاستعمار، لا يعني نهاية التسلط ما لم تلغ القوانين التي تتسلط على رقاب الناس.

وبدأت الحالة الاقتصادية تتردى. وكان الناس يتوقعون ويأملون ان تتحسن حالهم بعد الاستقلال الذي ناضلوا من أجله طويلاً. فها هو المستعمر الذي كان يسلب خيرات البلاد قد خرج وخلفته حكومة وطنية. فهل الاستقلال هو الهدف النهائي والمحطة الأخيرة في درب الصراع الطويل؟ أم هو وسيلة يريد بها الناس تحسين أوضاعهم وتطوير مجتمعهم؟ وهل الاستقلال هو تبديل حاكم أجنبي بحاكم سوداني وما على أهل البلاد الا أن يسبحوا للحاكم الجديد لمجرد أنه من جلدتهم؟ صحيح أن خروج المستعمر كان انتصاراً كبيراً لأهل السودان، ولكن هل يظل الناس أسرى ذلك النصر أم يتخذون منه وقوداً لدفع عجلة الحياة؟

كان الحزب الوطني الاتحادي قد رفع شعاراً للمرحلة ينادي «تحرير لا تعمير» وكأنما هما نقيضان، بينما التحرير ينجز ويرسخ بالتعمير. ان التحرير الحقيقي لن يتم الا بالانسلاخ من النظام الرأسمالي العالمي والانفلات من قبضة رأس المال. وهي معركة طويلة المدى. والخطوة الاولى في درب التعمير هي وضع الأساس لبناء الاقتصاد الوطني.

وفي أغسطس عام ١٩٥٥ انفجرت مشكلة الجنوب عندما تمردت الفرقة الاستوائية الثالثة لقوة دفاع السودان. وسقط قتلى من الشماليين وسقط قتلى من الجنوبيين. وكادت الأحداث أن تؤدي الى انهيار وفشل فترة الحكم الذاتي. وتجاوز أهل السودان الأزمة، ولكنها تركت جرحاً غائراً في جسد الشعب السوداني لم يندمل حتى يومنا هذا. وأصبحت مشكلة الجنوب هي البؤرة الساخنة في الحياة السياسية السودانية.

وكلما برزت ارهاصات حل للمشكلة ارتفع السلاح مشهراً في وجه ذلك الحل، سواء كان تمرداً عسكرياً أو حركة عسكرية أو مناداة بالردع العسكري. فتكفهر السماء بعواصف التعصب والانفعال والاستعلاء تدفع بها شهوة الاستغلال الطبقي. ولعل الحزب الشيوعي السوداني أول حزب سياسي يبادر بطرح المشكلة بعيداً عن ذلك الجو رافعاً صوته فوق الأمواج.

ففي الكتيب الذي نشره الحزب عام ١٩٧٧ بعنوان «الحزب الشيوعي ومشكلة الجنوب» جاء ما يلي: «فمنذ الخمسينيات وعندما كان ساسة الجنوب يلهثون خلف الاحزاب التقليدية وقصر الحاكم العام بحثا عن ضمان صيغة الفدريشن للجنوب. كانت المجموعة الاولى للشيوعيين الجنوبيين بقيادة جوزيف قرنق تسهم مع الحزب الشيوعي السوداني في صياغة شعار الحكم الذاتي الاقليمي للجنوب، لا في شكل صفقة سياسية بل كحل سياسي واجتماعي لمشكلة موضوعية.. ولما اندلعت نار التمرد وتحول السودان شماله وجنوبه الى بيت مأتم وغلت مشاعر الانتقام القومي، ارتفع صوت الحزب الشيوعي في شجاعة ليعيد الناس الى رشدها، داعياً لوقف حمامات الدم وحرب الابادة وتقديم المسؤولين عن التمرد الى محاكم يسودها حكم القانون، واهاب بالحكومة والشعب

الاعتراف بالواقع وتطبيق الحكم الذاتي الاقليمي لقطع الطريق أمام الاستعمار» .

وبينما كانت الازمات تتفجر في طريق الاستقلال ، كانت الأحزاب السياسية الحاكمة تتصارع صراعاً فوقياً من أجل كراسي السلطة .

وأخذت الانقسامات تدب في جسدها . وفي ديسمبر ١٩٥٤ طفحت الأزمة الى السطح في الحزب الوطني الاتحادي . وكان الحزب الوطني الاتحادي قد تكون عام ٥٢ من مجموعة من الأحزاب الاتحادية التي نشأت في الاربعينيات «الاشقاء ، الاتحاديون ، الاحرار الاتحاديون ، ووحدة وادي النيل . » وقد تمت تلك الوحدة لمواجهة التطورات السياسية التي طرأت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر . ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي تجري فيها محاولة لتوحيد الأحزاب الاتحادية . ويذهب الاستاذ عثمان حسن احمد الى أن الوحدة التي تمت عام ١٩٥٢ كانت على عجل وكان لا بد للحزب الوطني الاتحادي ان يدفع ثمنها يوما ما . فقد تكون الحزب وهو يحمل في احشائه احزاباً وأحزاباً وتناقضات كبيرة .

وظلت تلك التناقضات كامنة تحت قشرة هشة سرعان ما تهشمت تحت وطأة الصراعات الفوقية . ففي ديسمبر ١٩٥٤ قام السيد اسماعيل الازهري بفصل ثلاثة من قيادة الحزب من اعضاء وزارته . فكونوا لتوهم حزب الاستقلال الجمهوري ، وبدأ الصف الوطني يتصدع . وعندما اطل عام ١٩٥٥ تفاقمت الصراعات الفوقية . ففي يونيو تم فصل محمد نور الدين نائب رئيس الحزب وابعد ثلاثة من محرري جريدة العلم وهم الدكاترة : احمد السيد حمد وعقيل احمد عقيل ومحي الدين صابر « دكاترة العلم كما كانوا يسمون » .

ثم انتقل الصراع الى اللعبة البرلمانية. وفي يوم ١٩٥٥/١١/١٠ تم سحب الثقة من حكومة اسماعيل الأزهري «٤٩ صوتا مقابل ٤٥». وتقدم أزهري باستقالته للحاكم العام. وبعد خمسة أيام اجتمع البرلمان وانتخب أزهري للمرة الثانية «٤٨ صوتا مقابل ٤٦» وذلك بعد ان أعاد الحزب الى حظيرته ثلاثة من نوابه الذين تمردوا عليه في التصويت الاول. هكذا كانت اللعبة البرلمانية التي أضرت بالتجربة الديمقراطية ايما ضرر.

وتفاقم الصراع في الحزب الوطني الاتحادي ثم انفجر في يونيو ١٩٥٦ عندما استقال ٢١ نائبا منه وكونوا حزب الشعب الديمقراطي برئاسة الشيخ علي عبد الرحمن. واعلن السيد علي الميرغني مباركته للحزب الجديد ووضح طبيعته في بيان صدر يوم ٥٦/٦/٢٨ جاء فيه «الى جميع طبقات الشعب على وجه العموم والى جماهير الختمية على وجه الخصوص نتوجه بالتحية المباركة الطيبة ونعلن مباركتنا للحزب السياسي الجديد حزب الشعب الديمقراطي لعلمنا بان الختمية قد استقر رأيهم على ضرورة تكوين جهاز سياسي من العناصر الصالحة والساسة المخلصين ليضم جماهيرهم ومحبيهم من جماعات الطوائف الصوفية وغيرهم» وكان البيان من أكثر البيانات السياسية التي صدرت من السيد علي وضوحاً.

وتحالف حزب الشعب الديمقراطي فوراً مع حزب الامة وتم اسقاط حكومة اسماعيل الازهري. وتكونت حكومة جديدة برئاسة عبد الله خليل في ٥٦/٧/٥ والتي عرفت بحكومة السيدين وانتقل ازهري الى المعارضة بعد سبعة أشهر من الاستقلال. ولا شك ان سقوط حكومة ازهري قد احدث احباطا كبيراً لدى فئات البرجوازية المستنيرة في مواقع الانتاج الحديث، خصوصا وهي ترى ان القيادات الطائفية اصبحت هي التي تسير السياسة في البلاد. ولا شك ان الصف الوطني اصابه شرخ كبير.

وانفجر الصراع حادا بين الحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديمقراطي واخذت صحيفة العلم تشن هجوماً عنيفا على شخص السيد علي. ولم يكن نقدا موضوعيا مؤسسا بل كان هجوما جنح نحو المهاترات والشعارات الجوفاء مثل «الكهنوت مصيره الموت» و«مصرع القداسة على اعتاب السياسة». ولذلك لم يساعد في توعية جماهير الحزب. كما احدث اثرا عكسيا لدى جمهرة الختمية. ولعل قيادة الوطني الاتحادي قد فاتها ان الطائفية لا تحارب بالهجوم الشخصي. وان شخصية الزعيم الصوفي راسخة في نفوس مريديه، وستظل كذلك ما دام الجهل وتدني مستوى العيش وفجائية الحياة في المجتمع الرعوي هي التي تكيف مصير السواد الأعظم من أهل البلاد، وقد عبر السيد علي عن بعض المرارة من ذلك الهجوم. فعندما بدأت مستقبلاً المحاولات الاولى للمصالحة مع الوطني الاتحادي استشهد ببيت من الشعر لأبي نواس يقول فيه:

لا اذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره

ولأن الصراع لم يكن على أسس مبدئية، فقد بدأت المياه تعود الى مجاريها بين الحزبين خصوصاً وان العلاقة بين حزب الشعب الديمقراطي وحزب الأمة بدأت تتوتر.

فقد بدأ الصراع القديم المستتر بين السيد علي والسيد عبد الرحمن أو بين الختمية والانصار يطل من جديد. واخذ يحدث شروخا في حكومة السيدين. ولكن عندما اجريت الانتخابات في مطلع عام ١٩٥٨ دخلها الحزبان متحالفين. وحصل حزب الأمة على ٦٣ مقعداً وحزب الشعب على ٢٦ والحزب الوطني الاتحادي على ٤٤ والجنوبيون على ٤٠ وحصل

الحزب الوطني الاتحادي على اكبر عدد من أصوات الناخبين لأن نفوذه يقع في مناطق الكثافة السكانية، ولكنها لم تعط وزنا كما حدث في الانتخابات الاولى.

تكونت بعد الانتخابات حكومة السيدين الثانية برئاسة عبدالله خليل. ولكن الصراع بين الحزبين الحاكمين بدأ يتصاعد فأخذ حزب الأمة يسعى للتقارب مع أزهري وبدأ حزب الشعب من جانبه ايضا يسعى نحو أزهري وادرك ازهري وزنه في لعبة التوازن السياسية فلعب دوره بمهارة في الحكومات التي تكونت بعد ثورة اكتوبر. وأخذت المعارضة ضد الحكومة تشتد في الشارع، وبالذات ضد المعونة الامريكية. وكان من المقرر ان يجتمع البرلمان صباح ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ وكان معلوماً ان ذلك الاجتماع سوف يسقط حكومة عبدالله خليل. وفي فجر ذلك اليوم وقع الانقلاب العسكري. لقد أدت الصراعات الفوقية والانقسامات الى إضعاف التجربة الديمقراطية.

وفي تلك الظروف كان الحزب الشيوعي يكثر من الدعوة الى ضرورة الوحدة الوطنية من أجل المحافظة على الاستقلال وتعزيزه وحماية الديمقراطية. فتحدث عبد الخالق محجوب في ليلة سياسية في عطبرة في مايو ١٩٥٦ داعياً الى تكوين جبهة وطنية من الوطني الاتحادي والختمية والجبهة المعادية للاستعمار والشيوعيين والعناصر المختلفة وذلك من اجل تأمين الاستقلال ومقاومة الاحلاف. كما ندد بالخلاف بين الختمية وقيادة الوطني الاتحادي، ووصفه بأنه صراع من أجل السلطة ولا يخدم غرضا وطنيا، وفيه تفتيت للقوى التي حاربت الاستعمار.

واصدر الحزب الشيوعي بياناً في ٥٦/٦/١٥ باسم المكتب السياسي

جاء فيه « ان الحالة المؤسفة التي وصلت اليها البلاد من جراء الانقسام الراهن بين القوى الوطنية تدعونا لمخاطبتكم بضمير مخلص .. لخلق الظروف الملائمة لتخفيف حدة التوتر القائمة الان وايجاد نقاط اتفاق مشتركة تدفع بعوامل الانقسام الى الخلف مما يساعد بدوره على بناء وحدة وطنية تحمي الوطن وتعزز استقلاله .. اننا ننظر بعين القلق الى المصير المظلم الذي يمكن ان تصل اليه بلادنا العزيزة اذا ما قدر لحالة الانقسام الراهنة ان تستمر . « ثم تقدم المكتب السياسي في ذلك البيان بمشروع ميثاق جاء فيه :

١) عدم تغول معسكر او طبقة في الاستئثار بمفاخرات الجهاد من اجل الاستقلال .

٢) احترام العقائد والمذاهب والانتماءات الحزبية ومساواة الجميع في الحقوق الديمقراطية والسماح للجميع بممارسة نشاطهم دون اضطهاد قسم بسبب العقيدة او المذهب أو الانتماء الحزبي .

٣) السعي لايجاد نقاط اتفاق بين جميع الاحزاب والهيئات والطوائف على أساس المبدأ الأساسي وهو تعزيز الاستقلال السياسي ..

وفي يوليو ١٩٥٦ بعث حزب الجبهة المعادية للاستعمار بمذكرة الى رؤساء الاحزاب واعضاء البرلمان تدعوهم الى تكوين حكومة قوية لتواجه مرحلة تعزيز الاستقلال الوطني والدفاع عنه وصيانته . وترى المذكرة ان إبعاد العمال والمزارعين وحزب الجبهة مهما كان حجمهم خطير ، لأن المهم هو مضمون الوحدة الذي سيؤدي لانقسامات اكثر حدة وأبعد عمقاً في المستقبل .

واستمر الحزب الشيوعي وحزب الجبهة يضربان على وتر الوحدة بلا

كلل . ففي ٥٨/١/٢٧ اصدرت سكرتارية الجبهة المعادية للاستعمار بياناً إبان المعركة الانتخابية جاء فيه « دخلنا المعركة الانتخابية .. لتوحيد القوى الوطنية في احزابها وهيئاتها لهزيمة خطط التدخل الاستعماري .. ليست القضية في نظرنا اليوم هي هزيمة حزب الشعب الديمقراطي او الوطني الاتحادي وانما هي هزيمة الحزبين لتأييدنا في هذه القضية الشريفة التي تمثل حقاً مصالح بلادنا الوطنية بدلاً من دعوتنا لتعميق الانقسام في المعسكر الوطني .. بانحيازنا الى جانب ضد آخر .. » وترى الجبهة ان الحزبين وطنيان بنفس المستوى . وفي ٥٨/٣/١٢ صدر بيان آخر من الجبهة في نفس الاتجاه حيث جاء في ختامه « اننا نطلب منكم يا مؤيدي حزب الشعب والوطني الاتحادي ان ترفعوا اصواتكم عالية الى جانبنا مطالبين بالوحدة فوراً بين نواب الحزبين داخل البرلمان وجماهيره في الخارج . « ورأت الجبهة في تقييمها للانتخابات التي اجريت .. ان السبب الأساسي لهزيمة القوى الوطنية يرجع الى تفككها وتشتتها وعدم دخولها المعركة في جبهة واحدة » .

لقد كانت وحدة القوى الوطنية هي هاجس الحزب الشيوعي وحزب الجبهة . فقد ادرك اليسار السوداني بحسه التاريخي ان الوحدة هي الضمان لتعزيز الاستقلال وحماية السيادة الوطنية التي كان يهددها الاستعمار الجديد بأساليبه المستحدثة . وكان اكثر تلك الاساليب خطورة الاحلاف العسكرية . وكان اكثرها تهديداً مباشراً ما عرف « بمشروع ايزنهاور » . كانت الدعوة له تشتد . فجاء نائب الرئيس الامريكي ريتشارد نكسون الى السودان ليبشر بذلك الحلف ويرتب له . فقام الحزب الشيوعي والجبهة بتعبئة الشارع وخرجت المظاهرات تهتف « عد لبلادك يا نكسون » ثم انفجرت ازمة قناة السويس عام ١٩٥٦ وتم الاعتداء

الثلاثي على مصر بواسطة بريطانيا وفرنسا واسرائيل وتصاعدت مشاعر العداء للاستعمار وانفرز الصف الوطني المعادي للاستعمار من الصف المساند له. وكانت هذه الازمات تفاقم الصراع بين الحزبين. واخذت المسافة بين حزب الشعب وحزب الامة تتباعد.

ثم جاء مشروع المعونة الامريكية وهي احدى مخالب الاستعمار الحديث. وقد عارضها الوطني الاتحادي ولعبت الجبهة المعادية للاستعمار دوراً كبيراً في التعبئة ضدها. ولكن البرلمان اجاز برنامج المعونة الامريكية في ٥٨/٦/٣ بأغلبية ١٠٤ ضد ٥٧. فقد وقف بجانبها حزب الأمة والشعب الديمقراطي. وعارضها الوطني الاتحادي وانقسم الجنوبيون بين الكتلتين. وعقب ذلك مباشرة اعطت الحكومة البرلمان عطلة لأن سحائب المعارضة كانت تتجمع ضد حكومة عبدالله خليل وبات مؤكدا انه سيسحب الثقة منها اذا ما قدر له ان يجتمع وظل البرلمان في عطلة ولم يجتمع بعد ذلك ابدا.

وفي ٢١ اكتوبر ١٩٥٨ وقع حادث له دلالات عميقة. فقد سير العمال في ذلك اليوم موكبا ضد سياسة الحكومة وضد امريكا. وكانت الشرطة قد اغلقت شارع القصر حتى يسهل سير الموكب. وفي هذا الاثناء جاء السفير الامريكي بعربته الرسمية وبها علم بلاده واصر على عبور شارع القصر مخترقا الموكب. وكان التصرف استفزازيا ولكن العمال تداركوا الامر وتم احتواؤه. وارسل رئيس اتحاد العمال مذكرة الى وزير الداخلية يحتج فيها على ذلك التصرف قائلاً: «كان موكب العمال يصرخ بالعداء السافر ضد السياسة الامريكية المخربة للضمائر والمعادية للاستقلال وامن الشعوب الصغيرة. ولا شك ان التصرف غير المسؤول

الذي سلكه سفير امريكا يعتبر تحديا صريحا لموكب العمال » . ومضت المذكرة الى وصف السفير بأنه كان يظن انه يتجول في نزهة ترفيهية في احدى ولايات امريكا .. وعلقت جريدة الميدان في عددها رقم ٣٨٦ على الحادث قائلة ان السفير عرض نفسه للموت لتجد امريكا وحزب الامة في ذلك فرصة لكبت الحريات وحركة المقاومة .

لقد بات جليا ان الحكومة لن تستطيع ان تحافظ على اغلبيتها في البرلمان . وانها ستسقط حتما اذا اجتمع البرلمان لأن الائتلاف اصبح على شفا جرف هار . كما ان المقاومة الشعبية ضد سياستها وضد النفوذ الامريكي قد اشتدت واخذت تتبلور في شكل جبهة عريضة ووصلت الازمة مرحلة المواجهة وفي هذا الجو وقع الانقلاب العسكري .

(٢)

وكانت الاستعدادات للقيام بالانقلاب قد بدأت قبل فترة . وكان اكثر الخطوات جدية ذلك الاجتماع الذي عقد بمنزل السيد الصديق المهدي في حوالي سبتمبر ١٩٥٨م وحضره السيد الصادق وعبدالله خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع وابراهيم عبود القائد العام وثلاثة من كبار الضباط هم احمد عبد الوهاب وحسن بشير وعوض عبد الرحمن صغير . وحضره ايضا زين العابدين صالح .

وكان رأي السيد الصديق ان يتولى احد ضباط الجيش وزارة الدفاع ، ولكنه اعترض على الرأي الذي يقول بتولي الجيش زمام الحكم . ويقول ابراهيم عبود في اقواله التي ادلى بها بعد انهيار حكمه أن عبدالله خليل وزير الدفاع طلب منه استلام السلطة قبل انعقاد البرلمان في ١٩٥٨/١١/١٧

وقام عبود بدوره بتكليف احمد عبد الوهاب وحسن بشير بوضع الخطة العسكرية . واستمر عبدالله خليل يوالي اتصالاته بعبود ليطمئن على تنفيذ الخطة الانقلابية . وفي يوم ١٩٥٨/١١/١٦ صدرت الاوامر للجيش ليكون في حالة استعداد .

لعل جريدة الميدان أول من نبه الى احتمالات وقوع انقلاب في البلاد . فقد نشرت مقالاً بتاريخ ٥٨/١١/٣ بعنوان : « افتحوا عيونكم جيدا : الامريكان يستعدون لتدبير الانقلاب المقبل في السودان . » وتحدث المقال عن ثلاثة أنواع من الانقلابات :

١) انقلابات رجعية يدبرها الاستعمار الامريكي ضد حكومات وطنية مثل ما حدث في جواتمالا والارجنتين ، ومثل ما حدث في ايران ضد حكومة مصدق .

٢) انقلابات تقوم بها جيوش متشبعة بالروح الوطنية ضد نظم الحكم الموالية للاستعمار مثل انقلابات سوريا ومصر والعراق .

٣) ولكن وقعت مؤخرا انقلابات دبرها الاستعمار الامريكي ضد انظمة رجعية موالية له . فقد رأى الاستعمار الامريكي ان الحكومات في سيام وبورما وباكستان اصبحت ضعيفة أمام هجوم القوى الوطنية عليها ولم يعد في امكانها تنفيذ السياسة الاستعمارية المرسومة فسارعت امريكا واسقطت تلك الحكومات قبل ان يسقطها الشعب . وجاءت بعناصر اقوى واقدر على تنفيذ سياستها وسلمتها مقاليد الحكم عن طريق انقلاب عسكري . وتنبأ المقال بحدوث نفس الانقلاب في السودان . وهو تنبؤ اثبتت الايام صحته ووضحت القدرة على استقراء الاحداث بذهن ثاقب .

ويبدو ان التحركات التي كانت تجري داخل الجيش قد طفحت الى

الشارع. وكان حديث المجالس في تلك الايام عن الانقلاب. بل اثير الامر في بعض الصحف. فقد نشرت جريدة الايام في عددها رقم ١٥٤٣ والذي صدر صباح نفس اليوم الذي وقع فيه الانقلاب خبراً يقول بأن هناك استعدادات في الجيش وان الاسباب الرسمية لها لم تعرف ولكن من المحتمل ان يكون ذلك لان اليوم هو افتتاح البرلمان وصدرت جريدة الميدان صباح نفس اليوم وهي تحمل خبراً رئيسياً عن تحركات مريبة في الجيش وفي الفجر استلم الجيش السلطة. واذاع الفريق ابراهيم عبود البيان الاول وتم تكون المجلس العسكري من كبار الجنرالات وشكلت الحكومة من العسكريين وبها خمسة وزراء مدنيين. وكان الامر برمته عملية تسليم وتسلم.

واتخذت الحكومة العسكرية عدداً من الاجراءات الخطيرة اهمها: تعطيل الدستور، حل البرلمان، حل الاحزاب، منع الاجتماعات والتجمعات والمواكب والمظاهرات، وقف صدور الصحف لحين صدور أمر من وزير الداخلية، تعطيل النقابات والاتحادات على رأسها اتحاد العمال ونقابات العمال. وقام البوليس بالاعتداء على مقر جريدة الطليعة الناطقة باسم اتحاد نقابات عمال السودان. ووضع قيادات الاحزاب والوزراء تحت الحراسة المنزلية. واعلنت حالة الطوارىء ثم صدر قانون دفاع السودان والذي يعاقب بالاعدام والسجن كل من يقوم بتكوين احزاب أو يدعو للاضراب او الكراهية ضد الحكومة. كما صدرت لائحة دفاع السودان التي تعطي وزير الداخلية سلطات بوليسية واسعة في التفتيش والاعتقال. لقد كانت تلك الاجراءات هجمة شرسة على الديمقراطية وعلى المنظمات الديمقراطية. وهكذا تم تقنين الدكتاتورية العسكرية.

فماذا كان رد الفعل تجاه الانقلاب ؟ لقد تفاوتت ردود الافعال ؛ اما عامة الناس فقد اندهشوا في البداية لما جرى . فلم يعرف أهل السودان الانقلابات من قبل ، بل كانوا يسمعون عنها تقع في امريكا اللاتينية وبعض بلدان الشرق الاوسط . اما الان فها هو الانقلاب يقع في عقر دارهم . وبينما الناس في دهشتهم اخذت تصدر البيانات من القيادات الدينية والحزبية .

وكان أولها بيان السيد علي الميرغني الذي قال فيه : « لقد تقبلنا نبأ تسلم جيش السودان بقيادة ضباطه العاملين زمام السلطة في بلادنا واننا نأمل ان تتضافر الجهود وتخلص النوايا لتحقيق الطمأنينة في النفوس .. كما اننا نتوجه الى الله المستعان ان يجعل في ما حدث الخير كاملاً والتوفيق شاملاً » .

ورغم البراعة التي صيغت بها كلمات هذا البيان ، الا ان صدوره من السيد علي في نفس يوم الانقلاب ورنة التأييد التى كانت تصدر منه اعطى الانقلاب مباركة زعيم الختمية .

وبعد اربعة ايام اصدر السيد عبد الرحمن المهدي بيانا صارخا خاطب فيه الناس قائلاً : « فلتطمئنوا جميعا ولتغبط نفوسكم بهذه الثورة المباركة التي قام بها جيشكم المظفر . وليذهب كل منكم الى عمله هادي البال قرير العين ليعين رجال الثورة السودانية بولائه وبانتاجه وباستعداده التام لحماية الوطن واستقلاله . ايدوا يا ابنائي هذه الثورة ، وادعوا لها بالتوفيق والسداد واعينوها بأن يكون كل منكم عينا ساهرة وعزما قويا لتحقيق ما قامت من اجله ثورتكم وما تقدم اليه جيشكم المظفر من حمل امانة الاستقلال » فكان البيان دعما آخر لذلك الانقلاب .

اما الحزب الوطني الاتحادي فقد جاء تأييده في اشكال تختلف عن الحزبين الاخرين وتمثل اول رد فعل في البرقية التي بعث بها خضر حمد من القاهرة بعد يوم من الانقلاب (١١/١٨) مهنئا الفريق عبود ومطالبا باتخاذ اجراءات ضد الفساد والمفسدين. وبعد عودته الى السودان قابل الرئيس ازهري الذي عبر له عن ثقته في وطنية عبود وجماعته ورأى ان يعطوا الفرصة ليعملوا فلعلهم يوفقون فيما فشلت فيه الاحزاب. وقال انهم لن يضعوا من جانبهم اي عراقيل امامهم وسيفسحون لهم الطريق للعمل المثمر، لأن المهم هو خير البلد. واقترح ازهري ان يبدأ خضر حمد بزيارة احمد عبد الوهاب اولا ثم عبود وفعلا تمت الزيارة.

اما رد فعل الاخوان المسلمين للانقلاب فقد تعرض له حسن مكي في كتابه «حركة الاخوان المسلمين في السودان: ١٩٤٤ ــ ١٩٦٩»، حيث قال ان الاخوان لم يعاملوا بواسطة سلطة الجيش معاملة حزب سياسي وانما جمعية دينية. وجاء في جريدة «الاخوان المسلمون» التي صدرت في اول ديسمبر ١٩٥٨ ما يلي «ان البداية التي سارت عليها الحكومة في تصحيح الاوضاع الفاسدة تدعو للاطمئنان».

اما الحزب الشيوعي فقد اصدر مكتبه السياسي بيانا يوم ١٩٥٨/١١/١٨ بعنوان: «١٧ نوفمبر انقلاب رجعي» وذكر البيان انه عند قيام حكومة عبدالله خليل الرجعية نهضت في البلاد حركة شعبية واسعة. وبدأت الجماهير الوطنية والبرجوازية الوطنية نفسها تحس بخطر التدخل الاستعماري، واخذت تقترب من خط الحزب الشيوعي واخذت تعارض السياسة الرجعية للحكومة وحتى حزب الامة شهد انقساماً داخل هيئته البرلمانية.

ومضى البيان يقول : « واتضح ان انهيار النظام الرجعي المتمثل في حكومة عبدالله خليل يعني ضربة قاصمة لمصالح الاستعماريين في البلاد وفتح الباب لتحولات ديمقراطية واسعة . فأصبح من غير الممكن حكم البلاد بواسطة نظام برلماني . والذي حدث صباح ١٧ نوفمبر كان تسليما وتسلما من حكومة عبدالله خليل الى زعماء الجيش . وقد تم الانقلاب تحت القيادة الرسمية للجيش ولم تقم به هيئة مناوئة من الضباط . وتلك القيادة الرجعية للجيش هي في الواقع نتاج عمل منظم منذ تسلم عبدالله خليل الحكم في منتصف ١٩٥٦ واشرف على وزارة الدفاع . انه انقلاب رجعي باشره الجهاز الذي كونه حزب الامة داخل الجيش » .

ويواصل البيان تحليله للاوضاع فيقول : ولكن الذين دبروا الانقلاب تغافلوا عن عدة اعتبارات فالاغلبية الساحقة من الضباط في الجيش هم جزء من البرجوازية الصغيرة في بلادنا ولهم اتجاهات وطنية ديمقراطية . وستكون مهمة الاستعماريين تصفية هذه القوة في الجيش وبناء جهاز موالٍ للرجعيين بجانب تصفية الحركة الجماهيرية .

ونادى البيان بضرورة رفع شعار حكومة وطنية تتألف من القوى الوطنية وضباط الجيش الوطنيين . وانتهى البيان الى القول « ان حزبنا مواجه بمهام تاريخية كبرى لتفشيل مؤامرة الاستعمار والرجعية وهو قادر على ذلك لأن الحركة الجماهيرية في وضع متقدم ، ولأن القوى الوطنية من الضباط موجودة وكبيرة داخل الجيش .. يجب الا نترك الحركة الشعبية تتقهقر » .

وصدر آخر عدد من الميدان يوم ١٩٥٨/١١/٢٤ وجاء في كلمته : واليوم وقد انتقلت سلطات الحكم الى ايدي الجيش في بلادنا فسنبقى

كما كنا واضحين في اهدافنا ووسائلنا .. تعزيز علم جمهوريتنا والابقاء عليه نظيفا شريفا . وان تعود ثمار الاستقلال الوطني لجماهير شعبنا . لن نفرط في هدف منها ولن يتراخى دفاعنا عنها .. ستبقى الميدان سلاحاً حاسماً ونظيفاً وشريفاً في ايدي كل الوطنيين والنصر والعزة والمجد لشعبنا » .

وبعدها اغلق الحكم العسكري الجريدة .

وبعد ما يقرب من حقبة من الزمان قيم الحزب الشيوعي انقلاب ١٧ نوفمبر في مؤتمره الرابع ١٩٦٧ فجاء في كتاب الماركسية وقضايا الثورة السودانية ما يلي :

« لقد ادى العجز الموضوعي للنظام السياسي في مواجهة قضايا ما بعد الاستقلال والاضطراب وسط الجماهير الوطنية الى أزمة حادة في البلاد يقابل هذا نمو متزايد في العناصر الثورية وخاصة الحزب الشيوعي بين الحركة الجماهيرية ، وكان زمام المبادرة في يد القوى اليمينية المتطرفة ، فنقلت الصراع الطبقي من حيزه السلمي الى دكتاتورية عسكرية موجهة في الاساس لصدر القوى الديمقراطية . فما عجزوا عنه بالصراع السلمي ارادوا تحقيقه بالصراع الدموي . ان السهولة التي تمت بها عملية الانقلاب اليميني توضح الحقائق التالية :

١) قدرة اليمين على الحركة ومراكز قوته في الحركة السياسية .

٢) مراكز اليمين في جهاز الدولة من كبار حظ البيرقراطيين الذين تربطهم بالاستعمار الاجنبي اكثر من رابطة ومستعدون على الدوام لخلق جبهة من القوى اليمينية ضد تقدم الثورة الديمقراطية في البلاد .. لقد كان لاقسام البرجوازية التي تولت الحكم استنادا على النضال الجماهيري

دور ملحوظ ومسؤولية تاريخية في الابقاء على جهاز الدولة تحت سيطرة العناصر المرتبطة بالنفوذ الاستعماري .

٣) ضعف الاساس الاجتماعي للبرلمانية الغربية في بلادنا نتيجة للوزن القوي للقطاع التقليدي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية .. ان تجربة البرلمانيين تؤكد الحقيقة التالية : ان الديمقراطية الموجهة هي اداة في بلادنا المتخلفة لوضع السلطة في يد القوى المناهضة للاستعمار .. ان البرلمان الاول « ١٩٥٤ ــ ١٩٥٨ » الذي عبر عن اتجاهات مناوئة للاستعمار هو الاول والاخير حتى الان الذي استطاع ان يرتبط بمجرى الثورة الوطنية بشكل او آخر . وقد بني هذا البرلمان جزئيا على قاعدة من الديمقراطية الموجهة التي تعطي وزنا اكثر لمواقع التحرر الوطني والجماهير النشطة سياسيا في المدن وبين قوى القطاع الحديث في الاقتصاد .

٤) ضعف الجماهير الوطنية نتيجة لتفككها وصراعاتها الداخلية ، وانعدام الوحدة بين صفوفها . فقد كرس الحزب الشيوعي الكثير من مجهوداته منذ الاستقلال وحتى تسلم الدكتاتورية العسكرية للسلطة لوقف الصراعات بين الفئات البرجوازية .

وتعرض الحزب الشيوعي الى ضعف البرجوازية عموما في مقاومة الحكم العسكري حيث جاء في كتاب « الماركسية وقضايا الثورة السودانية » ما يلي : كشفت سنوات الحكم العسكري الضعف المتناهي للتنظيمات السياسية البرجوازية التي اختفت عملياً من الوجود الا في معنى وجود وبقاء بعض الاشخاص . فاذا استثنينا الحزب الشيوعي والتنظيمات الطائفية التي لم يمسسها الحكم العسكري فان كافة

التنظيمات الاخرى تبخرت ولم يبق منها الا اثر ضئيل ـ هذه الحقيقة ـ لا يفسرها ضعف التنظيمات السياسية وحسب بل ضعف البرجوازية نفسها، وقد ادى هذا الضعف في احيان كثيرة الى تطلع اقسام منها للقيادة في النظام العسكري نفسه على الرغم من ممالأته لرأس المال الاجنبي.

وهكذا كان لكل حزب سياسي تقييمه للحكم العسكري، وعلى ضوء ذلك التقييم حددت القوى السياسية موقفها منه بما يتفق مع وضعها الطبقي. وكانت معارضة الحزب الشيوعي والقوى الديمقراطية لحكم ١٧ نوفمبر واضحة منذ اليوم الاول واستمرت بثبات طوال السنوات الست.

وكان موقف الحكم العسكري من تلك القوى ايضاً واضحاً منذ ايامه الاولى. فلم تنقض ايام على الانقلاب حتى بدأت آلة البطش الدكتاتوري تمارس ارهابها ضدها. ففي ٥٨/١١/٢٨ نشرت جريدة الايام خبرا يقول: «قامت سلطات الامن بحملة اعتقالات واسعة في المدن الثلاث.» وذكرت الجريدة ان الذين تم اعتقالهم كانوا من زعماء العمال واتحاد النقابات العمالية وهم حسن الطاهر زروق وقاسم امين وشاكر مرسال ومحمد سعيد معروف وبابكر محمد علي ود. عز الدين علي عامر وعزيز اندراوس والحاج سليمان وحنا جورج وسمير جرجس وعباس محمد الحسن. وفي ١٩٥٨/١٢/١٧ قام بوليس المباحث بحملة اعتقالات واسعة اعتقل فيها عدداً من العمال يزيدون على اثني عشر عاملا من بينهم قاسم امين والشفيع احمد الشيخ.

واستمرت الدكتاتورية العسكرية في بطشها بالقوى الديمقراطية من شيوعيين ونقابيين. وقد أورد كتاب «ثورة شعب» الذي اصدره الحزب

الشيوعي السوداني عام ١٩٦٥ سردا وافيا للمحاكمات التي تمت للشيوعيين والديمقراطيين كان اهمها ما يلي :

محاكمة الشفيع ورفاقه ٢١ سنة ، محاكمة السر جعفر ومبارك حسن ٨ سنوات ، محاكمة شنان ورفاقه ١٣٩ سنة ، محاكمة الضباط الخمسة الشهداء « نوفمبر ٥٩ » بالاعدام ، محاكمة الضباط في محاولة نوفمبر ٥٩ سنة ، محاكمة مظاهرات ام درمان ضد اعتقال زعماء المعارضة ٣١ سنة ، محاكمة حسنين حسن وسليمان حامد ١٦ سنة ، محاكمة الحاج عبد الرحمن ورفاقه ٢٥ سنة ، محاكمة الوسيلة ورفاقه ١٢ سنة ، محاكمة محمود ومكين ضحية ١٣ سنة ، محاكمة محمد ابراهيم عبده ورفاقه ١٦ سنة .

وقد بلغت جملة الاحكام في هذه القضايا ٦٠٠ سنة خلال سنوات الحكم العسكري الست . وبلغ عدد الذين اعتقلوا ٧٠٠ وقد اعتقل عبد الخالق محجوب ثلاث مرات قضى في احداها ٢٦ شهرا في الاعتقال دون محاكمة . وفي يونيو ١٩٥٩ تم نفي ٢٥ معتقلا شيوعياً الى سجن ناقشوط بالجنوب .

لقد بدأت الدكتاتورية العسكرية بضرب الشيوعيين والديمقراطيين ولكن بطشها لم يقف عندهم . فامتدت يدها لتشمل كل القوى السياسية التي كانت تنتقل من التأييد الى اللامبالاة ثم الى المعارضة . وشهد عام ١٩٥٩ نحوا من ثمانية وثلاثين شكلاً من المقاومة والاعتقال والسجن والاعدام .

ولكن عام ١٩٥٩ انفرد بأنه كان عام القوات المسلحة في صدامها ضد الدكتاتورية فقد شهد مارس من ذلك العام حركة عبد الرحيم شنان ومحيي الدين احمد عبدالله والتي نجحت في اقصاء احمد عبد الوهاب من

المجلس العسكري ودخولهما المجلس وتعيينهما وزيرين ولم تمض اكثر من ذلك. وقد قيم الحزب الشيوعي حركة مارس في مجلة «اللواء الاحمر» السرية بتاريخ ٥٩/٥/١٢ قائلا: وبنضال عمال السودان وحزبهم وضعت الظروف المناسبة ليرتفع صوت الوطنيين في الجيش فجاءت حركة ٤ مارس، ورغم ان هذه الحركة لم تصل الى نتائجها المنطقية حتى اليوم من توفير حكم وطني للبلاد، وارجاع حقوق الشعب الديمقراطية الا ان الطريق اصبح مفتوحا لذلك الهدف فالشعب السوداني وبجانبه الكتلة الوطنية في الجيش اقوى بكثير من الرجعيين والمقامرين والطائشين. وجاء في كتاب «ثورة شعب» حول حركة ٤ مارس ما يلي «بيد ان تحركات الجماهير الشعبية لم تكن قد وصلت الى مستوى القوة والتنظيم الكافيين لحماية انتفاضة ٤ مارس. لهذا ولتردد في قيادة تلك الانتفاضة ولضعف تنظيم القوى الوطنية داخل القوات المسلحة لم تصل حركة ٤ مارس الى نتائجها المنطقية.

وكانت اشهر مارس وابريل ومايو من ذات العام مشحونة بالقلق والترقب والاشاعات. وفي ٢٢ مايو وقعت محاولة شنان ومحيي الدين الثانية التي قاداها هذه المرة من داخل المجلس الاعلى للقوات المسلحة. ولكنها فشلت فأعطت لحكام ١٧ نوفمبر فرصة لتصفية حساباتهم في داخل الجيش وصدر الحكم المؤبد على شنان ومحيي الدين ومحمد علي السيد احمد ابو الدهب وحسن ادريس وعبد الحفيظ شنان وحكم بالسجن خمسة عشر عاما على محجوب بابكر سوار الدهب، وبأحكام أخرى متفرقة على بعض الضباط. وتم طرد سبعة عشر ضابطاً من مختلف الرتب.

ولكن القوات المسلحة لم تهدأ. ففي التاسع من نوفمبر ١٩٥٩ قامت

محاولة أخرى من مدرسة المشاة في ام درمان بقيادة البكباشي «مقدم» علي حامد ولكنها احبطت وحكم بالاعدام على خمسة من الضباط هم علي حامد ويعقوب كبيدة وعبد البديع علي كرار والصادق محمد الحسن وعبد الحميد عبد الماجد. وفي الثاني من ديسمبر تم شنقهم بدلاً من رميهم بالرصاص كما هي العادة في القوات المسلحة. ويقال ان سلطة نوفمبر خشيت الا ينفذ الجنود امر اطلاق النار. وقد هزت تلك الاحكام مشاعر الناس واعادت للأذهان ذكرى شهداء ١٩٢٤ وصدرت أحكام بالسجن بالمؤبد على مجموعة أخرى من الضباط وتم طرد ١٤ ضابطاً من الخدمة.

لقد خاضت العناصر الوطنية في الجيش السوداني معارك ضارية ضد الدكتاتورية العسكرية سقط فيها ضحايا اكثر. فاستشهد من استشهد وسجن من سجن وشرد من شرد. ولم تمض تلك المعارك دون ان تترك اثرها العميق في مجرى الحركة السياسية السودانية.

وأخذت المعارضة الدكتاتورية تتسع حتى شملت اغلب القوى السياسية في البلاد. وقد تناول كتاب «ثورة شعب» باسهاب كل أشكال تلك المعارضة. فتحدث عن نضال العمال والمزارعين والطلبة والمحامين والقضاة واساتذة الجامعة والاطباء والنوبيين والمرأة والجنوب، واذا كان عام ١٩٥٩ عام المصادمة العسكرية فان عام ١٩٦٠ شهد تصاعد المقاومة المدنية وبروز جبهة المعارضة المكونة من أحزاب الامة والوطني الاتحادي والشيوعي.

ولكن كيف تحول حزب الأمة من كونه هو الذي خطط لذلك الانقلاب وايده زعيمه الروحي السيد عبد الرحمن تأييداً حاراً، الى معارضة ذلك النظام حتى اعتقلت قيادته مع زعماء المعارضة ونفيت معهم

الى الجنوب ، بل وصلت معارضتهم الى المصادمة الدموية في مولد ام درمان! ان تدبير انقلاب عكسري لا يعني انعدام التناقض بين القوى السياسية التي دبرته والطغمة العسكرية التي استلمت زمام الحكم. ويبقى تطور الأحداث خاضعاً الى ايجاد صيغة لاحتواء ذلك التناقض، والا فإن انفجار الصراع يصبح أمراً محتوماً كما ان عبد الله خليل وحزب الامة بشكل عام لم يضعوا اعتباراً للتركيب الداخلي والديناميكية والاستقلال النسبي للقوات المسلحة عندما تصبح في السلطة، وهو أمر يختلف عن وضعها وهي خارج السلطة. كما ان حركة مارس ٥٩ قد قلبت حسابات حزب الأمة بالذات عندما اقصي احمد عبد الوهاب من المجلس، مما جعل تحكم الحزب في ذلك المجلس ضعيفاً. ولا شك ان فشل الطغمة العسكرية في خلق نظام فعال للحكم، بل فشلهم في أغلب الجبهات، قد فتح الباب أمام أزمة سياسية جديدة جعلت حزب الامة ينتقل الى المعارضة لازاحة النظام الذي جاء به، خصوصاً وهو يرى ان المعارضة تتصاعد ويشتد ساعدها.

وقد ذهب محمد احمد محجوب في مذكراته، والتي تحتاج الى تحقيق وتمحيص، عند الحديث عن انسلاخ قيادة الانقلاب من القوى السياسية التي جاءت بها الى القول بأن الضباط جاءوا بالفريق عبود كزعيم صوري باعتباره اكبرهم سنا، بعد ان وافق على مخططاتهم غير ان عبود رفض التخلي عن الزعامة وتمسك بالسلطة التي وصل اليها صدفة. ويرى محمد احمد المحجوب ان عبودا لم يكن يراوده طموح الزعامة. فحتى قبل شهر واحد من الانقلاب كان كل ما يتمناه ان ينهي خدمته ويفتح جراجا في الخرطوم بحرى. ولكنه عندما ذاق طعم السلطة تمكن من الاحتفاظ بمنصبه عن طريق الايقاع بين الضباط.

ومهما كانت الاسباب فان حزب الامة بدأ يفك ارتباطه بالنظام وينعطف تجاه المعارضة. وكان أول مظاهر ذلك الانعطاف تقاربه من الوطني الاتحادي والذي ظهر جلياً في صلاة عيد الفطر عام ١٩٦٠ «مارس» واصدر الحزب الشيوعي بياناً حول ذلك اللقاء جاء فيه «شهد الاسبوع الماضي مظاهرة كبرى عبرت عن اتساع أزمة هذا النظام. لقد كان الالتقاء بين الانصار وقادة الوطني الاتحادي في صبيحة أول أيام العيد حدثاً ذا مغزى سياسي هام. انه دليل واضح على ان هذه المجموعة الكبيرة قد بدأت تتحول وتتجمع ضد الدكتاتورية العسكرية. ان عبود وزمرته يعرفون مثل ما يعرف كل الناس ان ذلك التجمع الذي تم في جامع الخليفة لم يكن مجرد اداء للصلاة وانما هو مظاهرة تعبر عن موقف سياسي واضح الدلالة. ومهما حاولت الزمرة الحاكمة ان تبدو هادئة الاعصاب فانها لن تستطيع ان تخفي ضعفها وهزالها».

ولكن يبدو ان حزب الأمة لم يتخذ قراراً نهائياً وحاسماً بالانسلاخ من النظام فقد اصدرت سكرتارية الامام الصديق منشوراً بتاريخ ١٩٦٠/٥/١٨ الى وكلائه جاء فيه ان السيد الامام ما زال سائراً على تأييد الامام الراحل السيد عبد الرحمن «الذي توفي في ١٩٥٩/٣/٢٤» للوضع الحاضر. واننا متعاونون معه على ما يحقق المصلحة العامة للبلاد باذن الله. على ان اشتداد المعارضة الشعبية عام ١٩٦٠ والتي بلغت ذروتها في المظاهرات التي خرجت في اكتوبر في كل مدن السودان في ذكرى معركة حلفا، كانت عاملاً هاماً في دخول حزب الأمة جبهة المعارضة. وبانسلاخ حزب الأمة عن النظام افتقد سنداً جماهيرياً ولم يبق له سوى قيادة الختمية وحزب الشعب الديمقراطي التي وقفت معه حتى انهياره.

وفي ١٩٦٠/١١/٢٩ ارسلت جبهة المعارضة اول مذكرة الى المجلس الاعلى للقوات المسلحة وقع عليها: الصديق المهدي وميرغني حمزة وعبد الله خليل واسماعيل الازهري وابراهيم احمد ومحمد احمد المرضي ومبارك زروق وبشير محمد سعيد وسيد احمد عبد الهادي ومحمد صالح الشنقيطي واحمد سليمان وعبد الله الفاضل. طالبوا في تلك المذكرة الجيش ليتفرغ لمهمته الوطنية الاساسية وهي حماية البلاد. واقترحوا ان تتولى الحكم هيئة قومية انتقالية لتحقيق الآتي: ان تمارس سلطات فترة الانتقال، تضع تخطيطاً سليماً وأسساً واضحة ديمقراطية لقانون انتخابات ورفع حالة الطوارىء.

وفي ١٩٦٠/١١/٣٠ اصدر الحزب الشيوعي بياناً يؤيد فيه مذكرة زعماء المعارضة التي توحدت حولها «لأول مرة القوى المناهضة لعهد عبود وهي ثمار جهود الشعب وكفاحه».

من الجانب الآخر أرسلت مجموعة من المواطنين في قيادة حزب الشعب الديمقراطي وعلى رأسهم الشيخ علي عبد الرحمن ويحيى الفضلي ومحمد نور الدين مذكرة في ١٩٦٠/١١/٩ الى رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة ايدوا فيها النظام العسكري والذي سموه ثورة، وادانوا الدوائر الاستعمارية ونشاطها لاثارة الخواطر. وربطوا بين ذلك النشاط وقبول الرئيس جمال عبد الناصر زيارة السودان. ولكن جبهة المعارضة لم تترك تلك المذكرة دون الرد عليها. فأرسلت الجبهة مذكرتها الثانية للمجلس العسكري في مطلع عام ١٩٦٠ نددت فيها بتلك المذكرة ونبهت المجلس لخطورة تجاهله لمذكرتها الاولى.

ولم تسكت جبهة المعارضة فقررت ان توجه ضربة أخرى الى الحكومة

العسكرية. وكانت المناسبة قضية حسنين حسن أحد القادة الشيوعيين في الابيض والذي تعرض لتعذيب في السجن، كما اعتقل المحامي الذي كان يتولى الدفاع عنه. ويقول محمد احمد محجوب في مذكراته: انهم اجتمعوا في منزل السيد الصديق وارسلوا برقية الى المجلس العسكري احتجاجاً على تلك الوحشية وكررت المطالبة بعودة الجيش الى الثكنات واعادة الحكومة البرلمانية. وقع البرقية كل من اسماعيل الأزهري وعبد الله خليل.

ويبدو ان الحكومة العسكرية لم تعد تحتمل المعارضة وخشيت من تزايد نشاطها. وفي يوم ١٩٦١/٧/١٢ قامت باعتقال زعماء المعارضة وارسلتهم الى معتقل في الجنوب. والمعتقلون هم: عبد الله ميرغني ومحمد احمد المرضى وعبد الخالق محجوب واحمد سليمان وعبد الله عبد الرحمن نقد الله وأمين التوم واسماعيل الأزهري وعبد الله خليل ومبارك زروق ومحمد احمد محجوب وابراهيم جبريل وعبد الرحمن شاخور. وكانوا يمثلون قيادات الوطني الاتحادي والأمة والحزب الشيوعي.

ولم يمض ذلك الاعتقال دون رد فعل. فقد خرجت مظاهرات في ام درمان والابيض تندد بذلك الاعتقال. فقامت السلطات باعتقال المتظاهرين وقدمتهم الى مجالس عسكرية حكمت عليهم بعشرات السنين. وكان من بين المحكومين طلاب في المرحلة الثانوية.

واصدر الحزب الشيوعي بياناً في ٦١/٧/١٦ هاجم فيه الطغمة العسكرية وذكرها بأن الاستعمار قد نفى من قبل الوطنيين الى الجنوب ولكن النفي لم يحمه من مصيره المحتوم فذهب الى غير رجعة. ونادى

البيان بتنظيم يوم سياسي من اجل الافراج عن زعماء المعارضة وعن كل المعتقلين السياسيين.

ولم تتوقف المعارضة، ففي ١٩٦١/٨/٢١ سير الانصار موكبا الى قبة المهدي في احتفالات المولد النبوي متجاهلين منع وزير الداخلية، فتصدت لهم الشرطة، فنشب صدام بين الطرفين تحول الى مجزرة راح ضحيتها اثنا عشر شخصاً، وعرفت بمجزرة المولد. وفي اليوم التالي اصدر الحزب الشيوعي بياناً دعا فيه مختلف قطاعات الشعب للوحدة ضد النظام العسكري لاسقاطه بالاضراب السياسي العام.

كانت المعارضة ضد الدكتاتورية العسكرية تتصاعد وتتسع حتى شملت أغلب القوى السياسية والاحزاب. ولقد قامت المعارضة بالعديد من المحاولات للاطاحة بالنظام بواسطة انقلاب عسكري طوال عام ٥٩ وفشلت جميعها، ولكنها بقيت قبسا يضيء. فقد تعلمت منها الحركة السياسية ان العمل العسكري الذي لا يسنده عمل جماهيري يبقى معزولاً. كما تعلمت من الجانب الآخر ان الحكم العسكري لن يذهب بالحسنى بعد ان غاصت ايديه حتى المنكبين في دماء الشهداء. فرغم ان المعارضة السياسية المدنية كانت تشتد، الا انها كانت في حاجة الى سلاح تقهر به الحكم العسكري، ان السخط مهما تعاظم لن يقضي على نظام عسكري ما لم يتحول ذلك السخط الى قوة ضاربة وسلاح بتار.

وفي صيف ١٩٦١ قام الحزب الشيوعي بتحليل الوضع السياسي، وأخذ يبحث عن السبيل الذي يسدد به الضربة القاضية للنظام بعد ثلاث سنوات من النضال الذي لم يهدأ. وذهب الحزب الشيوعي في تحليله الى ان النظام يعاني من النزاعات الداخلية التي تشل ارادته، وانه وصل الى

درجة بعيدة من العزلة القاتلة. كما ان تزايد التناقض بينه وبين حزب الامة قد فاقم من تلك العزلة. ويرى ان الاضراب الناجح الذي قام به عمال السكة الحديد بين ١٧ و٢٤ يونيو ١٩٦١ قد وضح ان العمال لا يريدون فقط مكافحة الازمة الاقتصادية، بل عكس ذلك الاضراب رغبتهم العميقة في انهاء النظام الراهن وتحقيق الديمقراطية. ويذهب التحليل الى ضرورة المزج بين الحركة الثورية الراهنة وحركة الطلبة والمزارعين.

ومن اجل نجاح هذه الحركة يصبح من المهم مواجهة موقف البرجوازية الوطنية في حِكْمة، فهي تعارض النظام ولكنها لا تقوم بمجهود يذكر من اجل انهائه. وينتهي التحليل الى القول «اذا نجحنا في دفع القوى الثورية الى الامام، ونجحت في الاطاحة بهذا النظام، يمكن ان ينشأ نظام جديد اكثر وطنية واكثر ديمقراطية وتصبح الشروط اللازمة للسير بالكفاح الوطني الديمقراطي وفي سبيل حكومة وطنية ديمقراطية اكثر توافراً حتى بوجود اليمين ضمن النظام الذي سيعقب مباشرة الحكم العسكري الآفل».

وفي ١٩٦١/٨/٢٩ صدر اول بيان من المكتب السياسي للحزب الشيوعي حول الاضراب السياسي العام وهو بعنوان «حول الموقف السياسي والاضراب السياسي العام». بدأ البيان بالحديث عن التخريب الواسع الذي تعرضت له الحياة الاقتصادية من جراء سياسة التبعية للمعونة الامريكية والتفريط في استقلال البلاد مما نتج عنه سياسة خارجية موالية للاستعمار. ثم تناول البيان مصادرة الحريات الديمقراطية. واكد على ضرورة التمييز بين توحيد قوى المعارضة «الاحزاب» وتوحيد القوى

الثورية في جبهة وطنية ديمقراطية. ان الأحداث الأخيرة «اعتقال زعماء المعارضة ونفيهم دون حدوث رد فعل» قد كشفت ان نقطة الضعف الرئيسية في نمو واتساع الحركة الجماهيرية لتصل للمستوى الذي يؤهلها لدخول المعركة الفاصلة والاطاحة بالنظام لا يمكن ان تكون سوى ضعف وانعدام التنظيم. لقد كانت تلك القوى في حالة تذمر وتحفز واستعداد كامل للصدام. ولكن ماذا كان ينقصها؟ ما الذي حال بينها وبين الصدام؟ لا شيء سوى التنظيم.. التنظيم ولا شيء سوى التنظيم.. والمخرج هو تنظيم نشاط قوى التجمع الثوري.

ويمضي البيان الى القول بأن الطبقات التي ترتكز عليها القوى الثورية هي الطبقة العاملة والمزارعون والطلبة والبرجوازية الوطنية. وانه بالعمل النشط اليومي وسط هذه القوى يمكن ان تعبأ في اضراب سياسي عام من شأنه اذا وقع ان يشل النظام الراهن شللاً تاماً. ان حركة مثل هذه لو حدثت ستكون الاولى من نوعها ولذلك فهي تختلف كل الاختلاف عن الحركات الاقتصادية التي الفتها البلاد من قبل. ان الاضراب السياسي العام هو توقف الجماهير الثورية عن العمل. ويتم تنفيذه عندما تصل تلك الجماهير الى وضع لا تحتمل فيه العيش تحت النظام الراهن. ولذلك فهو يمثل تغييراً كيفياً في وضع الجماهير الثورية وعقليتها. انه عملية وسلسلة وليس ضربة واحدة. وليس المهم هو متى واين يبدأ الاضراب، المهم هو الارتقاء بالنضال الجماهيري وتنظيمه ليصل الى نقطة التنفيذ الشاملة.

ويتطلب نجاح الاضراب توفر شيئين اساسين: الاول ان يكون برنامج الحركة يجمع بين خبرة الحركات الاقتصادية وبين طبيعتها السياسية الفريدة. والثاني ان تكون قيادتها التنظيمية في ايدي تنظيمات ثورية

تستفيد من كل فرصة لدى التنظيمات الاقتصادية. كما ان تلاحم صفوف العمال والمزارعين والطلبة وجماهير المدن، يشكل مركز الثقل في النشاط التنظيمي والسياسي لنجاح الاضراب العام. وبدون ذلك يصبح الحديث عن الحركة الموحدة مجرد لغو فارغ وثرثرة.

وهناك قوات أخرى يمكن ان تلعب دوراً مساعداً وهاماً وهي: المحامون والاساتذة والأدباء والفنانون والنساء الخ. فهي قوى يهمها أمر حرية الفكر وسيادة القانون. وينتهي البيان بمطالبة الدوائر التنظيمية لتحريك مجموع الحزب والقوى الثورية في اتجاه الحركة الموحدة: الاضراب السياسي العام.

ان صياغة شعار الاضراب السياسي لم تتم في فراغ ولم يتم الاعتكاف لها في مغارة ولم تهبط بليل. انه نتيجة فحص واستلهام لماضي الحركة الوطنية السودانية. فقد جسد قمة ما افرزته تلك الحركة: الصدام والوحدة، وهي قمة بدأت تشمخ منذ القرن الماضي. وهو نتاج الاستقراء العلمي الخلاق لواقع الحركة السياسية في صدامها ضد الدكتاتورية.

فقد جربت الحركة السياسية الانقلابات العسكرية والمظاهرات والعرائض والاضرابات. وبدأت تدخل مرحلة جديدة من الصدام ضد الحكم العسكري، وذاك أن افقها بينّ وهو القضاء على الحكم العسكري. ومن حصاد تلك التجارب خرج شعار الاضراب السياسي العام، وليس من تجربة الحزب الشيوعي منفرداً رغم انه هو الذي صاغ ذلك الشعار. وهكذا دخل شعار الاضراب السياسي العام قاموس الحركة السياسية السودانية، وأصبح سلاحاً لكل الحركة الجماهيرية فهي التي تستله متى ما رأت الحاجة لذلك وهي التي تشحذه في لحظات الطعان.

وبما ان شعار الاضراب السياسي كان جديداً على الحركة الجماهيرية . فهي بحاجة للمزيد من التوضيح والشرح لتلافي أي ردود فعل خاطئة وضارة . فأصدر المكتب التنظيمي للحزب الشيوعي بياناً فيه المزيد من الشرح للشعار . فيقول البيان بأن الاضراب العام هو توقف الجماهير الثورية عن العمل ويتم تنفيذه عندما تصل تلك الجماهير الثورية الى وضع لا تحتمل فيه العيش تحت ظل النظام الراهن . ولهذا فهو يمثل تغييراً كيفياً في وضع الجماهير الثورية وعقليتها . انه عملية وسلسلة وليس ضربة واحدة عملية من الدعاية والعمل الفكري ضد تهريج النظام الراهن ومن أجل تعميق الاتجاهات الثورية لدى الجماهير ومن التعلم من التجارب ومن المعارك اليومية المختلفة والتآزر حولها ومن بناء قوة ثابتة للجبهة الوطنية الديمقراطية من نضال قانوني وغير قانوني . ويستمر البيان ليقول بأنه لا يمكن التكهن بميقات الاضراب لأن ذلك مرهون بالحدود التي تصل اليها الحركة الجماهيرية الصاعدة . فقد تكون البداية للطبقة العاملة او الزراع او الطلاب ، وقد تكون في الخرطوم أو عطبرة . المهم هو الارتقاء بالنضال الجماهيري وتنظيمه ليصل الى نقطة التنفيذ الشاملة .

ولكن برزت ردود افعال تجاه شعار الاضراب السياسي بعضها يجنح يمينا والآخر يجنح يساراً فقد علق أحد قادة الاحزاب بأن الاضراب السياسي عبث وان تطبيقه غير عملي . ولم تأخذه الاحزاب التقليدية مأخذ الجد بدليل انها لم تقم بدراسته ولم تعمل على تعميقه ونشره . ولا شك ان تاريخ تلك الاحزاب وتركيبها الطبقي يجعلها تحذر الحركات السياسية التي يلعب فيها الشارع دوراً متقدماً . فهي تميل الى حصر العمل السياسي في النشاطات الفوقية والمناورة ، والى لجم الدفع الجماهيري الذي قد يتحول الى قوة ضاغطة ومؤثرة في اتخاذ القرار .

وجاء رد الفعل الجانح الى اليسارية من سكرتارية الحزب الشيوعي في مديرية النيل الازرق التي دعت الى إعلان الاضراب السياسي العام في الجزيرة، باعتبار ان الظروف هناك قد اصبحت ناضجة لتنفيذه. واعتبرت قيادة الحزب المركزية ان تلك التقديرات ممعنة في اليسارية. فالاضراب السياسي لا يحدث في مديرية واحدة ولا تقرره مديرية واحدة. انه معركة موحدة تخوضها كل جماهير الجبهة.

والخطأ الثاني هو اعتبار الاضرابات الاقتصادية التي يخوضها المزارعون جزءا من الاضراب السياسي العام. ولكن رغم هذا وذاك فان شعار الاضراب السياسي العام كان يتخذ طريقه الى قلب الحركة السياسية، وكان يتلمس طريقه تلمساً لا يخلو من مشقة.

اصيبت حركة المعارضة باهتزاز في أخريات عام ١٩٦١ وذلك إثر وفاة السيد الصديق في ١٩٦١/١١/٢ وقد ذكر الحزب الشيوعي في رسالة التعزية التي بعثها للمكتب السياسي لحزب الأمة أنه يقيم تقييماً سليماً الدور الذي لعبه الامام الراحل وسط أحزاب المعارضة.

ولكن مع مطلع عام ١٩٦٢ واصلت المعارضة صدامها للحكم العسكري. وكانت أهم معارك ذلك العام اضراب زعماء المعارضة الذين كانوا معتقلين في الجنوب. وقد اورد كتاب «ثورة شعب» قصة ذلك الاضراب. يقول الكتاب: انه في مطلع عام ١٩٦٢ وصلت الى المكتب السياسي للحزب الشيوعي رسالة من عبد الخالق محجوب يعلن فيها ان المعتقلين من زعماء المعارضة قد اتفقوا كلهم على الاضراب غير المحدود عن الطعام حتى يتم الافراج عنهم، وذلك ابتداء من السبت ٦٢/١/٢٧ وقال ان هذه مسألة كبيرة تحتاج الى مساعدة فعالة حاسمة. وتساءل عبد

الخالق ان كان المكتب السياسي يعتقد ان الظروف ملائمة للدخول في هذا الاضراب ، وهل من الممكن القيام بعمل يحقق المساندة الفعالة ؟.

وقد كان الموضوع شائكاً بالنسبة للمكتب السياسي . فهو يعرف ان معظم المعتقلين كبار في السن . وكثير منهم مصابون بأمراض يؤثر عليها الاضراب تأثيراً سلبياً خطيراً . ولكن المكتب قدر انه اذا ما وضعت خطة جريئة ، واذا ما بذل مجهود واسع فان الاضراب سيكون قصيراً ، لأن الدكتاتورية لن تقوى على تحمل مسؤولية ازهاق حياة أي واحد من المعتقلين . وبناء على ذلك قرر المكتب السياسي تأييد الاضراب ، وأرسل الى المعتقلين بموافقته على مبدأ الاضراب وعلى اليوم الذي حدد له .

وبدأ المكتب في مجهود يسابق الزمن . وكان لا بد من الحيطة والسرية حتى لا يتسرب الخبر الى البوليس او المجلس العسكري أو أي جهة أخرى . فأعدت المنشورات بكميات كبيرة وأرسلت الى كل المدن ، كما اعدت منشورات موجهة الى القضاة والمحامين واساتذة الجامعة والاطباء وغيرهم .

وفي يوم ١/٢٧ نزلت في جميع مدن السودان وفي وقت واحد منشورات تعلن بدء الاضراب في جوبا . واذيع الخبر في نفس اليوم من محطات الاذاعة العالمية الرئيسية نقلاً عن اذاعات المعسكر الاشتراكي التي أرسل اليها الخبر مقدماً . ووزعت في صباح نفس اليوم خطابات من الحزب الشيوعي الى كل الهيئات والمهن . وفوجئت الدكتاتورية التي هالها ان يصل خبر الاضراب بهذه السرعة وفي نفس اليوم الى ذلك المدى من الذيوع والانتشار . وفي اليوم التالي ٦٢/١/٢٨ افرجت السلطة عن الزعماء المعتقلين وتم ترحيلهم بطائرة خاصة الى الخرطوم . وكان انتصاراً كبيراً

للمعارضة كما كشف عن ضعف النظام عندما يواجه بمصادمة منظمة وموقف موحد.

ثم واصل الحزب الشيوعي تنظيم حملة أخرى للافراج عن المعتقلين السياسيين في سجن كوبر. وبفضل تلك الحملة وبفضل اضراب المعتقلين عن الطعام تم الافراج عنهم في أول فبراير.

واستمر النضال الجماهيري يتصاعد في مصادمة الحكم العسكري وشاركت فيه مختلف القوى السياسية. ورغم ان المعارك كانت متفرقة هنا وهناك الا أنها كانت تعمل على خلخلة النظام، كما ساعدت الجماهير على اكتساب الثقة في نفسها، وعلى ضرورة العمل الموحد، ولا شك ان تلك المعارك كانت تدفع بالجماهير نحو الاضراب السياسي واكتشاف قدراته الكامنة. ولكن ما زال الدرب وعراً، ان اعلان الاضراب السياسي لا يعني ان طريقه ممهد وان الجماهير سرعان ما تمسك به. فاذا كان الأمر كذلك فما هي جدوى التعليم السياسي والعمل السياسي والجهد السياسي؟

وكانت الاحزاب السياسية تعارض الحكم العسكري، الا أنها لم تصل بعد الى قناعة تامة في معارضة ذلك النظام. فما ان اعلن عبود عن قيام لجنة قومية لوضع الدستور حتى اصدر الامام الهادي بياناً في ٦١/١١/٢٨، وهو أول بيان يصدره بعد وفاة السيد الصديق، جاء فيه: «كان للتصريح الذي جاء في خطاب السيد الفريق ابراهيم عبود رنة تفاؤل وأمل.. وان اعلان.. عبود عن قيام لجنة قومية لوضع دستور لنظام الحكم يتضمن جميع الحقوق والمبادىء الاساسية لقيام حياة نيابية صحيحة

بعد اجراء انتخابات عامة ــ جاء موافقا لمبادىء الامام الصديق .. ومتجاوبا مع الاماني الوطنية » ..

أما الحزب الشيوعي فقد أعلن رأيه في بيان في ٦١/١٢/٥ بعنوان « الحزب الشيوعي يفضح بيان الخيانة للشعب السوداني » .. ذكر البيان ان المخرج الوحيد للوطن لاستئصال الدكتاتورية من جذورها وسد الطريق أمام عودتها هو اقامة حكم ديمقراطي وطني . ثم يستمر ليقول : « عندما نادينا منذ ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ بشعار عودة الحياة الديمقراطية كنا نضع في الاعتبار انها خطوة أساسية في سبيل اقامة الحكم الوطني الديمقراطي » ، حيث تتهيأ ظروف افضل لتوعية الجماهير وتنظيمها وتوحيدها . ومنذ ١٧ نوفمبر ادرك الشعب السوداني الطبيعة الدكتاتورية للنظام الراهن . فهو نظام يقمع الديمقراطية لخدمة المصالح الاستعمارية ، ولبيع الاستقلال وللتردي باقتصاديات البلاد ، ومعيشة ابنائها ، ثم يقول البيان وقد عبرت جماهير الشعب عن عدائها للنظام في معارك عنيدة فضربت رغم الاهمال اروع مثال على اخلاصها للديمقراطية .

ان هذا الشغف بالديمقراطية هو ما تحاول الدكتاتورية تملقه وما نادى به عبود في ١٧ نوفمبر ١٩٦١ قصد به نوعاً من الديمقراطية الزائفة . فقد وصلت أزمة الحكم مرحلة لم يعد يمكن معها الاستمرار في الدكتاتورية السافرة . وأصبح النظام يخرج من أزمة ليدخل في أزمة جديدة . ان الدكتاتورية هي العدو اللدود للديمقراطية ولا يمكن ان تؤمن لا على الديمقراطية ولا على تطبيقها ولا على « صنعها » . وكل من يصدق ان نظام ١٧ نوفمبر يمكن ان يمنح الديمقراطية او يتجاوب معها ، اما أن يكون ساذجاً واما أن يكون متهافتا .

وينتهي البيان الى القول بأن طبيعة عهد ١٧ نوفمبر لم تتغير . انه هو النظام الذي جاء لقمع الحركة الجماهيرية ولوأد الديمقراطية بهدف بيع استقلالنا للاستعمار. انه لا يزال نظام المعونة الامريكية، نظام حماية رؤوس الاموال الاستعمارية، نظام الانحياز الذليل للاستعمار.

ثم برزت قضية المجلس المركزي وكان الحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد الذي قام بتحليل قانون ذلك المجلس. ففي بيانه بتاريخ ٩/٣/٦٣ اكد الحزب ان « النظام الراهن برمته وليس بمشتقاته فحسب نظام رجعي غير ديمقراطي ودكتاتوري . وليس هناك سوى السذج من يعتقدون في ان تولّد الدكتاتورية نظاماً ديمقراطياً في نفس الوقت » . أما عن المجلس المركزي فهو يرى ان مجلساً يدعي أنه تمثيلي ولا يقوم على مبدأ الانتخابات المباشرة لكل اعضائه ولا يمارس الحقوق التشريعية هو مجلس مزيف . وان مجلساً لا يملك حق النظر في الاتفاقات التي ابرمها النظام الراهن من معونات وقروض كبلت استقلال السودان واوردته موارد التبعية للاستعمار الأجنبي هو مجلس رجعي . وان مجلساً لا يملك تعيين واقالة رئيس الوزراء ومحاسبته هو مجلس لا حول له ولا قوة . وان مجلساً لا يستطيع ان يحاسب الحكومة على الجرائم التي ارتكبتها او ارتكبها وزراؤها في داخل البلاد وخارجها هو مجلس صوري . وفي النهاية فان المجلس المركزي المجرد من كل سلطة حقيقية ان هو الا ستار تخفي به الدكتاتورية وجهها الكريه الذي عافه الشعب، إن هو الا تعبير عن فشل الحكم الدكتاتوري المباشر ومحاولة لاكتساب الشرعية للتسول بها في دوائر رأس المال الأجنبي .. ان الحزب الشيوعي يرفض هذا المجلس ولا يطالب بأقل من الغاء هذا المسخ المشوه الذي لا يرقى الى مستوى سيئة الذكر الجمعية التشريعية .

أما عن الانتخابات التي أعلن عنها النظام العسكري فان الحزب الشيوعي يرى أنها نتاج النضال الجماهيري طوال خمس سنوات. فقد اجبر ذلك النضال الدكتاتورية لتتزحزح عن موقعها وتسمح بدرجة من العمل السياسي المفتوح ولذلك يرى ان تفضح تلك المؤسسات من الداخل وان تسخر كمنبر للدفاع عن الديمقراطية ولمخاطبة الجماهير التي حرم الحزب من الوصول اليها نتيجة مصادرة الحقوق الديمقراطية، واستنهاضها من اجل حقوقها ومن أجل الاطاحة بالنظام الراهن.

ان الجماهير اذ تهرع الى التسجيل والترشيح ليس استجابة لنداء الحكومة او تأييدا لها، ولكنها مدفوعة بغريزتها الثورية لممارسة حق من حقوقها وحل مشاكلها اليومية. إن المقاطعة لا تؤدي الى توسيع النضال الثوري وتعميق أزمة النظام الراهن، بينما الاشتراك خطوة تزيد تنمية الحركة الديمقراطية اذا تمت على أساس الجبهة الديمقراطية وبرنامجها وتحويل الانتخابات الى معركة سياسية. إن المعركة في جوهرها صدام مع النظام العسكري الرجعي. ولكن الأحزاب اختارت التخلي كلية عن التصدي للمعركة ولم تصدر حتى نقدا لقانون المجلس المركزي.

ثم يمضي البيان ليقول «إن الحزب الشيوعي السوداني حين يخوض اليوم معركة الانتخابات ... يعلم حق العلم أنه يخوضها في ظل نظام من حكم رجعي دموي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال، بل هو يخوضها بهدف تحويل المعركة الانتخابية والعمل داخل هذه المجالس من أجل مصالح الجماهير اليومية ... وتعبئة الشعب حول برنامج وطني من أجل: إلغاء المجلس المركزي ... إلغاء قانون الطوارىء ... حق العمال في التنظيم ... إلغاء المعونة الأمريكية ... إجراء إصلاح زراعي ... تحويل

المجالس المحلية الى مؤسسات عامة لخدمة مصالح الجماهير». وقد تركزت الدعاية الانتخابية حول هذه القضايا.

ثم قارن البيان بين معركة المجلس المركزي ومعركة النقابات. فذكر أن الحزب الشوعي ظل يكافح من أجل عودة النقابات. وعندما عادت تحت ضغط العمال وفق قانون ١٩٦٠ أوضح الحزب موقفه من القانون وفضح طبيعته الرجعية وتخلفه بالنسبة لقانون ١٩٤٨. وأوضح أن الحكومة تهدف لخلق نقابات طيعة بقيادة إنتهازية لكسر شوكة النضال العمالي. ورغم ذلك فان الحزب مسترشداً بمصالح العمال العاجلة في تحسين شروط الخدمة، دعا الجماهير العمالية الى خوض معركة الانتخابات. وبهذا الموقف دفع بنضالهم خطوات واسعة والى الصدام المباشر مع النظام.

وانتهى بيان الحزب مؤكداً بصورة قاطعة أن الاضراب السياسي العام ما زال السلاح القوي الذي يمكن أن تشهره الجماهير لاسقاط النظام الراهن، وأنه لا مقاطعة الانتخابات ولا دخولها يمكن أن يكون بديلاً لهذا الاضراب. إن الاضراب السياسي سيظل دائماً هو المحك لاختيار صحة الطريق الذي تسلكه الجماهير في هذه القضية أو تلك بما في ذلك قضية المقاطعة أو عدمها. إن الذين يدعون الى المقاطعة رغم حسن نواياهم ومقاصدهم، يتخذون موقفا غير سليم لا يفيد قضية النضال ضد النظام الراهن، إنهم ينادون بالمقاطعة ولكنهم لا يشيرون الى أي عمل ثوري بديل في مقابلة ذلك. ومع ذلك فان الحزب الشيوعي يحترم بكل اخلاص رأي من يدعون لمقاطعة الانتخابات رغم اختلافه معهم، من حيث أنهم يكشفون عن موقفهم من النظام الراهن، وهذا هو الجوهر الذي نلتقي فيه التقاءً تاماً.

وذهب خضر حمد في مذكراته الى تبرير الموقف السلبي التام من الدكتاتورية، بأنه يرى تجاهل الحاكمين تماماً وتركهم في الأرض وأن أعمالهم وأخطاءهم هي التي ستقضي عليهم لأنهم كلما أخطأوا ولم يجدوا أثراً عكسيا لخطئهم ظنوا أنهم على حق وأن الناس قد استكانوا. فيزيدون في ارتكاب الأخطاء. أما نقدهم فسوف ينبههم الى الأخطاء. ولعل السذاجة في هذا الرأي لا تحتاج الى توضيح.

ورغم المعركة التي دارت حول المجلس فانه عند تكوينه أخذ يمارس النقد لسياسة الحكومة. وقد علق محمد احمد محجوب وهو من قادة أحد الأحزاب التي قاطعت المجلس فقال عن أداء المجلس «فقد كان أعضاء المجلس المركزي غالباً ينتقدون سياسة الحكومة رغم أنهم وصلوا القمة عن طريق التعيين، وبدأوا يعالجون مواضيع مثل حرية الصحافة وسياسة الجنوب والوضع الاقتصادي».

وشهد مطلع عام ١٩٦٣ انسحاب الحزب الشيوعي من جبهة المعارضة. وذكر في بيان انسحابه أنه أيد منذ البداية تجمع أحزاب المعارضة لأنه كان من الممكن أن يؤدي الى توسيع وتعميق جو المعارضة ضد النظام العسكري. ولكن بمرور الزمن وتزايد حركة الجماهير الثورية أثبت تجمع أحزاب المعارضة عجزه عن مسايرة حركة الجماهير، حتى أصبح خلال عام ١٩٦٢ يشكل أثراً سلبياً على الحركة الثورية. وبعد وفاة السيد الصديق بدأت جبهة الاحزاب تتراجع بانتظام عن مواقع المعارضة الايجابية. وقد تجلى ذلك في الآتي:

١) وافقت الجبهة على قرار الحكومة القاضي بالغاء الاحتفال بعيد الاستقلال الذي قررت الأحزاب إقامته في أول يناير.

٢) وافقت الأحزاب على قرار الحكومة بالغاء الاحتفال الذي قررت إقامته بمناسبة الافراج عن زعماء المعارضة بعد أن وزعت رقاع الدعوة.
٣) رفضت الدعوة التي تقدم بها الحزب الشيوعي مرتين لتبني شعار الاضراب السياسي العام.

لهذه الأسباب قرر الحزب الشيوعي الانسحاب.

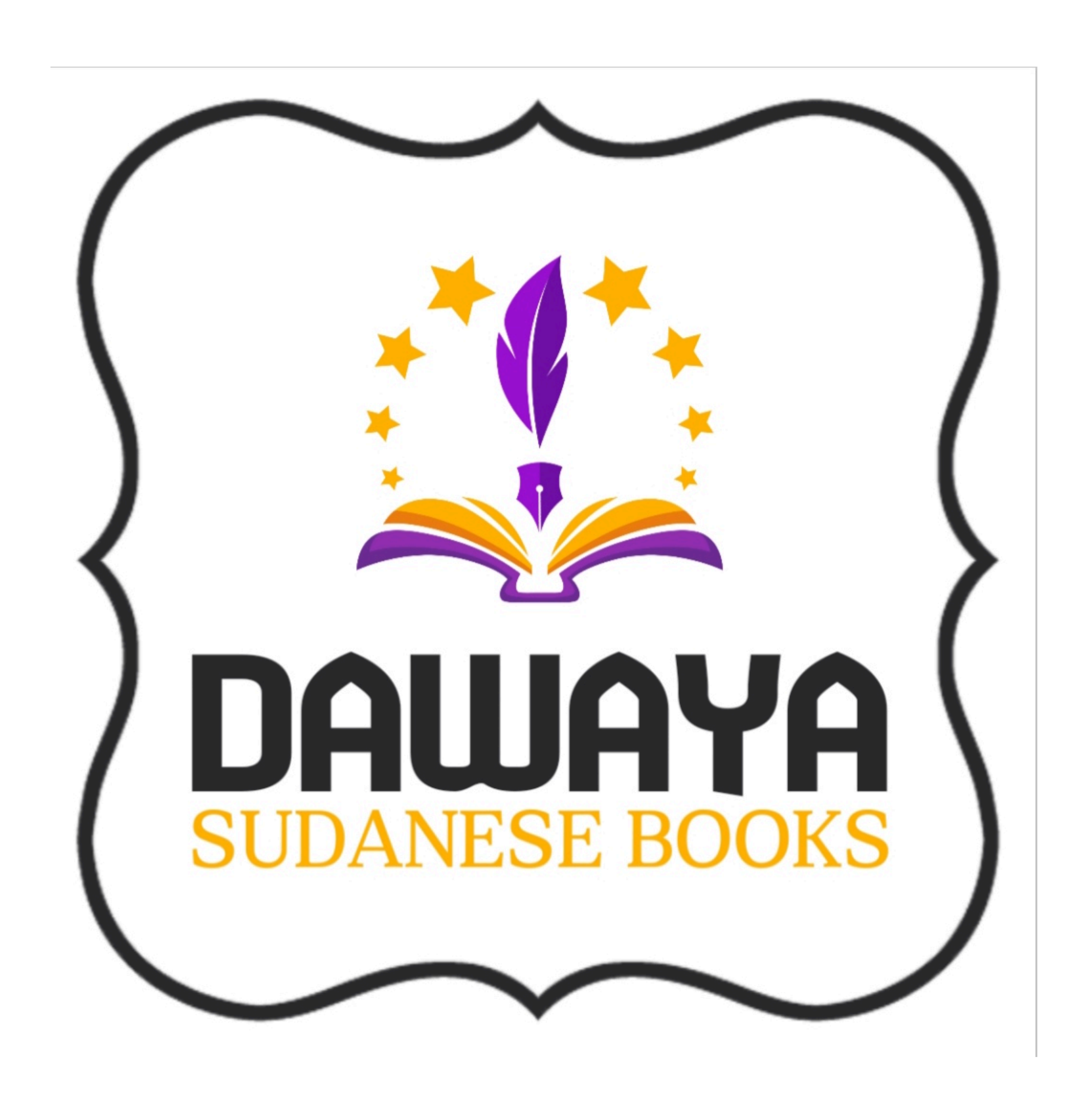
واستمرت أزمة النظام تشتد وتتعمق. فاضرابات الطلبة لم تتوقف، وأزمة الجنوب تزداد حدة والوضع الاقتصادي يتردى، والفساد يزكم الأنوف. وعندما حل شهر أكتوبر ١٩٦٤ كانت الأزمة تمسك بخناق النظام. ولا شك أن الأحزاب السياسية والقوى الاجتماعية قد أحست بدنو أجل الدكتاتورية. وقد عبر الحزب الشيوعي عن موقفه في عدد من البيانات التي أصدرها بين ١٠/٢٠ و١٠/٢٢. ففي ٢٠ أكتوبر صدر بيان من الحزب ينادي بتجميع الحركة الثورية وتوحيدها في جبهة عريضة ديمقراطية. وفي ٢٢ أكتوبر أصدر بياناً جماهيرياً قال فيه إنه من الممكن إزالة النظام إذا اتحدت «قوانا في جبهة ديمقراطية تستهدف القيام باضراب سياسي عنيد لا يتراجع أمام مظاهر القوى الكاذبة حتى تطيح بالنظام الراهن» وأصدر في نفس اليوم خطاباً دورياً ينادي فيه بأن الظروف أصبحت مواتية لكي تندفع القوى الديمقراطية خطوة الى الأمام وأن يجري التقاء عاجل بين مندوبي القوى الديمقراطية في كل أرجاء البلاد لتنظيم إضراب عام.

نعم أصبحت الظروف الموضوعية ناضجة. ولكن الظروف الموضوعية وحدها لا تكفي. فالعنصر الذاتي يلعب دوره والظرف الموضوعي والذاتي يلعبان دوراً مشتركاً في تحديد اللحظة النفسية التي يحدث فيها الانفجار. فقد قامت الدكتاتورية من قبل بقتل ١٢ رجلاً من الأنصار في ساحة

المولد في أم درمان ولم يؤد ذلك الى انفجار ثورة ، بينما أدى مقتل طالب في جامعة الخرطوم الى اندلاع الثورة . ودراسة هذا الموضوع تقع خارج دائرة هذه المقالة .

قصدت من هذه الخواطر التي سميتها «الخلفية التاريخية لثورة أكتوبر» أن أتناول بعض المعالم في مسار الحركة الوطنية السودانية بداية من جذورها حتى أكتوبر ، حتى أوضح أن ثورة أكتوبر لم تكن عملاً فجائياً ولا هي مجهود نفر أو حزب وإنما هي نتاج جهد طويل النفس وصراع دؤوب ومثابر . فكانت كل قطرة دم سكبها شهيد على ثرى أرضنا ، هي المداد الذي خطت به كلمات تلك الملحمة التي غدت إحدى منارات حياتنا السياسية .

ملاحظات حول دور الطلبة والعمال
في معركة الاستقلال


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

لعب الطلبة والعمال دوراً متميزاً في الصراع ضد الاستعمار البريطاني. وقد لعبوا ذلك الدور في البداية غير منظمين، ثم انتظموا في نقابات واتحادات. وفي هذه الملاحظات نتناول دور كل منهما في المعركة من أجل استقلال السودان من براثن الاستعمار.

حركة الطلبة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٣

كان للطلاب دورهم الطليعي في الصراع ضد الاستعمار وهناك عدة عوامل موضوعية وذاتية أدت الى خلق ذلك الجو الثوري بينهم. فقد مكنتهم المعرفة التي حصلوا عليها من الوقوف على بعض من تجارب الامم والشعوب فتفتح وعيهم. وكان بعضهم أمينا على صيانة تلك المعرفة وكرامتها فوظفوها في خدمة شعوبهم. كما ان وجودهم في مكان واحد باعداد كبيرة في اطار رابطة جديدة خارج الروابط التقليدية اعطاهم احساساً بقوتهم وبقدرتهم على العطاء المشترك. وقد ساعدت بعض العوامل الخارجية على اذكاء تلك المشاعر وشحذها.

بعد هزيمة ثورة ١٩٢٤ تراجع النشاط السياسي وانكمش فجاء اضراب طلاب كلية غردون التذكارية عام ١٩٣١ ليؤكد ان الجذوة ما زالت باقية. وكان الطلاب قد تقدموا بعريضة كانت انعكاساً للمزاج المعتدل وسطهم، ولكن الادارة تجاهلتهم. فكونوا لجنة بقيادة مكي المنا ومحمد عبد الكريم. وشارك في قيادة الاضراب الصديق المهدي ويوسف بدري وحسن محجوب وعبد الحميد ابو القاسم.

وكان هناك بعض الخريجين الذين يتعاطفون مع الطلاب ولكنهم لا يحبذون الاضراب ومنهم الشيخ احمد السيد الفيل والشيخ ابو دقن ومحمد علي شوقي وعبد الله خليل وسيد احمد سوار الذهب .

وهناك مجموعة من الخريجين الشباب الذين كانوا يؤيدون الاضراب منهم خضر حمد وعبد الله ميرغني وعثمان حسن عثمان ومكوي سليمان وعبد الرحمن النور وميرغني حمزة ومحمد ابراهيم النور والشيخ ابو القاسم هاشم . وكانت ادارة الكلية تتهم بعض الاساتذة السودانيين بتأييد الاضراب ودفعه وهم اسماعيل الازهري وعبد الفتاح المغربي وعبيد عبد النور وصديق فريق والهادي محمد الامين وهو أخ عبيد حاج الامين . وقد تدخل السيد عبد الرحمن المهدي لاقناع الطلبة بالعودة للدراسة بعد ان اكد لهم بأنه سيطعم ٥٠٠ مسكين ليحلهم من القسم الذي كانوا قد التزموا به .

ورغم ان ذلك الاضراب كان معلماً الا ان اثره لم يتواصل ، فلم يظهر بعده نشاط منظم للطلاب الا في نهاية الثلاثينات . فقد قام طلبة الكلية بانشاء جمعية أدبية كان يرأسها عبد المجيد امام . وقد تطورت هذه الجمعية لينبثق منها اتحاد طلاب المدارس العليا في فبراير ١٩٤١ . وكانت لجنته تتكون من أحمد خير رئيساً ومبارك زروق نائباً للرئيس وعبد المجيد امام سكرتيرا وعضوية محمد احمد الطيب واحمد الطيب احمد ومكي الشيخ وعمر عبد الغني .

وكان هدف الاتحاد ادبياً وثقافاً وتربوياً .. ومنعته الادارة من الانضمام لمؤتمر الخريجين . وقد تعاقب على قيادة الاتحاد بعد ذلك لجان

مختلفة. ففي العام التالي كان الرئيس مبارك زروق والسكرتير حمزة ميرغني، ثم محمد الحسن أبو بكر رئيساً وعبد القادر مشعال سكرتيرا.

وشهدت بداية الاربعينات ظهور اتحادات المدن التي كونها طلاب كلية غردون مثل اتحاد طلاب رفاعة وشندي والابيض.. الخ وكانت تلك الاتحادات تنشط خلال العطلة الصيفية خاصة في اندية المدن. ومن خلال تلك الاتحادات شارك الطلاب في النشاط السياسي. ولعبوا دوراً في الدعوة لمؤتمر الخريجين والتعليم الأهلي ونشروا اناشيد المؤتمر. وقد تطورت هذه الاتحادات حتى تشكل منها عام ١٩٤٥ اتحاد الطلاب السودانيين برئاسة التجاني الطيب وسكرتارية محمد عمر بشير.

وشهدت بداية الاربعينات كذلك ظهور الصحف الحائطية التي اتخذت في البداية الطابع الأدبي البحت. فقد كان الأدب هو الوسيلة التي اتخذتها الحركة الوطنية بعد انتكاسة ١٩٢٤ لتعبر من خلاله عن مشاعرها وتطلعاتها. ثم انتقلت تلك الصحف شيئاً فشيئاً وأخذت تعالج بعض القضايا الطلابية وتنتقد الحياة الدراسية وتعقد المناظرات في القضايا العامة. وحين تزايد النشاط السياسي في البلاد تحولت تلك الصحف الى النشاط السياسي. ومن بين الذين اصدروا تلك الصحف احمد الطيب والوسيلة وعمر محمد عثمان والتجاني الطيب.

وكان عام ١٩٤٥ بداية العمل الطلابي السياسي. فقد قام بعض الطلاب في ذلك العام بتعليق منشورات متفرقة في الكلية معادية للوجود الاستعماري في البلاد. فانزعجت الادارة البريطانية من تلك المنشورات ايما انزعاج، وجندت رؤساء المنازل للكشف عن الذين قاموا بتوزيعها.

وكان الضحية محمد الخير البدوي الذي فصل وحرم الجلوس لامتحان كمبردج (الشهادة المدرسية). وقد صاحب ظهور ذلك النشاط الطلابي قيام الحلقات الماركسية الاولى والتي تكونت منها عام ١٩٤٦ الحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) وهي التي اصبحت عام ١٩٥٦ الحزب الشيوعي السوداني.

وتم عام ١٩٤٦ توزيع كلية غردون التذكارية (المدرسة الثانوية الوحيدة) الى مدرستين ثانويتين هما وادي سيدنا وحنتوب، وانتقل اسم كلية غردون ليحل محل المدارس العليا لتصبح نواة لجامعة الخرطوم. وقد كتب الاستاذ احمد محمد صالح رحمه الله قصيدة في هذا الفراق ضمنها خلسة بعض المعاني الوطنية، منها:

نحن كنا الشموس اضاءت في غسق الليل وان كواها اللهيب
نحن كالعهد لا نمل جهادا لا وليست تنال منا الخطوب
في سبيل الاوطان يستهل الصعب ويحلو التشريد والتعذيب

ويشهد عام ١٩٤٦ احداثاً هامة في مجال النشاط الطلابي وعلى صعيد الحركة السياسية بأسرها. ففي مارس نظم طلاب الكلية مظاهرة سياسية كانت أول مظاهرة تشهدها البلاد منذ عام ١٩٢٤. وكانت المظاهرة احتجاجاً على مجزرة كوبري عباس في القاهرة التي راح ضحيتها شباب مصر على أيدي جيش الاحتلال البريطاني. فكانت المظاهرة أحد المعالم الهامة في مسيرة الكفاح المشترك بين الشعبين السوداني والمصري. وخرجت المظاهرة تسير بشارع النيل. وكانت حدثاً فريداً لم يألفه الطلاب من قبل. وسار في مقدمتها قومندان البوليس البريطاني على صهوة حصانه فالحكومة نفسها لم تدر ماذا تفعل ازاء ذلك التحرك الذي لم تألفه الحركة السياسية زهاء عقدين ونيف من الزمان. لقد كانت تلك

المظاهرة تدشينا للعمل الجماهيري في مجرى الحركة الوطنية السودانية. ومنذ ذلك الوقت تصدر الطلاب اليساريون قيادة الحركة الطلابية وتنظيمها.

وكان بعض الطلاب السودانيين قد اخذوا يتجهون الى مصر باغراء بعثة السنهوري. وتصاعد هذا العدد حتى بلغ اكثر من سبعين طالباً عام ١٩٤٦. وكان لهذا (الغزو) الكثيف تأثيره النوعي الهائل على حركة الطلاب السودانيين في مصر. وهناك اتصل بهم طلائع الشيوعيين السودانيين الذين سبقوهم الى مصر منهم محمد احمد داؤود وعبد الخالق محجوب وسعد امير طه وعز الدين علي عامر. وانخرط كل ذلك العدد في التنظيمات الشيوعية المصرية. وكان اقواها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو). وبعد فترة وجيزة كونوا اتحاد الطلاب السودانيين بمصر والذي لعب دوراً في الحركة السياسية المصرية والسودانية ونتيجة لنفوذ اولئك الطلبة ومن الحلقات الماركسية في السودان تكون تنظيم (حستو) في اغسطس عام ١٩٤٦.

ومنذ نهاية عام ١٩٤٦ أخذ الطلاب في اذكاء المد الثوري والضغط على قيادات الاحزاب الكبرى لتطرح شعار تقرير المصير باعتباره الشعار المعبر عن طموح الشعب. واخذوا في ارسال الوفود للاتصال بقيادات الاحزاب خاصة الاشقاء والاتحاديين. كما ارسلوا البرقيات بصورة متواصلة الى الحاكم العام والى مجلسه والى السكرتير الاداري محتجين على مختلف الممارسات الاستعمارية.

وفي نفس العام (نوفمبر) قرر اتحاد الطلاب المشاركة في المظاهرة التي دعا لها مؤتمر الخريجين. وطرحوا لأول مرة وبشكل جاد شعار

الكفاح المشترك مع الشعب المصري بديلاً لوحدة وادي النيل تحت التاج المصري . وكان رئيس الاتحاد عبد القادر مشعال وسكرتيره متوكل احمد امين . وكانت ادارة الكلية قد حذرت الطلاب من الانغماس في السياسة وانها قد تضطر الى اغلاق الكلية . ورد الطلبة بأن واجب المتعلمين السودانيين العمل على ازاحة الحكم الأجنبي من البلاد ، وان الطلبة لن ينفصلوا عن قضايا شعبهم الذي تكبد دفع الضرائب ليسهل لهم مهمة التعليم ، فخرجت المظاهرة .

ويروي احد قادة الطلبة (عباس علي) عن تلك المظاهرة قائلاً : ان الهدف منها كان السير من الكلية بشارع الجمهورية الحالي . ولكن تم اعتراضها من قبل الانصار الذين كانوا قد تجمعوا على جانبي الطريق بين سراي السيد عبد الرحمن (دار الوثائق حاليا) ومكاتب الدائرة (الخطوط الجوية السودانية حالياً) . وكان هدفهم منع المظاهرة من الوصول الى نقطة التجمع في ميدان عباس (الامم المتحدة حالياً) . ولم تنجح الخطة . ولكن حدثت بعض اعمال العنف فقد على أثرها احد الطلبة عدداً من اسنانه ، كما وقع اعتداء على الاستاذ مكي شبيكة وكان من اقطاب الاتحاديين وكسرت ذراعه . كما قام الانصار بالهجوم على ميدان عباس وعلى نادي الخريجين بأم درمان . وعلى أثر تلك المظاهرة تم اغلاق الكلية وحل الاتحاد . ولكن الاتحاد واصل نشاطه بصفة سرية . وظل الاتحاد محلولاً حتى بعد فتح الكلية عام ١٩٤٧ .

واستعاض الطلبة بالاندية والجمعيات كواجهة لنشاطهم السياسي بدلاً من الاتحاد . فظهرت أول جريدة حائطية باللغة الانجليزية باسم (مرآة الاثنين) . ورأس تحريرها الطاهر السراج . وكانت الجريدة لسان الطلبة

الشيوعيين في الكلية. وفي نفس العام وافق مدير الجامعة الجديد المستر ولشر على عودة الاتحاد. وتولى رئاسة الاتحاد محمد سعيد معروف وسكرتاريته حسين عثمان ونى وكلاهما من (حستو). وواصل الاتحاد نشاطه بارسال البرقيات والوفود اسهاماً في الحركة الوطنية التي كان نشاطها يتصاعد. وكون الطلبة التقدميون رابطة الزمالة الثقافية. وكانت تجتمع سراً في قاعات المحاضرات بكليتي الحقوق والآداب. ولكن خبرها وصل الى الادارة مما عرض سكرتيرها للاستجواب.

ثم بدأ طلبة الكلية يفكرون في تنظيم طلاب المدارس الثانوية حتى لا يظل نشاطهم معزولاً عن مجمل الحركة الطلابية. وبدأ الاعداد لتنظيم اتحادات في المدارس الثانوية والتي تكون منها الاتحاد العام للطلاب السودانيين عام ١٩٤٧.

وفي عام ١٩٤٨م تكونت اللجنة الجديدة لاتحاد طلاب الكلية برئاسة حسين ونى وعضوية فتحي حسن المصري. وأصبحت خالدة زاهر أول طالبة تدخل لجنة الاتحاد. وقد أسهم الاتحاد بشكل فعال في المعارك ضد الجمعية التشريعية والقوانين المقيدة للحريات. واصدر الاتحاد مجلة (كلية غردون) بصورة جديدة. فكانت موضوعاتها مكرسة ضد الاستعمار البريطاني بصفة خاصة وضد الجمعية التشريعية وضرورة مقاطعتها. كما تناولت المجلة التعليم الاستعماري بالنقد وكشفت اهدافه. وقد ابدت ادارة الكلية عدم رضائها من المجلة. ونظم الاتحاد اضراباً عن الطعام لنقص المواد الغذائية وعدم تناسب الخدمات المختلفة مع زيادة عدد الطلاب.

وفي عام ١٩٤٩ تكونت لجنة جديدة برئاسة مصطفى السيد وسكرتارية محجوب محمد صالح وفي نفس العام تكون مؤتمر الطلبة الذي يضم طلاب الكلية والمدارس الثانوية. ولكن مدير المعارف منع طلاب المدارس من الاشتراك فيه، فأعلن اتحاد الكلية الاضراب في ابريل. فقامت سلطات الكلية بفصل مصطفى السيد ومحجوب محمد صالح والطاهر عبد الباسط.

وكان للاتحاد مكان في كل ليلة سياسية تقام. وفي آخر ليلة سياسية نظمت قبل نهاية العام الدراسي بأندية الخريجين في ام درمان والخرطوم والخرطوم بحري طلب الاتحاد ارسال مندوبين لالقاء كلمات. والقيت الكلمة في ليلة ام درمان، ولم تلق في الاندية الاخرى اذ هاجمها البوليس ومنع المتحدثين من القاء كلماتهم فخرجت مظاهرة في أعقاب ذلك من الخرطوم والخرطوم بحري.. فاعتقل مندوبا الاتحاد وحكم على كل منهما بأسبوع سجن وهما محمد عمر بشير وحسين ونى.

ومنذ عام ١٩٥٤ وحتى قيام الحكم الذاتي لعب الطلبة في الكلية والمدارس الثانوية دوراً نشطاً في الحركة السياسية. وما كان يمضي عام دون ان تكون احدى المدارس قد دخلت في اضراب او سيرت مظاهرة. ولم تتوان السلطة الانجليزية من انزال العقوبة على الطلبة فصلاً وايقافاً. وشرد عدد كبير من قيادات الحركة الطلابية. وهو الثمن الذي دفعوه من أجل ان تنال البلاد حريتها.

وقد ظهر الاتجاه الاسلامي عام ١٩٤٩ في الكلية الجامعية ومن بعدها في المدارس الثانوية وقاده بابكر كرار ومحمد يوسف محمد وقد تمكنوا عام ١٩٥٢ من الفوز بمقاعد لجنة الاتحاد وتولى رئاسة الاتحاد الرشيد الطاهر

وتولى السكرتارية احمد الشيخ البشير وسعوا لاقناع الاحزاب بقبول اتفاقية فبراير عام ١٩٥٣ خلال تلك الدورة.

وحدث انقسام في الحركة في نفس العام قاد خلاله الرشيد الطاهر فريقاً من اعضاء الاتحاد (الاخوان المسلمون) ووثق علاقتهم بحركة الاخوان في مصر ومع الطلاب السودانيين الذين انضموا للحركة هناك بينما استقل بابكر كرار ورفاقه عنهم وتمسكوا بقيام جبهة اسلامية غير مرتبطة بالاخوان.

الحركة العمالية في معركة الاستقلال: ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠م

تكونت الحركة العمالية المنظمة بعد الحرب العالمية الثانية ولعبت دوراً مؤثراً في تاريخ السودان السياسي.. وقد هيأ لتلك النشأة وجود ظروف موضوعية وذاتية.. فعلى الرغم من ان السودان بلد يعمل غالبية أهله في الزراعة والرعي ويفتقد وجود صناعات حديثة، وبالتالي لم يشهد ظهور طبقة عمالية حديثة واسعة (برولتاريا) الا أنه شهد قيام حركة عمالية منظمة ونشطة ومؤثرة. فقد نشأت بعض المدن الحديثة التي ارتبط سكانها بالعمل في السكة الحديد مثل عطبرة وكوستي والخرطوم بحري الخ..... والتي وجد فيها جمهور من الطبقة العاملة الحديثة التي ترتبط بمخدم واحد وتمتلك قدراً كبيراً من المهارة الفنية التي اكتسبتها من دراستها في المدارس الصناعية.. واصبحت كلها تسهم في انتاج اجتماعي واحد، فساعدت هذه الظروف في رفع الوعي الطبقي لدى فئات من اولئك العاملين.

ولعبت اندية العمال التي قامت في بعض المدن الكبرى دوراً في ترقية

ذلك الوعي ، اذ غدت تلك الاندية منابر اجتماعية وثقافية ثم سياسية . وأدت ظروف الحرب الى تفاقم الأزمة الاقتصادية والتي كان وقعها على العمال اكثر حدة من غيرهم . وكانت الاوضاع التي اعقبت الحرب تضج بالحركات العمالية . فذاك حزب العمال يفوز بالانتخابات البريطانية ، ويشكل الحكومة ويبدأ يمد يده ما وراء البحار متلمساً الحركات العمالية في المستعمرات حتى يحتويها لتصبح سندا له . وهناك الاتحاد السوفيتي يدحر الفاشية ويبدأ في تأسيس المعسكر الاشتراكي الذي تقوده حكومات الطبقة العاملة . ثم يأتي طلائع الطلبة الماركسيين من مصر بحسهم السياسي العالي ويتلقطون تلك الخيوط الرفيعة ويشرعون من فورهم للعمل وسط العمال . لقد لعب العنصر الذاتي دوراً كبيراً في تلك الظروف التي كان فيها ادراك الظروف الموضوعية يحتاج الى قدر عال من الوعي السياسي وبعد النظر والخيال . لقد كان دور المثقفين في تنظيم حركة الطبقة العاملة كبيراً .. وسيظل التمازج بين المثقفين التقدميين وحركة الطبقة العاملة عماد الحركة الثورية في السودان . فأخذت عطبرة تشهد قدوم اولئك المثقفين منهم عوض عبد الرازق ، حسين ونى وعبد الخالق محجوب وغيرهم ولم تقف الحكومة البريطانية ساكته ازاء ما كان يحدث فقد ادركت ان تحركات العمال لا بد وستقود الى قيام تنظيم عمالي ، فكان عليها مواجهة هذا الامر بكل الاساليب فبدأت بمحاولة امتصاص ذلك التحرك فكونت ما عرف بلجان العمال وهي تنظيمات خاوية سرعان ما نبذها العمال واندثرت .. ثم استجلبت المستر نيومان الخبير في شؤون العمل لينجز صيغة يتم بها احتواء الحركة الوليدة . فانبرى له العمال وكتب قاسم امين سلسلة من المقالات في جريدة الصراحة بعنوان (وكشفناك كشفناك يا نيومان) ــ ثم لجأت الحكومة الى اسلوب

المفاوضات المطولة واللجان لعل همة العمال تفتر ويخبو حماسهم. ثم لجأت الى سلاح القمع من تشريد وسجن ولكن استطاعت الحركة ان تتخطى كل تلك الاساليب وتبرز الى الوجود.

وشهد صيف عام ١٩٤٦ قيام أول تنظيم للعمال والمعروف (بهيئة شؤون العمال) وقد عمل على تكوين الهيئة وقيادتها مجموعة من العمال الذين تميزوا بدرجة او أخرى من الوعي الطبقي منهم: سليمان موسى، عبد الله البشير، هاشم سعيد، قاسم امين، الشفيع احمد الشيخ، ابراهيم زكريا وغيرهم... وواجهت الهيئة اشق مهمة لها وهي اعتراف ادارة السكة الحديد بها كممثل شرعي للعمال. ثم بدأت عملية الشد والجذب استغرقت عاماً كاملاً دون الوصول الى نتيجة.

فقامت اللجنة التمهيدية للهيئة بانتزاع زمام المبادرة ودعت العمال الى الخروج في موكب يوم ١٩٤٧/٧/٨ بعد ساعات العمل لتقديم عريضة لادارة السكة الحديد تطالبها بالاعتراف بالهيئة. وشهد ظهر ذلك اليوم خروج أول موكب عمالي منظم في تاريخ البلاد. وخرج الموكب تتقدمه اللجنة التنفيذية ووسطهم قاسم امين بقامته المديدة فأضفى عليه ثقة ويقيناً.. وواجهت الحكومة البريطانية الموكب بالرفض وبحائط من رجال البوليس مسلحين بالعصي والبنادق. وأدى ذلك التصعيد من جانب الحكومة الى وقوع اشتباك بين الطرفين اصيب من جرائه عدد من الناس باصابات بالغة. وفي اليوم الثاني اعتقلت الحكومة ستين من قيادات العمال في جو من الارهاب انزلق فيه الجيش بالمصفحات الى الشوارع. وفور اعلان العمال الاضراب الذي طار خبره الى تجمعات العمال في بورتسودان والخرطوم وسنار وغيرها وتولت اللجنة الاحتياطية

بقيادة الشفيع احمد الشيخ تسيير دفة الاضراب سرا . وكان لا بد لذلك الاضراب ان ينجح لأن فشله قد يعني وأد الحركة الوليدة في مهدها .

ولكن وعي العمال كان عالياً رغم قصر تجربتهم السياسية . فما ان اعلن الاضراب حتى قام شباب العمال بتشييد حاجز بشرى بين السكة الحديد والمدينة فاصطفوا جنبا الى جنب في صف واحد من السكة الحديد حتى الكبري . وكان الهدف من ذلك الحاجز الخوف من عدم وصول خبر الاضراب الى العمال ، لأن اعلانه جاء متأخراً في العصر وربما قام بعضهم بالذهاب الى المدينة وكان العامل الشاب الحاج عبد الرحمن يركب على عجلة ويسير على طول ذلك الحائط ويشرف على تنظيمه . وأخذ العمال يرددون الاناشيد التي الهبت مشاعرهم .

وكان التضامن مع العمال واسعا ، فأخذت البرقيات تنهال على الحاكم العام من المواطنين ومن الجبهة الوطنية تستنكر اعتقال العمال وتطالب باطلاق سراحهم . وقدم الى عطبرة وفد من الجبهة الوطنية بقيادة محمد نور الدين ومن الجبهة الاستقلالية بقيادة محمد احمد محجوب ومن الصحفيين بقيادة احمد يوسف هاشم .

ونتيجة لموقف العمال الصلب ولتدخل لجنة الوساطة تم اطلاق سراح المعتقلين ورفع الاضراب الذي استمر عشرة أيام . واعترفت الحكومة بهيئة شئون العمال ممثلاً للعمال وقدمت قيادة العمال للمحاكمة بتهمة تسيير موكب غير مشروع وترأس المحكمة القاضي محمد ابراهيم النور ودافع عن العمال مبارك زروق ومحمد احمد محجوب ومالك ابراهيم . وكان حكم المحكمة خمسين قرشاً غرامة قام بدفعها محمد نور الدين . وطالبت الحكومة باجراء استفتاء بين العمال حول اللجنة التمهيدية . وجاءت النتيجة نصراً

كبيراً لصالح العمال ــ اذ صوت كل العمال ــ الا ٢١ عاملاً لصالح اللجنة وهكذا انتهت المعركة بانتصار العمال.

وبدأت مراحل جديدة في الصراع، فقد بدأت الهيئة تباشر نشاطها وتطالب بتحسين اوضاع العمال وشروط خدمتهم ورفع مستواهم المعيشي. وانتهجت الحكومة أسلوب التسويف والمماطلة ازاء تلك المطالب. فقرر العمال الدخول في اضراب رمزي لمدة يومين. وقد علق البروفسير سعد الدين فوزي علي على نجاح ذلك الاضراب بأنه برهان ساطع على نفوذ الهيئة وسط عمال السكة الحديد. ثم بدأ تبادل المذكرات بين الهيئة والحكومة ولم تجد. وكونت الحكومة لجنة محايدة للنظر في مطالب العمال جاءت قراراتها مخيبة للآمال. فقرر العمال الخروج في مظاهرة حملوا قرار اللجنة على هيئة نعش وطافوا به مدينة عطبرة. وقد أثار النعش فضول الناس. فقد بدأ الموكب بعدد محدد ارتفع الى بضع آلاف. وكان العمال يهتفون (الى الجحيم يا قرار).. وحطب عثمان الريح في الموكب..

وشهد عام ١٩٤٧ صدور أول منشور في عطبرة باسم (حستو). وقد قام بتوزيعه قاسم امين، الارباب العربي، ابراهيم زكريا، الجزولي سعيد وغيرهم.. وقرروا ان يتم تعليق المنشور في كل انحاء عطبرة في ساعة واحدة وفعلاً علق المنشور على أعمدة الكهرباء والصق بالعسل لتعذر الحصول على أي مادة أخرى، وقد ساعد المنشور في تعبئة العمال.

وتصاعدت المواجهة بين العمال والحكومة ووصلت قمتها في مارس ١٩٤٨ بدخول العمال في اضراب مفتوح. ويصف الحاج عبد الرحمن أثر ذلك الاضراب قائلاً: توقف دولاب العمل في كل انحاء السكة الحديد وخيم على مدينة عطبرة ظلام دامس بسبب انقطاع النور وصمتت

القاطرات فلم يعد يسمع لازيزها صوت.. ووقف اهالي عطبرة مع العمال في حركة تضامن واسعة، فتبرع أصحاب المنازل بايجار منازلهم التي يسكنها العمال وفي مقدمتهم الحاج البصيلي الذي كان يملك عدداً من المنازل.. وأعلن أحد الغسالين بتبرعه بغسيل ملابس العمال مجاناً. وتبرع ترزي بخياطة ملابسهم وتبرع الطبيب اليوناني باتريدس بعلاجهم مجاناً.. وتبرع مزارعو دار مالي وكنور بانتاج ١٧ ساقية من الخضروات فكانوا يحملون انتاجهم كل صباح وسط زغاريد النساء وهتافات العمال. وشاركت المرأة بالتبرع بحليها كما تولدت حركة اضراب مناصرة بين قطاعات أخرى من العمال في ماركنتايل وورش المقرن، وتبرع عمال المخازن بمرتب يوم وخاض الطلبة لج المعركة مناصرين ومؤازرين، بل ان حركة التضامن امتدت حتى مصر.. وأمام هذه الصلابة تراجعت الحكومة وقبلت الكثير من مطالب العمال.. لقد كان ذلك الاضراب أحد المعالم البارزة في الصراع ضد الاستعمار.

وكان لا بد للعمال بعد تلك المعارك ان يتوصلوا الى ادراك كامل للجوهر الاساسي لصراعهم ضد الاستعمار البريطاني، وان يرتفعوا الى درجات متقدمة في المواجهة السياسية. وقد عبر القائد العمالي قاسم امين عن هذا الاتجاه قائلاً: إنه أصبح جلياً للعمال اذا ارادوا ان يحققوا أجوراً عالية وان يخفضوا ساعات العمل يجب عليهم ان يوجهوا نضالهم أولاً وقبل كل شيء ضد السلطة السياسية الاستعمارية.

فما ان انفجرت المعركة ضد الجمعية التشريعية عام ١٩٤٨ حتى خاضها العمال.. وخرجت عطبرة في مظاهرة صاخبة اعتقل على أثرها قاسم أمين وعبد القادر سالم، وحكم عليهما بعامين في السجن، ويذكر

رجال ذلك الجيل البرقية التي ارسلها والد قاسم أمين الى ابنه عند محاكمته يقول فيها :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا   إن الحياة عقيدة وجهادُ

وخرج قاسم امين من السجن واتجه رأسا الى مؤتمر عمال السكة الحديد الذي كان منعقدا وخطب فيه قائلا : (من لي بالقاضي الذي حاكمني بل من لي بحكومة السودان لأقول لها في جرأة بالغة وتحدٍّ ظاهر انني قد عدت .

ويصف الحاج عبد الرحمن مظاهرة العمال ضد الجمعية التشريعية قائلاً : في الساعة الرابعة بعد الظهر خرجت جماهير العمال من النادي الأهلي واصطفت حاملة الاعلام التي تندد بالجمعية . ومن الجانب الآخر اصطفت قوى الجيش ورفعوا لافتة كتب عليها (تفرقوا والا سنضرب بالنار) ... وأمام هذا الموقف المتصلب من الجانبين .. أمر المستر هيج مفتش مركز عطبرة قوى البوليس التي كانت تختبىء في أماكن بالقرب من هذا التجمع بتفجير القنابل التي كانت تحتوي على مواد متفجرة ، قضت على خمسة من المواطنين استشهد بعضهم في نفس اليوم والبعض الآخر في فجر اليوم التالي ، بينهم ثلاثة من العمال هم قرشي الطيب ــ حسن دياب ــ عبد الوهاب حسن مالك ..

وفي عام ١٩٤٩ تكونت نقابة عمال السكة الحديد لتحل محل هيئة شئون العمال فكانت فاتحة لتكوين نقابات عمالية أخرى . وفي عام ١٩٥٠ تكون اتحاد نقابات عمال السودان وأصبح محمد السيد سلام رئيساً والشفيع أحمد الشيخ سكرتيرا عاماً للاتحاد بجانب سكرتاريته لنقابة عمال

السكة الحديد. ومنذ عام ١٩٥٠ وحتى استقلال السودان واصلت الحركة العمالية دورها النشط في معاداة الاستعمار.

ومن أشهر معاركهم اضراب الحريات الذي حوكم نتيجة له قادة العمال وحل اتحادهم.. ثم اضراب البوليس الذي أقض مضجع الاستعمار.. وواصلت الحكومة اجراءاتها القمعية فاعتقل الشفيع وحوكم وفصل من الخدمة وفقد منصبه كسكرتير نقابة عمال السكة الحديد ولكنه احتفظ بمنصبه كسكرتير عام لاتحاد العمال حتى استشهاده في يوليو ١٩٧١م.

خاتمة:

اختلفت حركات الطلبة والعمال من حيث الاماكن التي نشأت وتطورت فيها. الا ان زمان نشأتها كان متقاربا. وهي حركات نشأت بين الفئات الحديثة في المجتمع سواء في مواقع الانتاج او مراكز الثقافة في المدن. واستطاعت ان تقف ضد حركات الاحتواء سواء من جانب الاستعمار او الاحزاب السياسية، مما اكسبها درجة عالية من الاستقلال في نشاطها. وكان صراعها ضد الاستعمار عنيفا، قدمت فيه تضحيات جساماً. وقد لعب اليسار ممثلا في الجبهة المعادية للاستعمار دوراً رائداً في تنظيمها ودفعها.

وليست هذه الملاحظات دراسة لتاريخ تلك الحركات بقدر ما هي محاولة لابراز الجوانب الهامة في دورها في معركة الاستقلال. فقد قامت بالاضراب والمظاهرات والمواكب التي ارهقت الاستعمار. فكانت من العوامل التي اسرعت بنهايته. فقد خرج من بين صفوفها الشعار المدوي (يسقط الاستعمار.)

رد على كاتب تاريخ
مرتبك معرفيا وايديولوجيا *

(*) نشرت هذه المقالة بجريدة الصحافة في عددها بتاريخ ١٩٨٥/١١/١٢.

نشرت جريدة الصحافة بعددها بتاريخ ١٩٨٥/٨/١٤ مقالاً للدكتور فيصل محمد موسى بعنوان «القدال لم يحاصر المهدي»، وهو يدور حول كتابي «الامام المهدي لوحة لثائر سوداني» وتعليق البروفسير على الملك حول نفس الكتاب، والذي نشر في عدد سابق من الصحافة. ونحن في حاجة الى نقد انتاجنا الفكري، وقد عبرت عن تلك الحاجة في مقدمة دراستي بعنوان: المدرسة التاريخية السودانية المنهجية والايديولوجية حيث قلت: «فالنقد عندنا ضعيف ان لم يكن معدوماً أصلاً. ففي المجتمع القبلي شبه الرعوي وفي المجتمع الاكاديمي العائلي، يضعف النقد أمام تلك الروابط. ويفهم النقد فهما ذاتياً بحتاً فهو إما تحامل أو هدم أو تقليل من شأن الآخرين. وقليلاً ما يؤخذ على أنه تعامل جدلي مع الانتاج الفكري من أجل المضي به قدماً». ومن هنا جاء ترحيبي بكل المقالات التي نشرت حول كتابي عن الامام المهدي. فليس من أغراض هذه المقالة الرد على ما أثاره الدكتور فيصل حول الكتاب. ولا أعتقد ان ملاحقة النقاد فيما يثيرونه من ملاحظات حول الاعمال الفكرية أمر يساعد على تطور حياتنا الفكرية. فعلى النقاد ان يكتبوا وعلى الكتب ان تدافع عن نفسها وان تصمد أمام النقد ان كانت لها قدرة على الصمود، او تنتهي كما انتهى كثير من الكتب التي زحمت افقنا الفكري.

والذي دفعني الى كتابة هذه المقالة بعض القضايا التي اثارها الدكتور فيصل حول منهج البحث التاريخي، وبعض المعلومات التي ذكرها والتي أرى من الضروري التعرض لها. جاء في مقدمة مقاله ما

يلي : « وقد اتيحت لي الفرصة بقراءة الكتاب صفحة صفحة وسطراً سطراً وبتأن شديد » . وما الجديد في هذا ؟ فكل الكتب تقرأ صفحة صفحة وسطراً سطراً . واذا كان هذا اكتشاف جديد فعلى الكاتب ان يثابر عليه . ثم لماذا التأني الشديد في قراءة الكتاب ، هل هو يقرأ كتاباً في الفيزياء ويخشى ان يرتج عليه فهم احدى معادلاته ؟ ان القراءة المتأنية لا يعلن عنها كما يعلن عن الزيت والصابون وانما تنعكس في الانتاج الفكري . وهل يتفق معي الدكتور في ان القراءة الحاذقة قد لا تؤهل القارىء لهضم الكتاب ؟ فكم من كتب قرأها الناس بتأنٍ ولم يهضموها ؟

ثم يأتي الكاتب الى فقرة أساسية يقول فيها : « إن الكاتب حاول أن يخضع كتابه عن سيرة الامام المهدي وهو شخصية دينية فكراً وسلوكاً ومنهجاً الى التفسير المادي للتاريخ . ومدرسة التفكير المادي للتاريخ مدرسة نشأت حديثاً بعد الثورة الروسية ١٩١٧ في حين ان الكاتب يتحدث عن فترة ما بين ١٨٨٦ ــ ١٨٧٩ كسيرة ذاتية للامام المهدي وما بين ١٨٨١ ــ ١٨٨٥ فترة الثورة المهدية والمواطن التي ورد فيها استدلال مفكري المنهج المادي للتاريخ أمثال ماركس وانجلز وغيرها في الصفحات ١٤ ، ١٥ ... الخ » .

وسوف نعتمد على توفر حسن النية ونتغاضى عن الاخطاء في التركيب والتعبير وضعف الصياغة الواردة في هذه الفقرة . فهو يقول ان ما كتبته سيرة ذاتية عن الامام المهدي . وهناك خطأ شائع فالسيرة الذاتية يكتبها الشخص عن نفسه لهذا سميت ذاتية . أما ما نكتبه عن الآخرين فهو مجرد سيرة ، مثل السيرة النبوية لابن هشام . ثم يقول (التفكير المادي للتاريخ) . والتاريخ لا يفكر لا مادياً ولا روحياً ولعله قصد المنهج المادي

في دراسة التاريخ ، ان توفر حسن النية هو الذي ساعد على استقامة المعنى .

لننتقل الى الاهم . يقول : المنهج المادي نشأ بعد الثورة الروسية عام ١٩١٧ . وهذا خلط بين الحدث التاريخي وبين المنهج الفلسفي ، فانتصار الثورات ليس اعلاناً لبداية منهج فلسفي . ان الفلسفات تبدأ في التفاعل في رحم المجتمع قبل ميلاد الثورة ، وانما يكون انتصار الثورة انتصاراً لذلك المنهج بعد ان يصل درجة من النضج . فاندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ لا يعني ميلاد الفكر البرجوازي والفلسفة البرجوازية . لقد تطور ذلك النهج على يد فلاسفة الثورة قبل اندلاعها مثل روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) وفولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) ومونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) . وهكذا الشأن مع الثورة الانجليزية والمصرية ... الخ . فالثورة الروسية انتصرت عام ١٩١٧ ولكن المنهج المادي الديالكتيكي تطور في القرن التاسع عشر .

ويقع الكاتب في خطأ آخر عندما يذكر ان ماركس وانجلز قد كتبا بعد انتصار الثورة الروسية عام ١٩١٧ . أولا : هما مفكران ألمانيان عاشا في القرن التاسع عشر . فقد مات ماركس عام ١٨٨٣ وانجلز عام ١٨٩٥ . وقد أقيم احتفال قبل عامين في برلين في الذكرى المئوية لوفاة ماركس حضره نفر من العلماء الاجلاء من مختلف انحاء المعمورة . وهذا الخلط يذكرني بما كتبه احد التلاميذ في مجلة حائطية باحدى المدارس الثانوية يقول : (ان مقولة الغاية تبرر الوسيلة كتبها لينين في كتابه رأس المال) . ثانياً ، عاصر ماركس وانجلز الثورة المهدية وقد أشاد بها انجلز لأنها ثورة هزمت الاستعمار الاوربي ، ولكن ليس هذا بأمر يدخل في مجال حديثنا .

ومن قال ان المنهج المادي لتفسير التاريخ نشأ بعد الثورة الروسية او حتى في القرن التاسع عشر؟ لقد ظهر المنهج المادي منذ عهد ارسطو طاليس (٣٨٤ ــ ٣٢٢ق.م.) أي قبل ٢٤ قرنا، وأخذ هذا المنهج يتطور عبر مسار وعر مستمدا قوته من تطور المجتمع البشري ومن حاجته الملحة لتفسير الظواهر المحيطة به. فحينا كانت تبرز المادية وحيناً آخر يبرز الديالكتيك وكلاهما في أشكال أولية. ولكنها شكلت أدوات استعانت بها البشرية في الكشف عن بعض من أسرار حياتها. وبلغ هذا المنهج قمته في القرن التاسع عشر في الفلسفة المادية الديالكتيكية التي افرزتها التناقضات الحادة للنظام الرأسمالي. ويقوم هذا المنهج الفلسفي على دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية دراسة شمولية في واقعها الذي نشأت فيه موضعياً، ثم الوقوف على القوانين التي تحكم حركتها اي جدليتها أو ديالكتيكيتها. فالمنهج المادي قديم قدم البشرية المستنيرة ذاتها وله تجلياته في كل منعطف تاريخي.

وهناك خطأ شائع يقول ان المنهج العلمي او المادي ينكر وجود الدين ودوره في المجتمع وفي التاريخ، وهو خطأ ناجم عن جهل وفي كثير من الأحيان عن قصد. ولكن الدين موجود في حياة الناس كعقيدة او كمنهج للحياة.

وقد حدد مؤسس الفلسفة المادية الديالكتيكية بوضوح ان الحوافز المحركة في التاريخ كانت دائماً ايديولوجية وغالباً دينية. وكان هدفه ان يوضح لماذا سادت بعض الافكار في زمن دون آخر، وان يكتشف العوالم التي تبرز القيم والمثل التي يعيش ويموت في سبيلها الانسان. وهذا هو السؤال الشاق والعسير. ان شخصية المهدي دينية والثورة التي قادها

حركها الدافع الديني. هذا لا جدال حوله، ولكن لماذا حركت فكرة المهدي المنتظر ساكن الحياة في البلاد ودفعت الناس الى الثورة؟ هل كان بامكان فكرة دينية أخرى ان تقوم بنفس الدفع؟ وهل بامكان الفكرة أن تؤدي نفس الدور وتدفع الناس الى الثورة في واقع تاريخي آخر خارج الزمان والمكان ذاك؟ فهل نخوض لج هذه الاسئلة ام نكتفي بالتسطح على الساحل. ان المنهج المادي ليس نقيض الدين بل هو نقيض المنهج المثالي الذي يتعامل مع الظواهر تعاملاً ذاتياً لا موضوعياً ويتناول الظواهر تناولاً احادياً ويستلها من واقعها ويجردها من بعدها التاريخي. وكم صاح الناس حتى بح صوتهم وهم يصيحون لتوضيح هذا الامر.

ثم يقول ان المنهج المادي لا يصلح لدراسة الثورة المهدية لأنه نشأ بعدها. هل هذا يعني ان القوانين العلمية التي يقف عليها الناس في مرحلة معينة غير صالحة لدراسة المراحل التي سبقت معرفة ذلك القانون؟ وهل يعني هذا ان دراسة الحضارة الاغريقية لا يطبق عليها اي معرفة علمية وقوانين عرفها الناس حديثا؟ وهل تعني دراسة الحضارة الرومانية ان نرتد اليها؟ ان هذا القول يعني ان أي نظرية علمية تنشأ متأخرة لا تصلح لدراسة الماضي عل ضوء ما توصلت اليه من أفكار جديدة. ولكن علينا ان نفرق بين القوانين التي تحكم حركة الطبيعة والمجتمع وبين معرفة تلك القوانين. لقد عرف الناس حقيقة كروية الارض والقوانين التي تحكم علاقتها بالكواكب الاخرى في القرن الخامس عشر، مع ان تلك الحقيقة وتلك العلاقة موجودة قبل ملايين السنين، وقد تعامل الناس مع دوران الارض حول نفسها وحول الشمس في صيفهم وشتائهم وصبحهم ومسائهم، دون ان يدركوا أنها كروية وانها تدور حول نفسها. فالقانون موجود موضوعيا خارج ذاتنا ووعينا أما معرفة القانون فهي

انعكاس للدرجة التي وصل اليها وعينا ، حتى تمكنا من معرفة القانون . ولم تنشأ البشرية منذ يومها الاول وهي تدرك كل ما في أمور عالمها وحياتها ، ولكنها تطورت وارتفعت درجات وعيها وأخذت تدرك الكثير من الظواهر التي كانت تستعصي عليها من قبل . وعندما تصل البشرية الى معرفة ظاهرة جديدة أو نظرية ، فهي لا تبدأ في تطبيقها والتعامل معها منذ معرفتها بها وتنكر عليها ان تساعد معرفة ما فات من ماضيها .

وما زلنا نذكر دراسة طه حسين للأدب الجاهلي وانه استعان في تلك الدراسة بالمنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الاشياء . ورغم اختلافنا في تقييم ذلك الكتاب علينا الاعتراف بالدور الايجابي الكبير الذي أداه طه حسين مقتحماً ورائداً في مجال دراسة التراث الفكري العربي الاسلامي فان محاولته في هذا المجال انتجت صيغة جديدة معاصرة لمعرفة هذا التراث ، ثم محاولة استيحاء مناهج البحث العلمي الحديثة في انتاج هذه الصيغة هما بذاتيهما كانتا في عشرينات هذا القرن سابقة فكرية تاريخية ذات قدر عظيم !!

والدكتور فيصل نفسه يلم بأطراف من المنهج المادي دون أن يكون مدركاً لذلك ، فهو يكتب في رسالته التي أعدها لنيل الماجستير (١٩٧٥) عن النظام المالي لدولة المهدية ، ان من الاسباب الرئيسية التي تؤدي الى قيام ثورة وجود تذمر عام مصحوب بتحلل في الناحية الاقتصادية (ص ١٦) . ويورد هنا ما ذكره البروفسير هولت في كتابه عن الدولة المهدية . ويلتقي البروفسير ودكتور فيصل مع لينين في الشروط التي حددها لانتصار الانتفاضة .

ثم ينتقد عدم رجوعي الى الرسائل الجامعية التي أعدت عن المهدية،في

الجامعات المصرية ، لأنها في اعتقاده أهم ما كتب عن المهدية . وليته قال إنها من أهم ما كتب بدلاً من ذلك الحكم المطلق الذي يدخله في اشكالات أكاديمية . وليته لو ذكر لنا بعض مواضيع تلك الرسائل وما جاءت به من جديد اغفلنا أمره في كتابنا . لقد اطلعت على رسالة الدكتور فيصل التي اعدها لنيل درجة الماجستير من جامعة القاهرة وكتبت عنها عام ١٩٨٠ ما يلي :

انها رسالة رائدة لاختيارها بيت المال موضوعا للدراسة ، ولكن تناولها للموضوع كان مجزءا وفي كثير من الاحيان مختصرا . واعتمد الكاتب كثيراً على المراجع الثانوية ، وكان اعتماده على الوثائق الاولية محدودا ولم يفها حقها . وحتى ترتيب الوثائق في قائمة المصادر لم يكن يقوم على الأسس المتعارفة في هذا المجال ، وهذا ما جعل فائدتها محدودة » . كتبت هذا قبل ستة أعوام . فهل هي ضمن الرسائل التي اعتبرها أهم ما كتب عن المهدية ؟ راجع رسالتي للدكتوراه بعنوان « السياسة الاقتصادية لدولة المهدية » ص ٣٢٣ .

وحتى الرسائل التي اعدت في جامعة الخرطوم عن المهدية اهتمت بالسرد وترتيب الوثائق ، ولم يتسرب منها الا القليل ليؤثر في بنائنا النفسي وفي بلورة وعينا القومي .

وينتقل الكاتب الى موضوع آخر فيقول « ومعروف ان اسم الصوفية مشتق من أهل الصفة وهم الفقراء الذين كانوا يلازمون النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده ومنقطعين للعبادة والذكر وان رفضهم للحياة وزينتها انما هي عمل للحياة الآخرة وليست نتيجة ظروف اجتماعية » .

ليس من المعروف ان الصوفية منسوبة الى الصفة فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو صوفي. فاشتقاق الصوفي من الصفة بعيد عن مصطلح اللغة. ويرجح معظم الباحثين ان نسبة الصوفية منسوبة الى لبس الصوف. ولا ادري لماذا يقرر الدكتور فيصل تقريراً جازماً في أمور ما زال فيها أخذ ورد بين المهتمين بقضايا الفلسفة الاسلامية. كما ان هناك تناقضاً واضحاً في جملته السابقة. فهو يرى أن التصوف رفض للحياة وزينتها وعمل للآخرة وليس نتيجة ظروف اجتماعية. فماذا يعني رفض الحياة، أليس هذا موقفاً من الحياة نتج عن ظروف اجتماعية؟. فالجملة فيها اعتراف بالموقف الاجتماعي ورفض له في آن واحد.

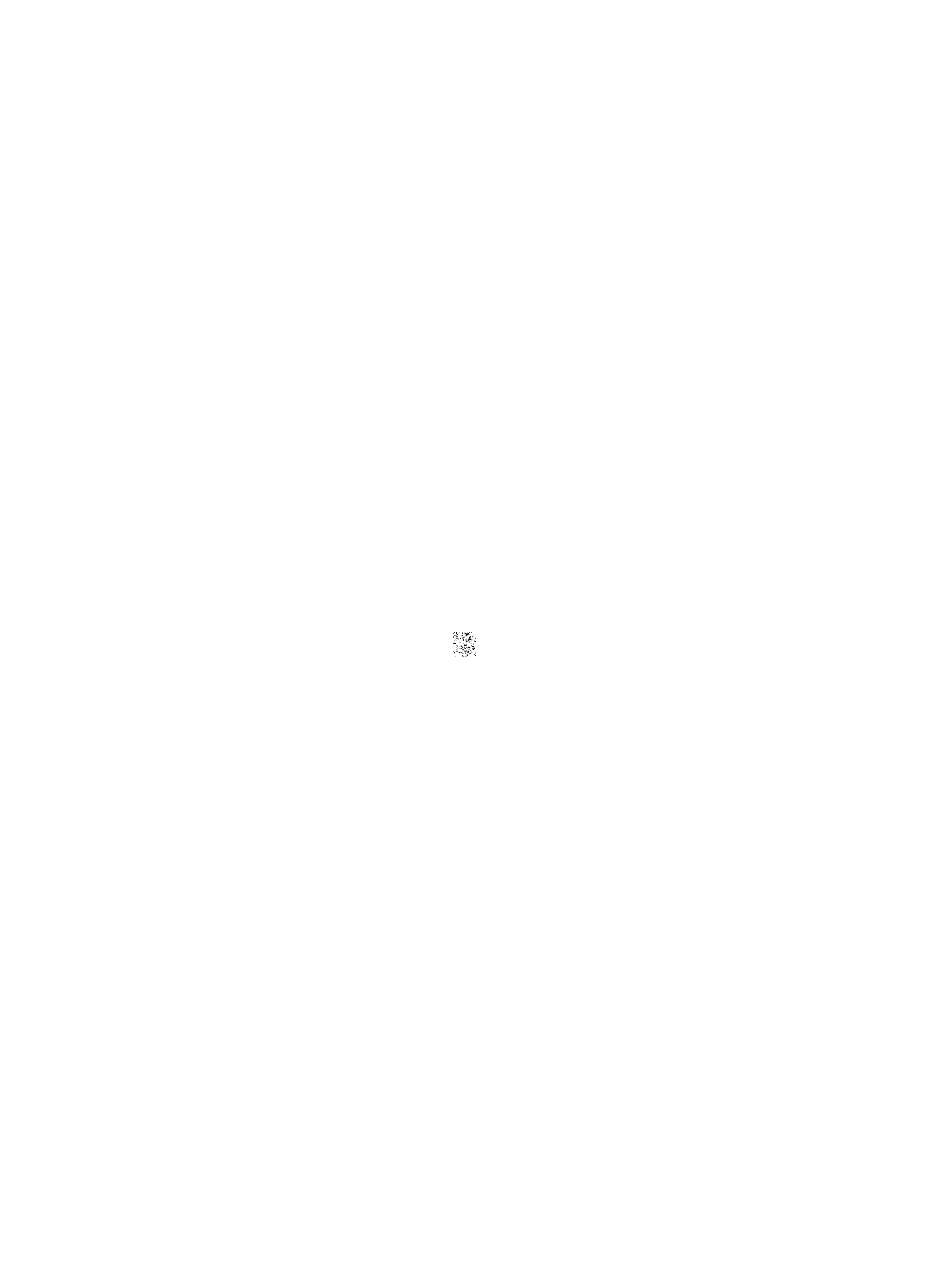
ثم يذهب الى القول بأن الدكتور حسين مروة ترجم ما قاله عن الصوفية ترجمة حرفية من كتاب ترمنجهام «الاسلام في السودان». وأكاد اجزم انه لم يسمع بالدكتور مروة. ولكنني أجزم أنه لم يقرأ كتابه. ولعله لم يتأن كما زعم في قراءة تلخيصي لمناقشة مرورة عن الصوفية. وينتابني شك في أنه قرأ ترمنجهام. أقول هذا لأن الخلط بين هذه المؤلفات يثير الدهشة.

وينتقد الدكتور ما قلته من أن اسهام السودانيين في التراث الاسلامي كان ضئيلاً وتعوزه الاصالة. وقد أخذت النص بكامله من كتاب البروفسير يوسف فضل ولم اتأثر به كما زعم. وقد اوردت النص لأنه في تقديري تحليل مقبول ومبني على دراسة ومقنع.. وما هو وجه الغرابة في الأخذ برأي العلماء في مجال تخصصهم؟ وها هو الدكتور فيصل يستشهد بكتابات البروفسير هولت يمينا وشمالاً..

وأما مؤلفات الصوفية التي أجهد نفسه في تلاوتها، فأغلبها معلوم وقد

درس بعضها ، وهي فعلاً تعوزها الاصالة . فان كان يرى عكس ذلك فليوضح مواطن الاصالة حتى يضيف جديداً الى معرفتنا .

ان مقالة الدكتور فيصل فيها الكثير من التناقضات والأحكام غير المدروسة . ولعله كتبه على عجل ، وليته لو تأنى فيه كما تأنى في القراءة ، لكان اراحنا من هذا العناء .



الفهرس